
رواية
سيرة القبطية
رحلة الخروج للنهار
شيرين هنائي
ساحر الكتب
الرواق للنشر والتوزيع

هذه رواية خيالية، مستوحاة من رحلة مصريين حقيقية، سعوا خلالها إلى الخروج للنهار.

شيرين هنائي

الشخصيات الحقيقية:

الأسقف شيرامون - فيرينا - ريجولا - فيكتور - موريس - فيليكس - أليساندروس.

«تستلهم الرواية حيوات الشخصيات الحقيقية وتضفرها في الدراما، لذا فهي لا تُعتبر مصدرًا لاستقاء التاريخ أو الدين».

سألتك: عمَّ أكتب؟ أجبتَ: اكتبي عنها؛ أنتِ تحبينها.

سأكتب عنها، وعنك، وعن الغُربة التي لا تنتهي.

إلى رفيق الليل ورحلة الخروج إلى النهار، إلى زوجي.

حين تتلاقى الأرواح، فمن يفرقها؟

إلى ماريا ألفي، وداليا عياد

أحبكما.

الشخصيات الحقيقية:

الأسقف شيرامون - فيرينا - ريجولا - فيكتور - موريس - فيليكس - أليساندروس.

«تستلهم الرواية حيوات الشخصيات الحقيقية وتضفرها في الدراما، لذا فهي لا تُعتبر مصدرًا لاستقاء التاريخ أو الدين».

سألتك: عمَّ أكتب؟ أجبتَ: اكتبي عنها؛ أنتِ تحبينها.

سأكتب عنها، وعنك، وعن الغُربة التي لا تنتهي.

إلى رفيق الليل ورحلة الخروج إلى النهار، إلى زوجي.

حين تتلاقى الأرواح، فمن يفرقها؟

إلى ماريا ألفي، وداليا عياد

أحبكما.

شكر خاص

دكتور حسين عبد البصير.

دكتور طارق منصور.

أ. محمد محيي.

لولا مساعدتكم لي بعلمكم، ما كنت لأُنهي هذه الرحلة.

ملحوظة:

فيرينا تكتب أسماء الأماكن بالقبطية، بينما تنطق شخصيات أخرى أسماء الأماكن نفسها باليونانية، كل حسب خلفياته الثقافية أو عمله.

أسماء الأماكن في الرواية وأسماؤها الحالي:

* كيمي بالقبطية - مصر

* كيميتيون - مصريون

* چراچوس - جراجوس، قرب قنا.

* تاوياس بالقبطية اللفظ القديم/ ديوسبوليس ماجنا باليونانية - طيبة.

* راكوتيه بالقبطية - الإسكندرية باليونانية - الإسكندرية

* كِفت بالقبطية - قفط

* كوس بالقبطية - كوساي باليونانية - القوصية

* أوكسيرينخوس باليونانية - البهنسا

* سيوط بالقبطية - أسيوط

* هيلاس باليونانية - اليونان (هيليني - يوناني)

* ميديولانوم بالرومانية - ميلانو

* توريكوم بالرومانية - زيورخ

* سالودوروم بالرومانية - سولوتورن

* أجاونوم بالرومانية - سان مورتيس

* أجوستا تريفيروروم بالرومانية - ترير.

* داشيا إنفريور بالرومانية - داسيا.

* بوينينوس مونس - جبال الألب

* نهر راينوس - نهر الراين

الفصل الأول

الفيضان

قضى الله أن تكون جنته أجمل وأبهى. فمن التربة الخصبة جعل الأشجار تنمو. ووسطها جميعًا انتصبت شجرة الحياة. شاهقة بارزة تزدهي بثمار الخُلد نبتًا من الذهب.

وإلى جوار الحياة كان الموت، حيث تنمو شجرة المعرفة قريبًا منها؛ المعرفة بالخير التي تُشرى بثمن غال وهو المعرفة بالشر!

الفردوس المفقود- جون ميلتون

(1)

في البدءِ

«... وكنت فوق التل، أعتلي ظهر الحمار، وحولي إخوتي... أهلي. ثم نزلت متَّكئة على كتف أبي لأقف بينهم، وآخذ منهم نصيبي من أعواد البردي. كنت أخجل أن أمضغه ثم أبصقه كما كان يفعل نفتالي، فكنت أغطي فمي بيدي فأخبئ مضغي وضحكاتي وأنا أشاهد (فيارو(1)) يفيض ليغطي الأرض بخيره، وتغمر رائحة الطمي كل ذكريات الكّد والتعب في الزرع والحصاد.

يقول أبي إن الماء وصل ستة عشر ذراعًا، وهو أقصى ما نتمنى، وتمام الخير وكمال النعمة.

أخلع نعلي وأجري مع رفاقي حافية مثلهم. يضحك أبي ويهيب بنا ألا نبتعد عنه فنضل، أو نقترب من الماء فننغرس في الطمي.

في كل عام من أعوامي الست يقول أبي نفس ما يقول، ولا يخوننا (فيارو) أبدًا. نعدو ونضحك -وبالطبع- ننزل التل نحو الماء لنحاول أن نمسك بالأسماك الصغيرة أو الضفادع. يحب نفتالي أن يغطي جسده بالطين ويجري خلفنا، فنصرخ

ونضحك ونرتمي على الأرض، ونفكر في اجتماعنا عند الغروب جوار شجرة الجميز الهائلة، نأكل أول خبز من طحين حصاد هذا العام، ونشوي البردي الذي لا نكف عن التهامه في كل حين.

مع كل خطوة أتأكد من أن قرطاي على شكل ثمرتي التوت لا زالا معلقين في أذناي. هما قرطا أمي، واليوم كنت أريد أن أتزين بهما في يوم بهجتنا هذا. لكني أشعر بأنهما يزيدا قلقي، فأنادي على سينيكا، لتأخذ مني القرطين؛ هي تكبرني بستة أعوام ولا تحب اللعب معنا. وجهها كان مضيئًا بنعمة الرب، وكانت المفضلة لديَّ من بين كل سكان بيت أبي. تأخذ سينيكا القرطين مني وتسير على مقربة تراقبنا حينًا، ثم تقول لنا إنها تعبت من السير وإنها ستعود إلى حيث يقف أبي مع أصدقائه من أصحاب الأراضي الزراعية، واللذين هما جيراننا وعائلتنا الكبيرة.

تبتعد سينيكا مترنِّحة، فلها ساق أقصر من الأخرى، لكنها كاملة في أعيننا، محبوبة هي من كل من يعرفها.

غد أو بعد غد سيأتي ابن عمي موريس، وسيحكي لنا عن راكوتيه(2)، حيث يذهب مرارًا مع كتيبته في الجيش لتلقي تدريبات خاصة، وأنا أحب حكايات راكوتيه وكنائسها وشوارعها ومدارسها. لا أعرف إن كنت سأزورها يومًا، لكن لا

بأس. اليوم ألهو، وغدًا يرحل خيالي مع كلمات موريس؛ أبي الثاني.

اليوم يوم فرح ولن أفكر في شيء سوى مطاردة نفتالي لنا والاختباء منه.

ماذا يمكن أن يحدث في يوم كهذا؟ أعرف أن ضحكاتنا تملأ ما بين الأرض والسماء، وشجرة الجميز تنتظرنا، وأمي تعد الفطير والخبز، وأبي يتسامر مع أحبائه، وموريس في الطريق..

فماذا قد يحدث في يوم كهذا سوى...»

(2)

لأنها من امرءٍ أُخِذت

إلى فيكتور من فيرينا، بخصوص خطبتنا.

تحياتي لك، ولكل أحبائك، ولجنودنا العظماء.

صلاتي لك أن تكون في رعاية الرب وحمايته، وأن تتمتع بقوتك وصحتك في مواجهة شر العالم وشر النفس.

منذ خُطبنا، ولم تُتح لنا فرصة الحديث. فقط رأيتني ورأيتك منذ زمن، وعرف كل منا أنك ستكون رجلي، وسأكون أنا امرأتك. أكتب لك لتعرفني أكثر، فقد عرفتك من حديث موريس عنك، ومن حكايات ريجولا التي حكاها لها فيليكس أخوها عن أخلاقك وشهامتك، وعن الرجال في الكتيبة، وبالطبع عرفتك حين كنت تنتظر موريس أمام منزلنا لترحل معه.

قررت الكتابة لك هذا الصباح بالذات، لأنني حلمت بسينيكا، وبذلك اليوم الذي ضاعت فيه في النهر. رغم مرور نحو عشرين عامًا، أنا عاجزة عن نسيان جسد سينيكا النحيل المستلقي على أرض بيتنا، والأسقف المُبجَّل بارتلميوس يصلي عليها.

عاجزة أنا عن نسيان موريس وهو يحمل جسد سينيكا المذبوحة، بعد أن قتلها لص لسرقة قرطاي منها، ثم ألقاها في النهر الفائض. هل تتصور يا فيكتور أن يتبع رجلًا طفلة ليسرقها ثم يقتلها؟

هل أكرهه؟ هل أنا ساخطة عليه؟ تلك طبيعة الحياة يا فيكتور. الجوع والفقر يقتل الجميع الآن، وأنا أكتب إليك هذا الخطاب، ودايوقلشيانوس لا يعبأ سوى بثوار اليهود في راكوتيه، وإسكاتهم، وبالراكوتيين الذين لا يفتأون يكتبون فيه الشعر الهجائي كما فعلوا مع أسلافه. أما نحن الكيميتيون(3) فلا يسمع أحد آهات فقرائنا ولا استغاثات قتلانا، ناهيك عن الخوف الذي نعيشه لأننا فقط نعبد الرب الحق.

هل أكره (فيارو) لأنه أخذ سينيكا؟ أم أشكره لأنه أعاد جسدها إلينا؟ هل أكره الحياة التي تأخذ لتمنح؟ التي تحرم لتعطي؟ هذه هي مشيئة الرب، ولا راحة إلا في العودة إلى ملكوت السماء.

أتعرف يا فيكتور؟ يوم رحلت سينيكا، لم أشعر بشيء محدد، فقط كنت أفكر في أمر واحد: هل كان في وسعي إنقاذها؟ لو لم أعطها قرطاي لما قتلها اللص. لو لم أطاوع نفتالي لما رحلت وتركتني.

لكن هل يمكنني حقًّا إنقاذ الجوعى والمرضى والفارين بدينهم والجنود في المعارك والأطفال في بطون أمهاتهم؟ من أنا كي أستطيع منح الحياة للجميع؟ أنا فيرينا، الفتاة التي نسيت أن تحيا لأنها لا تجد لها وطنًا تحيا فيه إلا قلوب مَن حولها.

لكن الجميع يرحلون يا فيكتور. الكل يترك فيرينا ويأخذ معه قسطًا من وطنها. أنا كالواقف في جزيرة تتآكل كل صباح، أنا مهددة بالغرق في الغُربة وأنا بعد في وطني.

تسألني ريجولا إن كنت سأرسل خطابي إليك، كي ترسل معه خطابًا لأخيها فيليكس، فأقول لها إنني لن أرسل شيئًا. حين نتقابل يا فيكتور سأحكي لك كل شيء، أما الآن فلا أرى سببًا يجعلني أبث إليك أحزاني ومخاوفي، فأنا أؤمن أن الرب سيكون معي كما كان مع موسى، لن يهملني ولن يتركني...

(3)

يكفي اليوم شرُّه

... هذا ما حدث أمس، ناهيك عن استمرار الكوابيس الشنيعة.

أما اليوم يا فيكتور، فقد رأيت موظف الإحصاء يطوف بالبيوت هنا في أوكسيرنخوس، وذكّرني بأول مرة رأيته فيها وأنا بعد طفلة، حين صعد الدرجات القليلة التي تؤدي إلى صحن دارنا، وجال بناظريه في المكان يُقيِّمه. تعرف أن منزلنا أكبر منزل في القرية، وكنت أظنه حتى وقت قريب أكبر منزل في چراچوس(4)، بل وفي تاوياس(5) كلها.

وقف عند البئر وشرب منه ثم سأل أبي:

- هل يسكن لديكم روماني أو سكندري؟

أجاب أبي:

- كلا. مَن هنا كيميتيون.

- من بلغ منهم الرابعة عشر؟

- ستة أفراد.

- هل لديك عبيد؟

نظر أبي لي نظرة جانبية، وكأنه لم يرغب أن أسمع إجابته. ثم في النهاية تنهد وأجاب:

- أجل. تسع. أربعة منهم بلغوا الرابعة عشر.

اتسعت عيناي وأنا أدرك للمرة الأولى في أعوام عمري القليلة وقتها، أن من يعيشون معنا في البيت ليسوا من عائلتنا. كنت ساذجة يا فيكتور، لا أعرف شيئًا إلا الطريق من بيتنا إلى أرض أبي الواقعة على ضفاف النهر.

دفع أبي ضريبة الرؤوس واجمًا، ثم بعد أن رحل الموظف وأخذ معه دجاجة وجدها أمامه من دجاجات أمي، قال لي أبي وهو يركع أمامي ليكون في مستوى رأسي:

- فيرينا.. كلنا هنا أسرة واحدة. كل من يعيشون في هذا البيت، وكل من حوله... كل من أتانا محبًا راغبًا في رفقتنا هو منا.

- سينيكا لم تكن قريبتي؟ ونفتالي؟ و...

- هم أسرتنا. كلهم.

- وقاتل سينيكا؟ هل نحبه بعد أن قتلها وهو من كان يعرفك وأكل من طعامنا وأحب رفقتنا؟

- سمعتم أنه قيل: تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما

أنا فأقول: أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم. وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم.

بكيت، فعانقني. تملصت من بين ذراعيه ورحت أعدو تحت الشمس اللاهبة إلى شجرة الجميز. جلست وحدي؛ لا أريد أن أرى أحدًا، وخطر على قلبي خاطر واحد؛ لو أخبرني أبي أن كل هؤلاء ليسوا عائلتي، وأن بعضهم لقطاء، وبعضهم أيتام يرعاهم، هل كنت سأحزن لرحيل من رحلوا منهم؟ هل كنت لأكابد هذه الأحلام المخيفة التي أرى فيها موريس يحمل سينيكا، وكلاهما ملطخ بالدماء والطمي؟

نظرت خلفي إلى بيتنا الأبيض المُشرف على القرية، وأبصرت الأولاد يلعبون أمامه آمنين، أو هكذا يظنون. هل يعرفون أنهم غرباء عني؟ هل يهتمون لهذا؟

(4)

فللرب نَحنُ

أنت تعرف يا فيكتور أن الموت يرفرف بجناحيه فوقنا، يستعد لاقتناص أيِّنا في أي لحظة. لذا، حين رحل أخانا بانوريوس ابن خمسة عشر عامًا أثر جرح في قدمه قد تلوَّث، خلعت نعلاي وقررت ألا أرتديهما مرة أخرى والناس في القرية حفاة.

كنت وقتها ابنة عشر سنوات. أخذني سيدنا بارتلميوس، لنجلس تحت الجميزة، وهو يعلم أنني أكتم في نفسي ما لا أقدر على البوح به، وأخشى إن تفوهت بما أفكر أن أجلب على نفسي الأفكار الرديئة فلا تُصرف عني.

قال لي وهو ينظر نحو قرص الشمس الغاربة:

- سأعود إلى تاوياس غدًا بمشيئة الرب. ألا تريدين أن تتحدثي عن شيء أيتها الثمرة الطيبة فيرينا؟

- سيدنا.. أنا بخير. لكن لي رجاء أن تجيبني على سؤال. هل يعاقبني الرب بأخذ أحبائي مني؟ هل جنت يداي خطيَّة وهذا عقابها؟

ابتسم وسألني:

- وماذا اقترفت يداك يا فيرينا؟

كان سؤاله إجابة كافية، لكني وقتها حكيت له باستفاضة عن كل ما فعلت طيلة فترة غيابه عنا، وكلها أفعال كنت أراها هائلة. الآن أقول لك يا فيكتور أنني قد أدركت مدى سذاجة طفولتي، لكن الشعور بالذنب تجاه كل من رحل لم يبرحني. ربما حتى الآن.

في سن الثالثة عشر، جاء الخُطاب يطلبون الزواج مني، وقد خطب نفتالي جارتنا الجميلة كياريس، وظل الجميع يلومون أباها على قبول خطبتها للقيط، يقال إن نفتالي كان ابن هيلّنية من زواج عبد راكوتي مُحرَّر. أنت تعرف أنه كان مجرَّمًا في الماضي زواج العبد الذي حرره راكوتي من رومانية أو هيلّنية، لكننا الآن جميعًا رومان -حتى ولو كان هذا القرار الإمبراطوري القديم صوريًا- إلا أن رفض المساواة بين الجميع ظل يسري في العروق.

لكن ما ذنب نفتالي الذي أمضيت أعوام طفولتي أظنه قريبنا، ويظننا عائلته؟ ما ذنب اللقطاء والعبيد فيما جنت أيدي آبائهم وأسيادهم؟

حين عرض عليّ أبي أسماء خُطابي واحدًا تلو الآخر، شردت، ظللت أفكر في الطريقة التي سأطلب منه بها ما

سأطلب. أخيرًا نظرت إلى عينيه الواسعتين، وأمسكت كف أمي الجالسة جواري وقلت:

- أبي.. أريد أن أتعلم.

- لا مانع أبدًا. أنت ذكية. ستتعلمين القراءة والكتابة سريعًا، ثم تتزوجين.

- كلا.. أريد أن أتعلم القراءة والكتابة، ثم أسافر إلى راكوتيه فأدرس في مدارسها التي حكى عنها موريس.

كنت أتحدث في حماس، ووجنتاي تتقدان بالحمرة. نظر أبي إلى أمي، التي قالت:

- ابنتي.. لا أفهم. أتريدين ارتياد مدارس الرومان؟

- نحن رومان! وهي مدارسنا! موريس يخدم في الجيش الروماني، الذي هو جيشنا!

لم أكن وقتها أعرف الفارق بين كتائب الولايات التابعة للإمبراطورية، والحاميات التي تراقب طرق التجارة، وبين جيش الإمبراطورية نفسه. وكنت أظننا والهيلّنيون قد صرنا رومانًا ولا فارق بين شخص وآخر. هكذا تعلمت من محبة أبي وأصدقائه الهيلّنيين، ونقاشاتهم عند التقائهم في موسم الحصاد.

حين أتذكر نفسي يا فيكتور في هذه السن، أجد أن تفكيري كان غريبًا، فمن في عمر الثالثة عشر متزوجات ولديهن أطفال. فما هذه الأرض المثالية التي كنت أظنني أحيا عليها؟! وكيف جمع عقلي الصغير تلك الحقائق -التي كنت أظنها حقائق وقتها- عن كيمي(6) وأهلها؟

ظل طلبي مُعلقًا حتى جاء موريس، وقال لأبي إنه سيدلُّه على معلم من أصل هيلّني، يعيش في مدينة تاوياس، وطمأنه أن تعليمي لن يقف عائقًا أمام زواجي إن أردتُ الزواج.

كان لموريس كلمة على أبي. أبي يكبره ببضع سنوات، لكن موريس هو الأكثر علمًا، وهو من جاب الأراضي شمالًا وجنوبًا، ورأى ما لم نرَ، وشهد ما لم نشهد.

لذا، وبعد الحصاد، جلس أبي وأمي يُعدّان المال اللازم لتعليمي، وفي حياتي لم أرَ هذا العدد من الدنانير والدراخمات في بيتنا. قالت لي أمي إنه المال الذي كان أبي يدخره لأجل شراء دوطة(7) زواجي، ولكم كانت قلقة خائفة وهي توافق أبي على تعليمي، بشرط ألا أذهب إلى راكوتيه، وأكتفي بتعلم كل ما أريد على يد معلمين في المنزل.

كان هذا انتصارًا كافيًا لي. سأعرف، ومن يعرف يستطيع أن يحمي. هكذا ظننت وأنا صغيرة بالطبع.

في اليوم الذي كنا نُجهز فيه كياريس للزواج، جلست في دارها أغسل شعرها وأمشطه بمشطي الخشبي المصنوع من خشب شجر الزيتون -مشط جدتي لأبي، وأثمن ما أملك- وأحكي لصديقاتي كيف أنهن سيرافقنني في دروسي ليتعلمن من معلمي الهيلّني العظيم.

- ومن سيدفع له أجرة تعليمنا يا فيرينا؟

- أبي! لا تقلقن.. سيمنحه أبي أجرة كبيرة تكفي كي يعلم القرية كلها.

رأيت الأحلام في أعينهن. بعضهن أصغر مني، مثل أوريليا الثرثارة، وبعضهن أكبر ولم يتزوجن بعد. المشترك بيننا هو جلسات شجرة الجميز والحُلم بما وراء ضفة (فيارو) الأخرى. يقولون إن الضفة الغربية تعج بالمقابر، وإنها أرض الموتى. لكني أعرف أن هناك ما هو خلف الموت، وما خلف الخوف من عبور (فيارو) القديم الأصيل.

(5)

لن تموتا!

في نهاية شهر أمشير، أيقظتني أمي متعجلة. بعد اغتسالي وتمام صلاتي، أحضرت لي رداء أزرق اللون من صنع يدها، وكان يشبه أردية الكبار الجميلة.

أجلستني على الحصيرة وثبتت كتفاي النحيلان بين فخذيها، وراحت تدهن شعري بزيت الزيتون وتمشطه بعناية، ثم ضفرته ولفَّته حول رأسي.

اليوم يصل مُعلمي إيزوس، وقد رآه نفتالي -حين كان يصطاد- يعبر الجسر منذ قليل على حماره، فهرع ينبئنا بقرب الوصول.

كدت أخرج مسرعة، لكن أمي أمسكت ذراعي تثبتني مكاني، وانحنت تخرج صندلي من صندوق أغراضي.

- لن أنتعل شيئًا!

- فيرينا! لا يصح أن تقابلي معلمك حافية!

- وهل يصح أن يسير الجميع حفاة حتى يموتوا من جرح تافه مثل.. مثل بانوريس؟

- فيرينا، ابنتي.. لا تجادليني اليوم فقط. يجب أن تكوني في أبهى حُلة. وارتدي قرطيك.

اتسعت عيناي وأنا أنظر إلى قرطين جديدين كانت أمي تحتفظ بهما لأجل زواجي. دمعتُ وتذكرت ما لا أريد تذكره.

دون كلمة أخرى، ارتديت الصندل، وخرجت تاركة يد أمي ممدودة بقطعتي الذهب.

كان الجو عاصفًا بالخارج. رياح أمشير تدفع النخيل فيميل حتى يكاد يلمس الأرض. رفيقاتي يقفن جوار باب منزل أبي، يتدارين وسط الأشجار الوارفة خشية أن ينهرهن أحد.

لكن فرصة رؤية معلم هيلّني في چراچوس، فرصة لا يتركها عاقل، فوقف الناس فوق أسطح المنازل بعد أن انتشر الخبر. الكل يأمل أن يرى لمحة من بذخ سكان عواصم الأقاليم.

أشعر بالخجل في ردائي الفاخر هذا. أشعر أنني أقل منهم. أحك قدماي في بعضهما رغبة في أن ينخلع الصندل أو تنقطع أربطته الجلدية.

تدمع عيناي من التراب، لكني أفتحهما عن آخرهما وأنا أبصر ظلًّا طويلًا يشق أستار العفرة الصفراء. يسير أبي نحوه مستقبلًا إياه في حفاوة. ينزل المعلم عن حماره، فأرى طوله

الغريب لكني لا أتبين ملامحه لأول وهله.

أغطي وجهي خجلًا بالطرحة التي تخفي شعري الذي شعَّثته الريح. يناديني أبي، فأهرع متعثرة في التونيك(8) الطويل. الزخارف الطولية التي نسجتها أمي عليه تشعرني بالذنب لأنني ألطِّخ هذا الكد في يوم مترب كهذا.

ينظر لي المعلم في تؤدة، يدرس تفاصيل ردائي وصندلي، ولا يتوقف عند وجهي كثيرًا. لكني -رغمًا عني- لا أستطيع أن أنزل عيناي عن تصفيفة شعره الغريبة؛ شعره أسود قصير، وقد ترك بعضًا من مقدمته طويلًا ليغطي مسافة صغيرة من جبهته، لكني لا أعرف كيف ثنى خصلاته بهذا الشكل لتزين جبينه، وكيف ثبتها في مكانها كالنقش رغم الريح.

لم أكن قد رأيت أحدًا يرتدي ذلك الزي الذي يرتديه؛ فوق ردائه التحتي، كان يلف جسده بتوجا(9) كاملة، بدا لي أن النسيج المستخدم فيها يصلح لصنع أردية تكفي عشرة أطفال. وكان ينتعل شيئًا عرفت فيما بعد أنه حذاء، لكني لم أكن قد رأيت وقتها أحذية من قبل. رغم ثراء أبي، هو يُفضل الثوب النظيف على الثوب الفاخر. وكان له رداء وتوجا قصيرة مطرزين يرتديهما حين يحضر الأسقف بارتلميوس، أو في المناسبات الدينية، ولم يكن يرتدي سوى الصندل الجلدي في المناسبات، أو ذاك المصنوع من البردي في الأيام

العادي.

قال المعلم إيزوس بلهجة غريبة:

- مرحبًا يا فيرينا. اجمعي أطراف ثوبك هذا، أو اجعلي أمك تصنع لك واحدًا يناسبك.

غفلت وقتها عن التعالي الذي قصده في عبارته الأخيرة، وفطنت إليها الآن فقط وأنا أكتب إليك! قاده أبي إلى البيت، ولم يكف المعلم عن تسديد النظرات المشمئزة نحو رفيقاتي وأهل القرية الذي يطلون من فوق منازلهم المتلاصقة ككتلة واحدة بيضاء وسط اصفرار الهواء.

جلس في صحن البيت وقدمنا له اللبن المخمَّر بينما تُعد أمي -بمساعدة فتيات الدار- وجبة أكبر لوقت الظهيرة. شرب الجرة كلها، ثم طلب نبيذًا، ولم يكن لدينا سوى الشعير. نظر إليه بجانب عينيه ثم شربه على مضض.

أول ما سألته هو:

- هل يمكن أن تأتي الفتيات لتتعلمن معي؟

- مَن الفتيات؟ إخوتك؟

ترددت هنيهة، ثم قررت ألا أجيب. لكني قلت:

- أبي سيدفع أجر تعليمهن.

نظر المعلم إلى أبي الذي كان مشغولًا في جلب أدواتي، فقال أبي:

- لا بأس. سأدفع لهن.

عقد المعلم حاجبيه وهدر صوته الجاف المتعجرف:

- سألت سؤالًا، هل هن أخواتها؟

أجاب أبي:

- بعضهن من جيراننا، وبعضهن يساعدننا في شؤون المنزل.

- فلاحون وعبيد؟!

قام إيزوس ململمًا ثوبه في كبرياء وهو يغمغم:

- لي أجر هذا الشهر. ولا يسعني أن أتقبل هذه الإهانة. أنا لا أعلم العبيد والفلاحين، ولولا وساطة رجل الجيش هذا -لا أذكر اسمه- لما جئت إلى هذه القرية.

قام أبي متعجبًا، وقال وهو يقف خلفي ويحيط كتفاي بذراعه:

- لا أجد إهانة في عرضنا يا سيدي. أنت تعلمهم ولك أجرك المعنوي والمادي. كما أننا هنا لا نقل شيئًا عن سكان عواصم الأقاليم. بل أجرؤ وأقول إننا لا نقل عن الراكوتيين. كما قال

بولس الرسول: لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح. ليس يهودي ولا هيلِّني. ليس عبد ولا حر. ليس ذكر ولا أنثى. لأنكم جميعًا واحد في المسيح يسوع.

ابتسم المعلم ابتسامة جانبية غريبة، ثم مسح على وجهه وقال:

- لن أعلِّم سوى هذه.

وأشار إليّ، ثم جلس مكانه وقرب إلينا ألواح الفخار التي سنكتب عليها. نظر لي أبي، فجلست أمام المعلم في استسلام. لو رحل هذا، فهل ستكون هناك فرصة أخرى لجلب معلم بديل؟

كان هذا حافزًا عظيمًا لي يا فيكتور أن أصب تركيزي في النهل من معارفه -والتي هي بالفعل عظيمة- حتى أنقل للفتيات ما تعلمت.

وصارت جلسة الجميزة جلسة علم، تمسك كل فتاة وصبي في يده لوح فخار، وينقش عليها الحروف الهيلِّنية. بالطبع كان أول من علَّمت من الفتيات أوريليا الثرثارة، وريجولا المتَّقدة كقطة صغيرة.

أقول لهما وأنا أنقش الحروف على لوح طيني أمامهم:

- ألفا تشبه السمكة التي تسبح في نهرنا.. بيتا تشبه أم يولياس السمينة.. جاما فرع شجرة مثل تلك التي تظللنا.. دلتا ثمرة جميز حلوة.. إبسلون دودة أرض تقلب الثرى فيطرح نباتًا..

كانت تشبيهاتي للحروف بكل شيء حولنا هو ما جعل الهيلّنية مألوفة بالنسبة لي، حتى وإن لم تكن تشبه لغة القدماء المنقوشة على جدران المعابد القديمة التي كنت أرى أطلالها مع موريس. كنت يا فيكتور -ودون أن أدري- أصنع وطنًا حولي وحول أحبائي. وطنًا ملكنا، يحبنا ونحبه، ونحتمي بين ذراعيه من هول ما نسمع ونرى.

وحين انتهى إيزوس من تعليمي الكتابة والقراءة، بدأ في تلقيني الأدب الإغريقي. ورأيت نسختين من ملحمتي الأوديسة والإلياذة، يحملهما معه في جراب جلدي مزخرف. عيناه تلمعان وهو يراقب تعبيرات وجهي إذ أرى هذه الفخامة. جف ريقي وأنا أسأله:

- هل سأقرأ كل هذا؟ هل سأفهم؟

- رغم أنك عنيدة، محبة للغوغاء، متشبهة بهم، لكنك ستفهمين. أنا عازم على أن أجعل منك أيقونة بديعة، فقط سلمي لي عقلك وقلبك.

أما قلبي فلا. قلبي كان مع الرب، وسيدنا بارتلميوس الذي كان يكره إيزوس سيرته، وكأنه الشوكة التي تقف في حلقه وتمنعه عن بث علمه في عقلي.

لكن آه يا فيكتور مما فعلته بي الأوديسة! وأنا أحفظ أبياتها وحدي تحت الجميزة، بعد أن تزوجت الصديقات، وجاء بعدهن طفلات ينشدن قشور العلم من فيرينا الوحيدة المُتنسِّكة.

آه يا فيكتور مما فعلت بعقلي تلك الملحمة التي انتصر بطلها على البطش بالعقل.

اقرأ معي هذه الأبيات:

«أيا ملهمتي، خبِّريني كيف طاف وتاه، بعد أن هدم طروادة المقدسة.

أين ذهب ومن التقى؟

خبريني عن الألم الذي أججته عواصف البحر الهائجة، وعمَّ فعل لينقذ حياته، ويعيد رجاله للديار.

كثيرون هم الرجال الذين التقى، والذين منهم استقى المعرفة والعقل.

حدِّثيني عن عجزه في إبقاء رفاقه في مأمن، أولئك

المساكين الذين أكلوا من قطيع رب الشمس، فأقصاهم عن الديار».

هل شعرتَ بالذي شعرتُ به؟ لا أعرف السبب الذي من أجله مسَّتني تلك الأبيات، وشبهها بنبؤات العرافين، رغم أنني لا أؤمن بالنبوءات ولا باستباق معرفة ما هو آتٍ.

(6)

لن تتكلم شفتاي إثمًا

... هذه حكاية يا فيكتور حدثت منذ سنوات، وأظنها اعترافًا يثقل كاهلي، أظن أن من حقك معرفته...

يومها ذهبت إلى تاوياس مع مُعلمي إيزوس، وقد كنت أتوق إلى معرفة ما قد تفعله فيرينا الجديدة، ابنة التاسعة عشر، في عاصمة الإقليم. أنا الآن أعرف القراء والكتابة باليونانية والرومانية، وأرتحل بين أمواج الأوديسة ببراعة، وأسكن أبيات شعر سيمونديس السيوسي، وآلف ملاحم كوكبة الإسكندرية.

لم أسافر وحدي، بل كان برفقتنا -وعلى مسافة آمنة لا تثير حفيظة معلمي كاره الفلاحين- أحد عبيدنا -ولا تؤاخذني إذ استخدمت هذا اللفظ- وكان سيدنا بارتلميوس في تاوياس، وقد طلب مني أن يقابل معلمي ليتعرف عليه، بعد أن أنهي رحلتي.

الخطية الأولى في هذا اليوم هو فخري -حتى لو لم يظهر خارج قلبي- بما عرفت، وبما تميزت عن سائر الناس.

والخطية الثانية هي أنني لم أخبر سيدنا بارتلميوس

بطبيعة الجولة التي سأذهب فيها مع معلمي. صدقًا لو كان قد سألني لكنت أخبرته، لكن شعوري بالإثم تجاه إخفائي عنه مقصدنا لا زال يخنقني.

تسأل نفسك الآن: إلى أين كنا ذاهبين؟

كنا في طريقنا إلى المعبد الكيميتي القديم -الذي صار رومانيًا- لحضور حفل ذكرى تولي إمبراطورنا السعيد -وقتها- ماركوس أوريليوس بروبوس، ولا نعرف إلى متى سيستطيع التمسك بالعرش قبل أن يموت -أم يُغتال؟- كسابقيه.

الاحتفالات كانت باهتة -كما أخبرني مُعلمي- مقارنة بشكل الاحتفالات السنوية للأباطرة الأقدم والأعظم. اقتصر الأمر على موكب احتفالي كان مبهرًا بالنسبة لي، أنا التي لم أشهد تلك الاحتفالات قط، ولم أرَ تلك الكميات من الأزهار التي تُزين تماثيل المعبودات في المعابد.

كان أبي يرفض حضور تلك الاحتفالات لما بها من تقديس أو تأليه للأباطرة، وكنت وما زلت مؤمنة بذلك بقوة، لكني لن أحضر تلك الاحتفالات لأقدم الهدايا، أنا فقط سأرى وسأفهم وأتعلم كيف أخوض غمار الوثنية وأخرج منها ومن معي سالمين، بل كيف سنروِّض عواصفها ونكسر أمواجها. الجاهل ضعيف يا فيكتور، عبد للخوف من الفتنة والذعر من المواجهات. الجاهل يا فيكتور لن يحمل راية الرب ولن يقدر

على أن ينشر كلمته؛ للكلمة أمام الكلمة سلطان، وتحاشي المواجهة هو عذر ضعيفي الإيمان.

كنت أرى ما أرى والطفلة بداخلي مبهورة، أما فيرينا فكانت تجهر: كونوا رجالًا. كونوا أقوياء.

لم أسأل من قبل عن ديانة إيزوس، لكنني افترضت أنه ليس مسيحيًا. في الاحتفال بذكرى تتويج الإمبراطور، جاء أحد الرجال الذي بدا من أبَّهته أنه ذو مال، وأنه يعرف إيزوس أو سمع عنه من قبل. حدَّثه بصوت خافت، ولمحت أسارير المعلم المتجهم تنفرج، لكنه سرعان ما افتعل الوقار اللازم لهيبته، ثم قال لي:

- لديَّ عمل. لن أتركك هنا وحدك. أعرف أنك قد تثيرين المشاكل لو رأيت ما يحدث في الاحتفالات.

- وماذا يحدث فيها غير الذي نراه؟

- ما تعتبرينه أنت كُفرًا، ويعتبره الجميع سواكم أنتم المسيحيون توقيرًا لجلالة الإمبراطور. لا تشردي عن القطيع يا فيرينا فتضلِّي.

- أعتقد أن القطيع هالك، والشرود عنه هو الخلاص.

قلتها مُتحدية، رغم أن الطفلة داخلي كانت تصرخ بي أن

أصمت، وأحافظ على علاقتي بُمعلمي. الشكر للرب أنه لم يُعلِّق، وأشار لي بأطراف أصابعه أن أتبعه، ففعلت.

مشيت خلفه، وأنا أومئ للعبد الخلوق من وقت لآخر لأطمئنه أن كل شيء على ما يرام. وصلنا إلى دار عظيمة، مبنية بالكامل من الحجر، وقد طُليت جدرانها وتزينت برسوم ملونة متقنة، وقد زُيِّن المدخل بالأزهار، ولمحت جرار خمر وعدة خنازير مذبوحة في الباحة. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها خنزيرًا مذبوحًا، ويبدو أنهم قد ذبحوه احتفالًا بذكرى تولي الإمبراطور، فأدركت أن صاحب البيت وثني.

أجلسني إيزوس على مقربة، وقدمني إلى مضيفنا على أنني تلميذته، وأيقونة نجاحة في التعليم. استحسن المضيف ما قال، وسألني إن كنت أدرس الطب، فتعجبت ونظرت إلى إيزوس الذي أجاب:

- بل الأدب والشعر. لو عرفت أن هناك من يبغي تحويل أبنائه إلى أيقونات أدب أو طب، رشحني لهم، والمكسب لهم ولأبنائهم. أنت تعرف حال التعليم في الإسكندرية، وأساتذتها الجهلة.

- حقًّا تقول. لي صديق قد أرسل ابنه لحضور دروس معلم روماني هناك، وقد عاد الولد بعد شهرين حانقًا من تدهور

مستوى أولئك الأساتذة. أما أنت يا إيزوس العزيز فجميعنا نعرفك ونعرف.. نعرف نزاهتك.

ابتسم مضيفنا ابتسامة لها معنى لم أفطن إليه وقتها، وهو يومئ نحوي، ثم قال:

- للسيدات دلال على السيدات.. والسيدات هن عِماد البيوت. أليس كذلك؟

لم أفهم مقصده، فأطرقت. أمر عبيدًا له فجاءوا بأوراق بردي ومداد، وجرة نبيذ ذات رائحة فائحة.

قال مضيفنا وهو ينظر إليّ من وقت لآخر:

- الآن يا عزيزي إيزوس العظيم، قد خلا منصب كاهن المعبد؛ لم يعد للكاهن الأخير وريث يصلح. وأنت تعرف أنني رجل قادر على.. أنت تفهم.

- قادر على شراء هذا المنصب. لماذا لا تُسمي الأمور بمسمياتها؟ هل شراء المنصب يعني أن الولد لا يصلح له؟ بالطبع لا!

- أنت تفهمني، وقد أرحتني. ما أريد هو أن تكتب لي شهادة أن ابني من نسل الكهنة.

- المنصب سيخضع لمزايدة الكثيرين يا تورانيوس. هل

تدرك ذلك؟

- بالطبع. وهي ليست العقبة الوحيدة كما تعرف.

- أمر الشهادة التي أثبت لابنك فيها نسبًا كهنوتيًا سهل. وأعرف من يوثِّقها ويثق بي ثقة كاملة.

- المشكلة الثانية هي...

ثم نادى على من اتضح لنا أنه ابنه، فجاء الأخير مهمومًا، ولاحظت آثار زُرقة عند فكه.

أردف تورانيوس:

- لم يُختن ابني، والمُفترض أن يُختن في حال قبوله.

- لا تقلق. ما المشكلة؟

صرف مضيفي العبيد، وأغلق الباب. ثم دون استئذان، قام تورانيوس فرفع رداء ابنه كاشفًا عورته. أشحت بنظري فورًا فلم أر شيئًا. شعرت بإيزوس يتحرك، ثم سمعت صوته يقول:

- آه... هذا... ألا يوجد لديك ابن آخر غير هذا؟

- هو ابني الوحيد. هل تقبل لي الفضيحة؟ أعرف أنك قادر على كتابة تقرير طبي تؤكد فيه أنه مكتمل الرجولة، ولائق لمنصب كاهن. لن أستطع أن أزوِّجه ولن ينفع في شيء دون

أن يفضح اسم العائلة. ربما تستطيع السيدة فيرينا أن تقنع أمه كذلك، فهي لا تريده أن يبتعد عن حضنها. السيدات هن عماد البيوت، هه؟

- غطّه.

جلس إيزوس جواري، ثم قال لي:

- اكتبي يا فيرينا..

أمسكت البوصة وأنا أثبّت نظري على البردية أمامي. راح يُمليني أنه يقر ويُقسم باسم الإمبراطور وحظه السعيد أنه قد تأكد بالأدلة الطبية أن الشاب لائق بدنيًا، ويقر أنه من نسل كهنوتي قديم، وأنه سيقوم بختانه في حال قبوله لتولي المنصب. توقفت عن الكتابة حين وصلت لإقراره بأن الشاب لائق بدنيًا، ونظرت إليه مستنكرة، فقال همسًا:

- فيرينا.. أنت لا تؤمنين سوى بإلهك، وترين الغير ضالين، أليس كذلك؟

هززت رأسي إيجابًا، فأكمل:

- وتعرفين أن منصبه الكهنوتي سيكون لخدمة معبد لا تؤمنين بمعبوداته. ما ستكتبينه ليس زورًا، فكل هذه الطقوس الخائبة زور في حد ذاتها. ما الفارق أن يكون

الكاهن لائقًا جسديًا، أو مخنثًا؟

- هذا كذب. لن أكذب ولن أكتب زورًا.

- هل رأيتِ عورة الشاب؟ لم ترها. أنا رأيتها. لذا، فأنت لا تكذبين، ولا تقسمين زورًا بآلهة تكفرين بها. اكتبي ما أملي عليكِ، ثم اذهبي لتقنعي والدته بما سنفعل. يجب ألا تثرثري كثيرًا.

- اكتب أنت ما تريد.

تركت البوصة وهممت بالقيام، فأمسك معصمي وهدر صوته:

- فيرينا! تأدَّبي!

تملصت منه وخرجت أقف عند الباب. سمعته في الداخل يقرأ ما يكتب حتى يطمئن الأب أن ما يشاء قد كُتب. ثم طلب إيزوس منه ضعفي الأجر، فوافق دون جدل، ثم أضاف:

- أنت معلم ممتاز يا سيدي إيزوس، وطبيب بارع. لكن يبدو أنك قد أسأت تربية تلميذتك.

- الحجر الصلب يتطلب قوة أكثر حتى يتحول إلى صنم بديع يسجد له الناس. مُر عبيدك أن ينقلوا أجري إلى

ركوبتي. وأريد شيئًا من هذا الخنزير المطهو.

لمحت الشاب البائس -ابن تورانيوس- يهرع باكيًا في الطريق، فيصطدم بالمارة، يُسقطهم تارة، ويسقط هو تارة. هرع العبد إليه يساعده على القيام، فسرت حتى وقفت على مسافة يستطيع سماعي منها، وسألته وأنا أنظر إلى الأرض:

- هل تحتاج مساعدة؟

صاح بصوت رفيع متهدج:

- اتركوني وشأني. لولا أمثال معلمك وأمثالك لما أمِل أبي في أن يبيعني للمعبد.

- لست كمُعلمي يا سيدي. كيف أساعدك؟

- لترحمني الآلهة، لا يوجد من هو قادر على مساعدتي.

قام الشاب يعدو مُكملًا طريقه، ووقفت مكاني كتمثال، تنحدر دموعي على وجنتاي أسفًا عليه وعلى عجزي.

رفعت وجهي حين شممت رائحة النبيذ المخلوطة برائحة عطر إيزوس. كان متجهمًا ينوي أن يؤدبني بطريقة لا أتصور كُنهها؛ هو معلمي، وليس أبي.

- أتعرفين كم فوَّتِّ على نفسك بسبب ضيق أفقك أيتها الفلاحة الكيميتية؟

- فوَّتُّ المجد الباطل الذي يأتي من الناس يا سيدي. وأنا بهذا فرِحة.

- يا فيرينا.. هل ترين هذا المنزل وهذه الأراضي حوله؟ هل ترين الأزهار والذبائح وقدور الخمر والزيت وصُرَر الدنانير؟ هذه هي حياة شخص عادي من سكان ديسبوليس ماجنا. وديسبوليس ماجنا ليست الإسكندرية، ولا حتى كروكودوبوليس. ألا تريدين أن تعيشي هذه العيشة الرغدة؟

- يقول كتابي المقدس: اهتموا بما فوق، لا بما على الأرض.

- ستعيشين وتموتين في چراچوس كقطعة روث من ماشية نجسة. لا تستحقين هذا الذكاء الذي يستطيع أن يرفعك إلى مقام نبلاء روما خالدي الذكر.

- لا تكنزوا لكم كنوزًا على الأرض حيث يُفسد السوس والصدأ.

- ألم يقل لك كتابك شيئًا عن رفس النعمة كالبهائم؟

دار على عقبيه مُبتعدًا، ثم توقَّف بعد حين ينظر خلفه ليرى إن كنت أتبعه، فرآني ألزم مكاني، أرفع رأسي ولا أبالي.

- ألن تأتي؟

- إلى أين؟

- سأعيدك إلى أبيك.

- الأسقف بارتلميوس يريد مقابلتك.

- وأنا لا أريد مقابلته.

- لا بأس. سأعود إلى أبي بنفسي بعد أن أزور سيدنا. هيا...

أشرت إلى العبد وسرت في الاتجاه المعاكس، لا أعرف في أي اتجاه أسير حتى أصل إلى سيدنا، ولا أي ركوبة سنركب. كنت على استعداد تام أن أضل أو أبيت في الطريق تكفيرًا عن كل مرة صبرت فيها على إيزوس طمعًا في علمه، وإرضاءً لغروري وفضولي.

سرعان ما سمعت إيزوس يناديني:

- أيتها الفلاحة التائهة، هل تعرفين كيف تذهبين إلى أسقفك هذا أصلًا؟

دون أن ألتفت له قلت:

- سأسأل.

- سأوصلك إلى حيث تريدين، فقط كي تري أنني لن أتخلى عن امرأة ائتمنني أبوها عليها. لي معه حديث آخر.

في كبرياء عدت إليه، وسرت حتى تقدمته ثم قلت:

- وأنا كذلك لي معه حديث آخر بشأنك.

ضرب كفًّا بكف، ثم لحقني وهو يتفوه بكلمات لم أميزها.

(7)

لستُ أنا!

أمضيت الليل يومها يا فيكتور في الحجرات المرفقة بالكنيسة، وكان إيزوس قد رحل إلى حيث سيبيت في مكان مجهول، على أن يأتي ليصحبني صباحًا فيعيدني إلى چراچوس.

لم أنم لحظة، وقد ظل عقلي يعيد عليَّ نظرة سيدنا بارتلميوس إلى إيزوس، ونظرة الأخير له. لم يحدثني سيدنا عن أي شيء، وكنت أتوق إلى أن أحكي له ما حدث، وأطلب منه أن يصلي من أجلي ومن أجل مغفرة ما ارتكبت.

في الصباح، شرعت أردد في نفسي وأنا خارجة لألقى إيزوس: «ساعدني يا رب أن أواجه كل ما سيحمله لي هذا اليوم بسلام. قوِّم أفكاري وأحاسيسي في كل ما أعمله وأقوله، وإن صادفني في هذا النهار أمر غير مرتقب لا تدعني أنسى أنه آت من لدُنك. آمين».

لم يكن إيزوس قد وصل بعد، فجلست آكل ما قدموه لي من خبز وجبن، حتى ظهر سيدنا بارتلميوس في زي بسيط خشن، حاملًا في يده قدرًا من الماء كان يسقي به الزرع.

هرعت أقبِّل كفه، ثم فتحت فمي أحكي له ما حدث أمس، لكنه قال:

- هل تعرفين سيدنا الأسقف شيرامون؟

- حكى لي أبي أنه هو من عمَّدني وأنا رضيعة. كان يحبه للغاية.

- هل تعرفين كيف استشهد؟

- استشهد خلال اضطهاد ديسيوس على ما أتذكر.

- ومن أخبره عن مكانه هو وزوجته؟ مَن سلَّمه إلى الرومان؟

- ماذا تعني؟!

- ابنتي.. دعك من مرافقة هذا الرجل، إيزوس. كل شيء طاهر للطاهرين، وأما النجسين وغير المؤمنين فليس شيء طاهرًا، بل قد تنجس ذهنهم أيضًا وضمائرهم.

- هل تعرف من هو إيزوس يا سيدنا؟

- هو معلم وطبيب بارع، لكنه خبيث يا ابنتي، وأخشى أن ينالك من خبثه.

ثم أعطاني رسالة، وطلب مني أن أسلمها لأبي. بعدها ظهر

إيزوس على حماره، وركبت معه عائدة إلى بيتنا.

كانت الرحلة طويلة، وقد شعرت بطولها أكثر وأنا أفكر في الرسالة، وفيما لمَّح لي به سيدنا. لكن أكثر ما أرعبني هي نظرة إيزوس له. نظرة حقد وكراهية غريبة وكأن هناك ثأرًا بينهما.

كان من المفترض أن يبيت إيزوس عندنا، فطلبت من أبي أن يُرجئ الحديث معه عن أي شيء حتى الصباح. ثم جلست معه وأمي أحكي لهما ما حدث.

مسح أبي وجهه وقال لي:

- ابنتي.. هل اكتفيتِ من التعليم؟

صمتُّ، فعرف إجابتي، فقال:

- سأطلب من موريس أن يبحث لك عن معلم آخر. لم تكوني مضطرة قط يا ابنتي أن تخفي عني ما أساءكِ من تصرفات معلمك، خشية أن تفقدي فرصة التعلُّم.

- كنت أظنه يا أبي مجرد رجل مغرور لا أكثر. لكن ما قرأته لك مما ذكر سيدنا بارتلميوس قد أرعبني. من هو هذا الشخص؟ وما أصله؟

- وماذا يريد منك يا ابنتي؟ هذا هو السؤال الأهم.

أفكر في ما ذكر سيدنا عن إيزوس، وعن الفساد الذي يخلفه حيثما حل. عن عمره الطويل وأسفاره العديدة، وعن مصير مَن علّمهم، وكيف صاروا أصنامًا من لحم ودم يعبدها الجهلة والمحتاجون.

وقبل أن يظهر نور النهار، سمعنا تأوهات عالية، ثم صوت أحدهم يقيء ويتألم. هرعنا جميعًا إلى حيث الصوت القادم من الحجرة التي يبيت فيها إيزوس. وجدناه يتلوى فوق الفراش، وحين رآنا صاح:

- طعامكم الملوث هذا سيقتلني.

قال أبي:

- لقد أكلنا جميعًا منه يا سيدي. ربما كان السبب شيئًا أكلته في...

- أنا وصلت هنا بخير وفي أتم صحة. لست معتادًا على الأكل الذي يأكل منه العبيد هذا.

نظر أبي إليّ في ارتباك ثم سألني:

- لمن نُرسل في هذا الوقت المبكر؟! من قد يساعده؟

- سأغلي له بعض الحلبة..

قاطعنا إيزوس وهو ينعق كغراب مذبوح:

- بالطبع لا يوجد أطباء هنا. أنت أيها الأحمق كنت تملك المال الذي يؤهلك للعيش في ديسبوليس ماجنا، لكنك اخترت حياة القرى الحقيرة. لا طبيب ولا شرطة ولا أي شيء... أين يذهب من يمرض منكم؟ إلى الساحر؟ أم تتركونه يموت؟

أغمضت عيناي واستندت إلى الحائط للحظات، وأنا أتذكر كل مَن مات من أهلي للأسباب التي ذكرها هذا الحقير. أكاد أشعر بيديه تقلبان بين أوراق ذكرياتي، ويرى فيها ما يلوي ذراعي به.

قلت وأنا أجاهد كي أظهر قوتي:

- أنت طبيب، أليس كذلك؟ قل لي كيف أساعدك.

- وهل الطب سهل حتى أكتب لك وصفة على قطعة فخار تحفظينها فتصيرين طبيبة؟ هذه مسألة حياة أو موت! وأنا أموت، أموت بسببكم!

أردت أن أقول له إن لا خيار له سوى أن يموت إن كان لا يثق فيَّ، لكني رأيت بين أفكاري ما يُرجِّح كفة أن يُعلمني. كم سأخدم أهلي لو تعلمت الطب؟ أنا الآن أجلس تحت جميزتي بلا شيء أفعله، وبلا تلاميذ أعلمهم ما هو أكثر من فك رمز الخط.

هل يمكنني إنقاذهم كما أنقذ أوديسيوس رجاله من تيه البحار؟

قلت له وأنا أهم بالخروج:

- أخبرني ماذا أجلب، وكيف أعالجك. هيا.

في امتعاض، طلب مني أعشابًا يشربها، وأخرى لصنع حقنة شرجية. صحبت أمي وأبي إلى الخارج وقلت لهما سريعًا:

- لن نتركه يموت، أليس كذلك؟

- بالطبع يا ابنتي. بالطبع!

- حسنًا، ساعداني في جلب ما يريد.

ذهبت أمي لبيوت الجيران تقترض ما ليس عندنا، وشرعت أنا في تحضير الحقنة الشرجية؛ أقدم علاج علمنا إياه طائر أبو قردان.

لا أعرف لماذا كنت أبكي وأنا أصلي لأجله.

أنت يا رب، عافية المرضى، نسألك أن تحنن على الذين يتألمون في جسدهم، وعلى الذين يتألمون في قلبهم، وعلى الذين يتألمون في روحهم.

رحمتك يا رب نسأل الآن من أجلهم.

ظللنا بالقرب منه حتى أشرقت الشمس، نامت أمي إرهاقًا، وخرج أبي ليرعى شؤونه، وظللت أنا جالسة في ركن الحجرة أفكر في سينيكا يحمل جسدها موريس، وأفكر في بانوريس، وفي كل من تركوني وأخذوا معهم قسطًا من الأرض التي أحيا عليها.

أفاق إيزوس من غفوته، فأشار لي إشارته المتعجرفة كي أقترب. مِلت عليه أسمع ما يقول.

- أنت يا فيرينا.. لك لمسة شافية. أكاد أجزم بهذا. كدت أموت، لكني كذلك كنت موقن أنك قادرة على صنع الأعاجيب.

- أنا لم أفعل سوى تطبيق ما أشرت عليّ به.

ضحك في وهن، ثم قال:

- كتب هيروفيلوس وفيلينيوس وأبوللودوروس السكندري موجودة، ولو كان تعلم الطب عن طريق تطبيق الوصفات كافٍ، لما نَدر الأطباء يا فيرينا. كم طبيب لديكم هنا؟

- لا يوجد أطباء. نحن نتداوى بالوصفات القديمة. لكن يمكننا جلب طبيب من...

قاطعني وهو ينظر إلى عيناي:

- وكم يستغرق جلب طبيب من مدينة أخرى؟ يومًا؟ يومان؟ لو أن أحدهم ينزف، من سيصله أولًا، الطبيب أو الموت؟

ضغطت فكاي، وحاولت أن أداري الدمع في عيني خلف انسدال غطاء شعري. هذا الرجل يعرف ذكرياتي، ولا أعرف كيف. لكن إن كان إيزوس خبيث الروح، فهل من الضرورة أن يكون كل كلامه زورًا؟

سألته أخيرًا:

- لماذا لم تخبرنا بأنك طبيب يا سيدي؟

- أولًا، لأنكم قد أرسلتم في طلب مُعلم لا طبيب. وثانيًا، أنني كنت أعلمك في منزلك، ويحيط بنا القرويون متقرِّحو الأقدام سيئو التغذية طيلة الوقت، فلو أنهم عرفوا أنني طبيب، هل كانوا يستركوني لشأني؟ هل كانوا سيستطيعون دفع أجرتي؟

- لكن الرب قد منحك القدرة على الشفاء، وها أنت تقايضها بالمال وحده. هؤلاء لا يملكون قوت يومهم، ولن تغرم كثيرًا لو نصحتهم بشيء يساعدهم دون حتى أن تقوم من مجلسك.

- وهل النصح سيُطعمني ويدفع ديوني يا فيرينا؟ دائمًا

ما تغيب عنك حقيقة أننا -وأيًا كان ديننا- حبيسو أجساد مادية، ونعيش في عالم حسّي دائم التطلّب والاحتياج. أجر أقل طبيب يا فيرينا قد تجاوز كيراميون(10) من الخمر أو الزيت. هذا الأجر يسد احتياجاتي فلا أمد يدي لأشحذ المعونة وأنا في هذا العمر.

- من أين أنت يا سيدي؟

- سيدك بارتلميوس يعرف.

قالها وابتسم في خبث. هو يعرف أن سيدنا بارتلميوس قد عرفه، وقد أخبرني بما يعرف عنه. ربما قد استنتج إيزوس أننا سنستغني عن خدماته.

- ماذا تريد مني؟

- أن ترثيني يا فيرينا. ليس لي زوجة أو ولد، لكني أملك الكثير. إن لم ترغبي في المال، فأنا لدي العلم. لدي مخطوطات نادرة لشرح جالينيوس وأعمال هيبوقراطيس. لدي صلات بكبار الأقاليم وأثريائها، ومدخل لنسائهم. هذا المدخل الخفي لقلوب البيوت، والذي لا يقدر على الولوج إليه إلا النساء. كل هذا سيكون لك يا فيرينا. ستملكين مفتاح الحياة، فتحيين، وتُحيي الآخرين.

ما يقول مغرٍ، لكن لديّ رحلتي يا فيكتور، ولديّ طموحي.

ربما يشبه حلمي ما يعدني هو به، لكن ما المقابل؟ ولماذا أنا بالذات؟ هل ينقصه وجود سيدة تتسلل إلى الأركان التي لا تصل إليها مخالبه؟

استعدت ما كتبه سيدنا، وابتعدت عن الفراش بضع خطوات ثم قلت له:

- سأجلب لك شيئًا تشربه يا سيدي.

أعرف أنه قادر على الجدل، وعلى التبرؤ من أي فعل شيطاني أو نوايا خبيثة. هو كالحيَّة الناعمة المغوية.

بعدما تحسنت صحته -وكان هذا سريعًا إلى درجة لا تصدق- استعد للرحيل بعد أن اغتسل وتعطَّر، وحمل أجره كاملًا. سار أبي معه حتى أوصله إلى دابته، وكنت خلفهما مُنكسة الرأس، تعتمل في عقلي مئات الأفكار.

قال له أبي وهو يعينه على ركوب الحمار:

- شكرًا لك يا سيدي على كل شيء. نراك بخير دائمًا. لقد أتمت فيرينا رحلة تعليمها ونحن لك شاكرين.

التفت إيزوس إلى أبي وقال ببساطة:

- الرحلات لا تنتهي.

ابتعد إيزوس الغريب، وحيدًا كما جاء. شعرت بغصة في

حلقي، لا أعرف إن كنت سأفتقده، أم أنني فقط سأفتقد من يعلمني.

لم أعد مع أبي إلى المنزل، بل جلست تحت الجميزة الوارفة، أنظر إلى السماء التي تعرف ما يسوؤني وأعجز عن التعبير عنه.

جاءت ريجولا -أخت فيليكيس، أنت تعرفها- وجلست جواري، ثم في حنق قالت:

- أنت تتعسين نفسك. حكت لي والدتك وكنت أود لو أضربك فأخرج تلك الترهات عن عقلك. حضرتِ احتفالات وثنية يا فيرينا؟!

- لم أشارك بها يا ريجولا، ولن أفعل.

- لكنك حضرت. لو أن عابرًا رآك لقال إنك وثنية. فضولك يا فيرينا يقتلك.

- بل رغبتي في أن أعرف أكثر. في ألا أستسلم للظلام والجهل والحاجة للناس.

- وماذا تعلمت؟ تقديم الهدايا لتماثيل الإمبراطور المؤلَّه؟ كتابة شهادات الزور؟

- تعلمت أن في كل بيت من يستحق الخلاص. تعلمت

أن الظلم والقهر يسري تحتنا كما تسري جذور الأشجار يا ريجولا. لو أنك رأيت هذا الشاب وهو يفر، ورأيت الجروح على وجهه، ورأيت يأسه من النجاة، لعرفتِ ما أقصد.

- أعرف أنني لم أخرج من هذه القرية منذ ولدت، ولن أخرج منها. لكن هذا لا يعني أنني لا أعرف شيئًا. لكن ماذا ستفعلين يا فيرينا لتخلصي العالم؟ ستركبين السفينة وتشقين الأمواج بالناس هربًا من إمبراطورية تحكم الأرض كلها؟ هذه الأساطير التي تقرأينها تفسد رؤيتك للواقع. الخلاص في الإيمان بيسوع فقط، ولا نملك شيئًا لأنفسنا.

- بل نملك يا ريجولا. نملك. الإيمان بيسوع المسيح لا يتعارض مع ما أحلم به، بل هو لُب الإيمان. من يسد أذنيه عن صراخ المسكين، يصرخ أيضًا ولا يُسمع.

نظرت لي ريجولا طويلًا بعينها العميقتين، ثم لفَّت ذراعيها حولي واعتصرتني وراحت تبكي وتردد:

- أنا خائفة عليك يا صديقتي وأختي. خائفة عليكِ.

أنزلت رأسها إلى صدري، ورحت أمسد شعرها وأقول:

- لا تخافي يا صديقتي وابنتي. قلب الإنسان يفكر في طريق، والرب يهدي خطواته.

أعدتها إلى بيتها، وعدت إلى البيت لأجد أمي جالسة تنتظرني. أخذتني بين ذراعيها وقالت:

- أنا وأبوكِ وكل ما نملك بين يديكِ يا ابنتي. سنحضر لك معلمًا أفضل منه، وستكونين نعم السند للأهل.

قبلت جبينها، فقالت وكأنما تذكَّرت شيئًا:

- كنت أنظف مكان مبيت إيزوس، وتعجبت... لقد كان الرجل يقيء وسمعناه جميعًا، لكني لم أجد أثرًا للقيء، والمحقن الشرجي لم يُستخدم. غريب هذا.

قالت عبارتها ودخلت أمامي، وظللت أنا واقفة أفكر في السبب الذي جعل إيزوس يتصنَّع مرضه. تُرى ماذا كان مبتغاه؟ وهل وصل إليه؟

(8)

مُتعب وكئيب أنا

حين بلغت الرابعة والعشرين، وفي نفس عام تولي الإمبراطور دايوقلشيانوس، بل في يوم احتفالات تتويجه، انتقل أبي إلى الأمجاد السماوية.

أخيرًا يا فيكتور سمحت لنفسي أن أبكي، وأرتمي بين ذراعاي أمي وصديقاتي. كان رجلًا صالحًا، مملوءًا من الروح القدس والإيمان. كان الأب لليتيم، والصديق للغريب، والخادم للرب.

كان هو الأرض، والسماء أمي، فكيف لي أن أحيا في فراغ السماء الدنيا بلا ضفة أغرس فيها قدماي؟

كنت أستيقظ كل ليلة أصرخ، لا أحتمل ألم فقده. لا أتصور أن أقوم فلا أسمع صوته الجهوري يمازح هذا ويسأل عن ذاك.

لكن المسؤولية كلها صارت على كتفي أنا وأمي. مسؤولية الأسرة التي تمتد إلى حدود القرية. شعرت بندم شديد أنني أنفقت كل ما ادّخره لزواجي في التعليم. هل كنت أنانية إلى هذا الحد حقًّا يا فيكتور؟ هل ضاع كل ما تعلمت وضاع ما

يمكن أن أساعد به الآخرين كذلك؟

الذنب يقتلني كل يوم، وأنا أرى أمي تتشاغل في حياكة الملابس لتبيعها، وأتشاغل أنا في رعاية أسرتنا الكبيرة. أحمم الصغار وأعلمهم أساسيات النظافة والعفة. أعد الطعام وأوزعه كما اعتاد أبي. أنهك نفسي في تنظيف أرضية الكنيسة الصغيرة المخفية في عمق الجبل، أشرف على الرجال إذ يزرعون الأرض ويحصدون.

موريس يزرونا كلما تسنَّت له الفرصة، فيحسب حسابات الأرض ويدفع ضرائبها، لكننا لم نعد نراه إلا كل حصاد، فقد انشغل أكثر بعد إسناد مهمة تشكيل الفرقة العسكرية الكيميتية إليه، تحت قيادة دايوقلشيانوس ومكسيميانوس، أيام كان الأول مجرد قائد جيوش. وها هو الآن قد اغتصب العرش من سابقه، وراحت تتردد مخاوف عن عصر جديد من القمع والوحشية.

قال لي موريس في زيارة:

- أجِّروا أرض عمي -قدَّس الرب روحه، وتعالوا لتعيشوا بالقرب منا في أوكسيرينخوس(11). العبء كبير عليكما يا فيرينا، وأريد أن أقترح عليكِ فكرة الزواج مرة أخرى. لطالما كان عمي حريصًا عليكِ وواثقًا في قراراتك. لكني قلق

عليكم، وقلق من الأيام القادمة.

- أنا أتوكل على الرب، فلن يدعني أخزى.

لم يضغط عليَّ أكثر، وكنت أنت يا فيكتور معه يومها ولمحتك من بعيد وأنت تنتظره بالخارج. كنت أعرف اسمك من حكايات موريس عنك، وكان يرى أنك ستكون ذا شأن عظيم.

يومها تحدَّث إليك، وظللت أنت تنظر إلى نافذة بيتنا، وكأنك كنت تراني من خلفها. رأيت في عينيك نظرة حزن، ثم رحلتما.

وجاء الفيضان مجددًا، واصطحبت أطفال القرية على الحمير ليشهدوا «حلاوة أوزير(12)» كما يطلق عليها العامة. الفيضان يغرق الأراضي وأعرف أننا أمام مشكلة كُبرى. ثلاث وعشرين ذراعًا من الماء المُهلِك يكتسح كل شيء في طريقه. أفكر فيما عرض عليَّ موريس، ثم أنظر إلى الأطفال حولي وإلى وجوههم المحبة.

هل أنا قادرة على حمايتهم؟ هل سأخذلهم؟

وبعد أيام، زارنا سيدنا بارتلميوس فأضاء أيامنا الحالكة بالصلاة والطمأنينة. الكنيسة الصغيرة مضيئة في كبد الليل، وأصواتنا تستغيث بالسماء، تبث إليها قلقنا من القادم. من

الفيضان الذي استحال طوفانًا في يوم وليلة.

ثم بعد عام طويل تقيل، خلت الكنيسة، وراح الجميع يلهجون بالصلاة في أقبية بيوتهم، خائفين من جُند دايوقلشيانوس. لم يعد من يسافر يسافر خوفًا من القتل أو الحبس. لم أعد قادرة على حمل عبء أهل القرية الذين يرفضون أن يغيروا شيئًا فيهم، فهم يصبحون على ما يمسون. الخوف يسوقهم كالخراف نحو الهواية.

تأتي أوريليا تطلب مني بعض المال، فأنظر إلى ثوبي الفاخر الذي خاطته لي أمي يوم كنت طفلة، وأنظر إلى مشطي الخشبي المزخرف. هذان هما ما بقيا لي من أغراض ذات قيمة. أعطيتها الرداء لتبيعه، فنظرت إليه نظرة مكسورة؛ لمن ستبيعه؟ حقًّا لم يعد لدي ما أعطيه لأحد. رحلت كسيرة النفس، وكنت أعرف أن زوجها الطماع الشره لا ينفك يطلب منها المال لينفقه على ملذاته. لكن ماذا أفعل يا فيكتور؟ ماذا أفعل؟

أظل أنا وريجولا تحت الجميزة نفكر، وقد زادها الهم أعوامًا. تسألني:

- لماذا لا تتزوجين يا فيرينا؟

- وهل هذا هو الحل في رأيك؟

- لقد ساعدتِ الجميع، ولا يرغب أحد في مساعدة نفسه. لنرحل إلى أوكسيرينخوس، إلى جوار موريس وفيليكس.

- أنت يا ريجولا من يقول هذا؟ لقد عهدت في عينيك نظرة السِّباع وشجاعتها.

- أنا لا أفر من الموت، ولا أيأس من الناس. لكن... أي فائدة لمكوثنا هنا غير المعاناة؟ الكثيرون قد هجروا القرية. الرحيل هو بداية جديدة يا فيرينا.

- ومن لهؤلاء؟

- لن ينساهم الرب.

كانت غاضبة منهم، وحزينة عليهم. أعرف تعبير وجهها هذا، وقد قلت لها وهي صغيرة إن لديها هدوء القطط وشراستها في آنٍ. في لحظة هي مستكينة، وفي لحظة تخمش بمخالبها وتزوم مدافعة عمن تحب.

لا زالت ريجولا صغيرة، وأمامها الكثير لتتعلمه. ولكم أخشى عليها العلم والجهل معًا.

في الصباح، جاء نفتالي مُسرعًا وقد ترك سلة الصيد تتدلى خلفه من حبلها. قال إنه رآى إيزوس يتجه إلى بيتنا. هرعت حافية وريجولا خلفي، نقصد المنزل الذي لا يوجد فيه سوى

أمي ضعيفة البصر.

كان إيزوس واقفًا ينادي باسمي، فناديته وأنا أقترب:

- أنا هنا يا سيدي.

التفت، ثم اتسعت عيناه وهو يحدق إلى قدماي الحافيتين وثوبي الخشن، وكفاي المشققتين.

- فيرينا؟

- سيدي.. مرحبًا بك. تفضل.

صعد الدرجات القليلة خلفي، وهو يبتعد قدر المستطاع عن ريجولا ونفتالي. نظر حوله فلم يجد الدجاج الذي كان يمرح في المكان، ولا القدور ولا الجرار المملوءة بالزيت والحليب. نعم.. كنا نتضور جوعًا وخوفًا، ولا يوجد ما أفعل تجاه ذلك.

أجلسته، وجلست أمامه، ولم يكن لدينا سوى بعض الخبز اليابس فقدمته له.

- لقد سمعت عن رحيل والدك. وقد جئتك فور معرفتي. لقد كان رجلًا شهمًا.

- أجل. أشكرك. كم هو لطيف منك أن تأتي خصيصًا.

- وكيف لا آتي وأنجب تلاميذي وحيدة، قد تخلى عنها

حتى أولئك الذين بددت عمرها لأجلهم؟

- لم يتخلوا عني. بل أهوال الحياة أبعدتهم، وأنا لم أعد قادرة على المساعدة.

- لكنك علمتهم يا فيرينا، وأطعمهم أبوكِ. كيف يكفرون نعمتك؟

- هي نعمة الرب.

- وماذا غيرت فيهم نعمة الرب؟ لقد كنت تحفرين في الماء يا فيرينا، وها هو يلتئم فوق ما نقشته، كأن شيئًا لم يكن.

- لا يضيع معروف عند الرب.

جلست ريجولا على مقربة، فأشرت لنفتالي أن يجلس. لم يعد لي ظهر سواهما. قال إيزوس وهو يبعد الخبز بطرف إصبعه:

- ماذا ستفعلين في أرضكم؟ لقد أفسدها الفيضان تمامًا.

- لن أفعل شيئًا. أفكر في أن أجد لها مستأجرًا يصلحها. لكن لا يريد أحد أرضًا كهذه، والحاجة تدفع الجميع لبيع أراضيهم التي هي في حال أفضل من أرض أبي بالطبع.

- ما قولك يا فيرينا أن أستأجر أنا هذه الأرض؟

- أنت؟

سأل نفتالي:

- هل لك معرفة بالزراعة يا سيدي؟

نظر له إيزوس وأجاب بعد أن حوَّل نظره إليَّ:

- سأجد عبيدًا يزرعونها. لا أظن أن أباك كان يزرعها بنفسه.

- يجب أن أستشير أمي وابن عمي.

- آه.. الضابط موريس، من قادة الفرقة الكيميتية. كان أولى به أن يستأجرها هو، لكني أعذره. لا بد أنه ينتظر مكافأة نهاية خدمته كما يفعل كل العاملين في الجيش والبحرية. ستكون مكافأة عظيمة يا فيرينا، يمكنه أن يشتري بها أرضًا ويصير من أكابر الأقاليم. هل فكرت أن تتزوجيه؟

- موريس هو أبي الثاني يا سيدي. وأنت تعرف أنني لا أنتظر زوجًا غنيًّا ينتشلني من الحاجة.

- اعذريني يا فيرينا، لكن إن لم تتزوجي موريس، فلن تجدي زوجًا. إضافة إلى أنك لا تملكين مالًا لتجهيزات زواجك.

- لا أبحث عن زوج يا سيدي. سأعرض أمر تأجير الأرض على أمي وموريس وسأرسل لك ردي. أين تُقيم؟

- يمكنني أن أمكث هنا حتى تتشاورون.

- هنا؟

ضحك، ثم قال وأنفاسه تفوح برائحة النبيذ:

- لن أسكن داركم هذه بالطبع. هناك الكثير من الدور التي يرغب أهلها في بيعها هنا. سأستأجر واحدة، وأتمنى ألا تطيلوا عليَّ الانتظار.

قام إيزوس وهو يرمق نفتالي وريجولا كأنه يزنهما. أوصلته إلى دابته، ووقفت مكاني أنظر إليه ومن خلفي ريجولا ثم نفتالي.

قال الأخير:

- ما الضير في أن تؤجري له الأرض؟ سيصلحها ويزرعها، ثم نستردها منه بعد موسم أو اثنين.

قلت لنفتالي:

- سأكتب خطابًا لسيدنا بارتلميوس، وآخر لموريس، ولنرَ رأيهما.

(9)

نجِّنا من الشر

اليوم أتى موظف الإحصاء مرة أخرى.

لم يعد في دارنا إلا أنا وأمي. لم يعد هناك دجاج يمرح، ولم يعد هناك مال لدفع أي ضرائب من أي نوع. أنظر إلى الطست النحاسي والميزان وأفكر: من قد يشتريهما، وبأي ثمن؟ من أين أدفع الضرائب وإلى متى أختبئ من نظرات الحاجة في العيون؟

حين شاورتُ أمي في أمر تأجير الأرض، قالت لي إنها قد سئمت الحياة، وتنتظر أن تلحق بأبي. ذكَّرتني بأن القادم أصعب وأسوأ، والأفضل أن أرحل إلى حيث أمان وجود موريس.

سمائي تفقد رغبتها في التظليل عليّ، وتريد التخلي عني كما تخلت عني أرضي؛ أبي.

- على الأقل يا ابنتي، لن يؤذيك أحد وموريس بالقرب منك.

- لكنه مسيحي، وكل الفرقة من المسيحيين الطيبين.

- وهو كذلك قائد الفرقة يا ابنتي. هم لا يضطهدون سوى الضعفاء.

- وأترك الضعفاء هنا وأنجو بنفسي؟ لن يحدث هذا.

مسحت أمي عينيها الملتهبتين بطرف ردائها، ثم تمددت على جانبها ووجهها نحو الحائط وهي تقول في تعب:

- أطفئي المصباح يا ابنتي. النور والظلام واحد بالنسبة لي. وفِّري الزيت.

أقبِّل جبينها وأخرج إلى الطريق المظلم المقفر. المصابيح قد خلت من الزيت، والصمت يخيم على المنازل كأنها مهجورة.

شهر طوبة قد بدأ، والسماء تحمل نذرًا أعرفها جيدًا، وإن لم أشهدها من قبل. السيول قادمة.

عند نهاية الطريق، أبصر نورًا. هذا هو المنزل الذي استأجره إيزوس ليسكن فيه منتظرًا ردي. سرت نحوه وأنا أتدثر بردائي الصوفي القديم. أسمع أصوات حديث وصخب آتية من ناحيته. رائحة طعام أطلقت أصوات بطني الفارغة منذ ظهر أمس.

حين اقتربت أكثر، أبصرت الرجال والنساء والأطفال

يتكالبون على صحون الطعام التي وضعها إيزوس على حصير خارج المنزل، بينما أحضر هو مقعدًا وجلس عند عتبه داره المرتفعة، يبتسم ابتسامته المتعالية.

رأتني والدة أوجستين، فأشارت لي وهتفت:

- فيرينا! تعالي.. لقد نسينا أن نرسل إليك من يخبرك أن سيدي إيزوس يقيم وليمة للفقراء اليوم.

قلت لها وأنا أعقد حاجباي:

- وليمة؟ بأي مناسبة؟

- لا أعرف. سمعت أنه عيد ديني عند الرومان.. لا أتذكر.

- عيد روماني؟ وثني؟! قومي يا أمي. لا يليق أن تهيني إيمانك لأجل طعام.

ثم صحت بصوت أعلى:

- الرجل يقدم لكم الطعام احتفالًا بعيد وثني. إن كنت لا تعرفون، فها أنتم قد عرفتم. أما إن كنتم تعرفون وتأكلون من هذا الطعام جلوسًا في البرد وسط الطين فـ...

قاطعني إيزوس:

- للجوع سلطان يا فيرينا. للجوع سلطان. هم لن يعبدوا ما

أعبد، فدعيهم يأكلون واجلسي وكلي معهم.

توقف البعض عن المضغ وقد وقفت اللقمة في حلوقهم، أما الأكثرية فأشاحوا بنظرهم عني وأكملوا طعامهم. خجلين هم مما يفعلون، وأعرف أن بكاء الأطفال جوعًا يدفعهم دفعًا لهذا.

أوريليا المسكينة تزحف على ردفيها لتختبئ مني، وهي تضم رضيعها إلى صدرها. يا للألم والبؤس!

- يا أهلي.. ماذا فعلتم لتقوا نفسكم شر الجوع والحاجة؟ هل أخطأ أبي في حقكم حين مدَّ يده بنعمة الرب إليكم، فأخذتموها ورضيتم بالفقر وسؤال الناس؟ أرض أبي أغرقها الفيضان، وحين سألتكم أن تعينوني على إصلاحها، توليتم كل يبحث عن إعانة من هذا الغني أو ذاك.

قال إيزوس:

- وماذا فعلتِ أنت يا فيرينا غير الذي فعلوه؟ أنفقتِ كل ما تملكين ثم رضيتِ بالفقر ونَدب الحظ. إن كان الفيضان قد أغرق أرضك، فلماذا لم تجدي عملًا آخر؟ لماذا تعلمتِ إذًا؟ أريتك باب المال ورفضته. أريتك باب الشفاء ورددته. أنت لا تختلفين عنهم يا فيرينا.

ثم التفت إلى الناس وقال وهو يسير بينهم، وحذاؤه ينثر

الطين على طعامهم لكنهم لا يأبهون:

- كلوا.. كلوا في يوم عيد الآلهة، وأعياد الآلهة لا تنفد. لا تقلقوا.. لا تحملوا همًّا.

تهدَّجت أنفاسي وأظلمت الدنيا في عيني. رحت أعدو في الطرقات الضيقة ودموعي تختلط بقطرات المطر.

أعنِّي يا رب أنا الشقية، فأنا لا أقوى على هذا الوجع...

(10)

طلبكم لكي يغربلكم كالحِنطة

السيول تجتاح القرية وتكتسح أمامها كل شيء...

كل شيء..

البيوت تذوب وتنجرف، الحيوانات تغرق، ما تبقى من مؤن قليلة أفسدتها الأمطار. أحمل أمي المريضة على ظهري وأخوض في الماء. ريجولا تحاول انتشال الأطفال المحبوسين في أزقة القرية. أناديها فتهتف:

- انجي بنفسك وبأمك.. لا تقلقي.. صلي لأجلي.

تغوص ريجولا في الماء، تحاول أن تُخرج أحدهم من تحت ردم منزل مهدَّم. أتلفَّت حولي في جزع. ربي.. ما هذا الهول؟!

لا أعرف أين نفتالي، لكنى أرى داره قد تهدَّمت. أنادي:

- كياريس.. نفتالي!

تتمسك أمي بملابسي، وتتمتم بالصلاة. هي لا ترى ما يحدث، ولا أعرف إن كان ما بها نعمة أم نقمة.

أنادي:

- ريجولا!

أسير بضع خطوات نحو المكان الذي غطست فيه، لكن قدماي تزل وأكاد أسقط وتسقط أمي عن ظهري. الماء ينهمر فوقنا كماء السواقي. شعري وغطاء رأسي صارا كتلة واحدة ثقيلة.

أصرخ:

- نفتالي!

تسألني أمي عن الجميع اسمًا اسمًا، وهي لا تكاد تبصر ما حولها. أبكي، ولا أعرف بمَ أجيب.

أتجه مع بعض الجيران نحو الكنيسة المحفورة عند أسفل الجبل. الماء ينهمر والأرض تميد تحت أقدامنا. المسافة طويلة خطرة، لكن إلى أين نذهب؟

يهتف ماكوريوس:

- أهلني يا صاحب المجد كي يتزكّى إيماني عندما يُمتحن بالنار، وأحتمل التجربة، فحكمتك يا رب لا تُستقصى.

نردد جميعًا: آمين.

يسأل أحدهم -لا أتبينه وهو خلفي:

- لماذا لم نذهب مع الذاهبين إلى بيت إيزوس؟

يسأل آخر:

- وكيف نجا بيت إيزوس؟

- لا يهم كيف. لكنه نجا.

أقول وأنا ألهث:

- نحن ذاهبون لبيت الرب.

تسألني أنطونيا:

- هل في الكنيسة طعام يا فيرينا؟

- سنرى.

- وإن لم نجد؟

لم تكن لديّ إجابة. موقنة أن الرب سيسوق إلينا النجاة، لكن هذه النفوس الهلِعة تريد أن تطمئن أنها تسير في الدرب الصحيح.

لم أكن لأمنع أحدًا من أن ينجو بحياته إلى بيت إيزوس، لكني لن أذهب مهما حدث.

الطريق طويل خطر، والماء ينهمر بلا انقطاع. البرق يشق السماء، ويضرب شجرة الجميز عن يميننا. أصلي بأعلى

صوت لديَّ:

- إنني أطلبك يا ربي فليس لي أحد سواك، فاحمِ حياتي وخلِّصني يا رب. آمين.

فيردد الناس: آمين..

بين صلوات وصرخات أطفال وتذمُّر المتشككين نتقدم. المسافة تطول، والسماء تقترب فوق رؤوسنا. البرق يُعمينا، والرعد يرهبنا.

صلوات وصراخ وتذمر..

البعض يهوي من التعب. البعض يعود أدراجه. لكننا نتقدم من الجبل الذي بدا ككتلة رمادية مرعبة، بلا قلب ولا عقل.

الكنيسة ترتفع عن الأرض بضع درجات، فيصعد بعض الرجال أولًا ليحملوا الأطفال إلى الداخل، ثم يعينون النساء على الصعود.

المطر ينحدر من فوق الجبل، يحمل معه الرمال والحجارة الصغيرة. الأطفال يسعلون ويرتجفون. أهرع إلى قلب الكنيسة فأبحث عن أغطية. يبحث آخرون عن طعام.

الماء يبلل الأرضية ويجعل الجلوس عليها مستحيلًا. الظلام سيكون حالكًا. أهز المصابيح فلا أجد فيها زيتًا. متى

كانت آخر مرة صلينا فيها هنا؟

صرخت طفلة، فالتففنا جميعًا إليها، ثم جذب أنظارنا عقرب تجرفه الماء. بل إن الماء يعُج بالحشرات والعناكب والهوام من كل نوع.

تعالت الصرخات الجَزِعة، ورغم أننا نعلم أن أغلب لدغات العقارب هنا ليست قاتلة، لكن الموقف كان هائلًا، ثقيلًا على النفوس.

عزمت قِلة على العودة إلى القرية، والاختباء في منزل إيزوس. هل لي أن أهتف بشعاراتي الرنانة أمام الخوف من الموت؟ هم بشر يا فيرينا.. بشر، وأنت فقط تتظاهرين بالقوة لأنهم معكِ. لو كنت وحدك، ماذا كنت ستفعلين؟

هويت على ركبتاي أمام أيقونة العذراء، وضممت كفاي إلى بعضهما غير عابئة للهوام التي تحوم حولي. يهمس البعض بتساؤلات عن عقلي، لكن ما يملك العقل ليحُكم في وقت هول كهذا؟

بكيت، صليت بأنفاس متهدجة، وذراعا أمي يحيطانني. أنظر إلى وجه العذراء مريم، عيناها الواسعتان تنتظران أن أتكلم، يُخيل إليَّ أنها ستمد يدها وتمسد شعري.

- السلام عليكِ يا حياتنا ولذَّتنا ورجاءنا...

أسمع خرير الماء. الجميع يركعون حولي باكين. يا لثقل تنهُّدات الرجال الشداد في يأسهم!

- فأصغي إلينا يا شفيعتنا وانعطفي بنظرك الرؤوف نحونا، آمين..

ونظل نردد: آمين، حتى يحل الليل، ولا يضيء ظلمته سوى كلمات الرب تتردد على الألسنة.

(11)

هل أبصَرَ شيئًا؟

كم رحل منا هربًا من المسمطة؟!

كم منا صمد حتى قتله الجوع والبرد ولدغات الهوام؟

كم عكف على الصلاة حتى حين جاء الفرَج لم يقدر على السير خارجًا إلى الشمس؟

لا ألوم أحدًا. من أنا حتى ألوم أو أحكم؟

أفتح عيناي في الصباح لأجد قدماي متورمتان من لدغ الهوام. لست قديسة كي تتنحى عني العقارب وتنصرف بقوة إيماني. لست شيئًا، ولن أكون.

الأطفال متورمو الوجوه، والرجال المحمومون، والنساء اللاتي يلفظن أحشاءهن من قوة السعال. كل هؤلاء قد ساروا خلفي، لأنني فيرينا، المتعلمة ابنة سيد القرية. ذنبهم على رأسي. دم من مات على رأسي. ضلال من فُتِن على رأسي.

حين عدنا يا فيكتور، وجدنا بيت أبي في حال أفضل من باقي بيوت القرية، لكن جدرانه قد تهدّمت ولم يبقَ منه إلا الأعمدة الحجرية التي تميزه عن باقي البيوت.

حتى تلك كانت تنتصب كأعواد بردي جافة، هشة مثلنا، تقف شامخة في انتظار هبة ريح أخرى تذروها.

لا أعرف بأي أعجوبة نجا منزل إيزوس، وتجمَّع حوله أهل القرية يسلخون بقايا اللحم عن عظام حيوان ما قدمه لهم، ويغمسون الخبز الجاف في زيت الزيتون.

ورأيت من بين الجالسين نفتالي، متكور على نفسه، رأسه مربوط بشريط من الكتان ملوث بالدماء المتجلطة. هرعت إليه أناديه، فرفع عينيه غير مصدق أنني أمامه.

هبَّ واقفًا وفطنت إلى أن ساقه مصابة، مُسودَّة. ابتسم ودمعت عيناه وهتف:

- فيرينا! ماتت كياريس يا فيرينا ومات أبناؤنا الأربعة! لماذا لم ألحق بهم يا أختاه؟ لماذا؟

تهاوى على ركبتيه. ركعت أمامه عاجزة عن الكلام. الأعين ترمقنا كأننا من نُفسد عليهم النعيم الذي فيه يرفلون.

قام نفتالي وسار جواري مُتكئًا على قطعة خشبية كانت معه. سألته عن ريجولا، قال إنه لم يرها.

هذا السيل يا فيكتور لم تشهده البلاد منذ عشرات الأعوام. قالت لي أمي إن كارثة مشابهة ضربت الجنوب حين كانت

هي في الخامسة من عمرها.

كنا يا فيكتور نحو ثلاثين شخصًا، من بينهم ستة عشر طفلًا. شرعنا نجمع ما نستطيع من جريد النخل كي نغلق علينا ولو حجرة واحدة، وخرج نفتالي محاولًا أن يصطاد لنا أي شيء. أدعو الرب ألا يراه أحد يصطاد بلا تصريح.

أيام مرَّت علينا، خائفين بردانين، يحمل الهواء إلينا عبق الطعام وأصوات التجمعات من ناحية بيت إيزوس، فننظر إلى بعضنا البعض، ونسد جوعنا بالصمت.

أخيرًا قلت لنفتالي:

- لنرحل.

- هل ستبيعين أرض أبيك لإيزوس؟

- سأحاول آخر محاولة لي في الصباح، بعدها سنرحل إلى أوكسيرينخوس.

- أي محاولة؟ محاولة لبيع الأرض؟

- كلا. محاولة لإنقاذ من يود مساعدة نفسه.

في الصباح، صحبت نفتالي إلى بيت إيزوس. طرقت الباب حتى فتح، وأطل علينا بعينيه الحمراوين وأنفاسه النتنة.

- متى عدتِ يا فيرينا؟ لقد ظننتك...

- هلكت؟ لم يأتِ موعدي بعد.

- تعالي.. تفضلي.

دخلت، وحين حاول غلق الباب من خلفنا، أسندته حتى يدخل نفتالي، ثم تركته مفتوحًا.

- سيدي إيزوس. كنت تنتظر ردنا على مسألة تأجير الأرض، والرد هو أننا لن نؤجِّرها.

- كنت أعرف هذا. أنت حُرة يا فيرينا، لكني كمعلم لك، أنصحك أن تفكري في الذين يتبعونك الآن. كيف ستنجين بهم.

- سأفكر. شكرًا لك. أعتقد أن وقت رحيلك قد جاء. لا داعي لتضييع وقتك الثمين معنا.

- الحقيقية يا فيرينا، أنا لن أرحل. الناس تحتاج إلى كبير، ووجدت أنني أستطيع أن أكون كبيرهم.

- هم فقراء، لن يدفعوا لك شيئًا.

- لكنهم يملكون الصحة التي ستدفع لي. اشتريت أرضًا شاسعة من المعروضة للبيع، وأحتاج إلى عبيد يزرعونها.

قمت واقفةً أهتف:

- ستستعبد الأحرار؟!

- إن كانوا سيعملون لأجل لقمة عيشهم، فسيكونون عبيدًا حتى لو كانوا أحرارًا. هم لا يعرفون الفرق على أية حال.

أشرت إلى نفتالي كي نرحل، فأضاف إيزوس:

- فيرينا.. ما قولك أن تتزوجيني؟

- أنت؟ أتزوج وثنيًّا؟

- سأتبع دينك إن أردتِ. هذه كلها شكليات. لا أؤمن بالآلهة القديمة ولا بالأباطرة الرومان ولا بيهوه، ولا بيسوع المسيح. الكل سيان عندي.

سأل نفتالي:

- لماذا تريد الزواج منها؟

- كي تكون سيدة القرية كما كانت طيلة حياتها. لن تستطيعي يا فيرينا أن تعيشي عيشة العبيد بالخارج حتى لو تشبَّهتِ بهم وسرتِ حافية مثلهم. لنتزوج، ولتعيشي في بيت عظيم أبنيه لك كبيوت الأكابر. ولتتعلمي يا فيرينا ولتعالجي القرويين وتعلميهم. لن يتبعوكِ إن كنت مثلهم، وهم لطالما تبعوك حين كنت تتشبَّهين بهم، لكنك تعودين كل ليلة إلى

بيت سيد القرية وكبيرها. صحّحي لي إن كنت أقول غير الحقيقة.

- ماذا تريد مني يا إيزوس؟ أريد إجابة واضحة!

- أريدك أن تكوني لي. عقلًا وروحًا.. وربما جسدًا.

قبض نفتالي على ذراعي، يمنعني أن ألطم وجه العجوز الخبيث.

خرجت إلى الناس وصحتُ فيهم:

- من يريد أن يسترد داره وماله وحياته، فليزرع أرض أبي، ومن يزرع أرضًا سأمنحه إياها. ستكونون جميعًا أصحاب أراضٍ، لا إمرة لأحد عليكم.

سأل سائل:

- وأنت يا فيرينا؟

- سأرحل عن هنا. ربما أنا أضعف من أن أرى الشكر في أعينكم، فتفخر نفسي، ويرتفع منها فعل الروح القدس. أما هذا المدعو إيزوس، فسيظل بينكم، يستعبدكم ويمعن في إذلالكم بكل لقمة تأكلونها.

قال قائل بصوت حانق وهو يغطي وجهه بقطعة قماش ملوثة بالطين:

- هذا ضلال. ستمنحيننا أرض أبيكِ، وسيمنعنا القانون من تملكها. أنت تعدينا حتى نكد ونصلح أرضك، ثم تعودين وتأخذينها وتزعمين أن القانون هو ما منعك من تمليكها لنا. ربما نكون قرويين جاهلين، لكننا نعرف جيدًا أننا إن كنا أحرارًا في سجلات الرومان، فنحن عبيد لمن يملك لقمة العيش.

نزل نفتالي مندفعًا نحوه، ناديته وهرعت خلفه، لكنه كان قد هجم على الرجل وعرَّى وجهه. للحظات سكن كل شيء وهو يحدق إلى الوجه الذي كان يعرفه جيدًا. كنت أعرفه كذلك. لن أثقل عليك بالأسماء يا فيكتور، فلم يكن وحده الذي وقف ضدي ونفتالي في هذا اليوم. كل هذه الوجوه كانت تعيش معنا، أو تلعب في حِمى دارنا، أو تذهب مع أبي لمشاهدة الفيضان.

هؤلاء هم الأهل والأصدقاء يا فيكتور، والأسماء لن تخفف من صدمتنا يومئذ شيء.

جذبت كتف نفتالي، فتركه وبصق على وجهه. عدنا إلى البيت وتعاهدنا على ألا نتفوَّه بشيء لأمي.

في الصباح التالي بدأنا جميعًا -حتى الأطفال- بالتنقيب بحثًا عن أي شيء قد ينفعنا في رحلتنا للخروج، أو نبيعه

فندفع أجر البغال التي ستنقلنا إلى تاوياس، ثم ندفع أجر السفينة إلى أوكسيرينخوس.

وعاد أمشير يا فيكتور برماله وعواصفه، ولم تظهر ريجولا، ولم نبرح مكاننا بعد. من قد يشتري منا النحاس والحُلي الذي نريد بيعه؟ كيف سنتحرك ونحن نسمع كل يوم عن مذابح الرومان ضدنا؟ ما الخطر الذي نشكله حتى يُفعل بنا كل هذا؟

نحن لسنا كاليهود نملك، فنلوي الأذرع، ويعلو صوتنا فيزعج الكبار. فلماذا كل هذه الدماء التي تروي الأرض فتنبت آلاف الألسنة الصارخة التي لا تصمت أبدًا؟

هل يسمعونها يا فيكتور، أم أننا فقط من نتعذب بها؟

وسط هذه العواصف، أرى إيزوس يجلس إلى منضدة خارج منزله، والناس يقفون صفوفًا أمامه، يملونه شيئًا ويكتب لهم هو على أوراق البردي التي قسمها إلى شرائح رفيعة.

كنت متعبة من محاولات إرشاد هذه الخراف الضالة، وقد يئست أن أجد بينهم صالحًا. أسأل نفسي عن ماهية الصلاح، وعن صلاحيتي للحكم على الصالح والطالح، فأنزوي.

خلال جلوسي ليلًا تحت شجرة الجميز التي فلقها البرق فاحترق لحاؤها، أتتني أوريليا وكانت تحمل في يدها واحدة

من تلك البرديات. في خجل ألقت عليّ التحية ثم قالت:

- فيرينا.. هل يمكن أن تقرأي لي المكتوب هنا؟

- رسالة؟ هل أتى حامل الرسائل؟

- كلا. هذه.. لا أعرف اسمها بالضبط. وثيقة ربما؟

مددت يدي لها، ففردت البردية وهي تضيف:

- ألم تسمعي بالخبر؟

- -أي خبر؟

- كنت أظنك تعرفين، لذا قد ألغيت رحيلك.

نظرت إلى البردية وشرعت أقرؤها عليها بصوت عالٍ:

- إلى المشرفين على القرابين في چراچوس، من أوريليا هيرماس. لقد قمت بتقديم القرابين إلى الآلهة...

رفعت عيناي نحوها، فأشاحت بنظرها. أكملت:

- ... لقد قمت بتقديم القرابين إلى الآلهة. الآن وفي حضورك وطبقًا للأوامر، فإنني أقوم بسكب القربان وتقديم الأضحية، وأتذوق ما قُدم من قرابين. وأنا أرجو تسجيل ذلك لي.

ثم في فقرة تالية أقرأ:

- نشهد نحن إيزوس سبرنيسوس بأننا شاهدناكِ تقومين بتقديم القربان.

صحت فيها:

- قربان؟ أي قربان وأي أوامر التي تطيعينها؟

- فيرينا! ليشهد الرب أنني لم أخنه، ولم يقدم أي من أهل القرية قرابين للأوثان. لكن الأوامر هي أن تقام لجان في كل قرية يذهب فيها الكبير والصغير ليقدم الطقوس الوثنية أمام لجنة خاصة تشهد له بذلك وتمنحه وثيقة كتلك، يستطيع بموجبها أن يتحرك بأمان ويسافر حيثما يشاء. إيزوس ساعدنا في كتابة هذه الوثائق وشهد أنه رآنا نقدم القرابين دون أن نفعل أي شيء لا يرضي الرب.

- وتكذبون يا أوريليا؟ إذ قد استبدلوا بحق الله ما هو باطل، فاتقوا المخلوق وعبدوه بدل الخالق المبارك إلى الأبد. أم نسيتِ كتابك يا أوريليا؟

- لم أنسَ! ولم أنسَ صرخات أطفالي الجوعى. ولم أنسَ ذلَّ زوجي. فيرينا.. هذه فرصتنا الوحيدة للرحيل من هنا. اطلبي منه أن يكتب لك وثيقة وخذينا معكِ إلى أوكسيرينخوس. سنتبعك جميعًا.

- أنتم تريدون أن تظلوا تابعين للبشر يا أوريليا. تبعتم أبي،

ثم تبعتم إيزوس، وها أنتم الآن قد عانيتكم أذاه وعدتم تتبعونني لأنني راحلة! ماذا ستفعلون في أوكسيرينخوس؟ ستبحثون عمن تتبعونه؟ هذه أرض أبي، أصلحوها وازرعوها وكلوا من خيرها، وأحرقوا هذه الوثائق. سأرحل ولن أعود، ولن أطالبكم بالأرض يا أوريليا. هل كذبت عليكم من قبل؟

الدموع تغرق وجهي، وأكاد ألثم الأرض تحت قدميها كي تقبل ويقبل والباقون. لكنها تتراجع مبتعدة، وقبل أن تغيب عن نظري سألتها:

- هل أرسلك إيزوس؟

لم تُجِب. وكانت هذه إجابة كافية. لقد كانت أوريليا من جيش النساء اللاتي جندهم إيزوس ليقتحموا البيوت، كما أرادني أن أكون من قبل. هتفت وهي تهرول مبتعدة:

- إنهم يقتلون من لا يجدون معه هذه الشهادة. أنت حُرة.

(12)

هذا مبتدأ الأوجاع

بعد يومين، أتانا من لم نتوقع مجيئه؛ سيدنا بارتلميوس.

كان آتيًا مع زوجته، وكلاهما أشعث أغبر، وقد فقدا اللحم الذي كان يكسو عظامهما. شهقت زوجته وهي ترى الأطلال التي أصبحت عليها القرية، لكن سيدنا لم يُدهش، كأنه كان يتوقع هذا، أو هو قد شهد ما هو أبشع في رحلته.

التففنا حوله وكأننا وجدنا المُنقذ أخيرًا. راح الجميع يحكون له في عبارات مختلطة ما قد حدث في غيابه، أصابع الاتهام تشير إلى إيزوس، الذي جاء بالخراب على القرية.

قال سيدنا أخيرًا وهو يجلس وسطنا على الحصير، والأطفال يجتمعون حوله وحول زوجته:

- هل تذكرون يا أبنائي اليأس الذي بثه الشيطان في بني إسرائيل قبل الخروج؟

قال أحد الشباب الصغير:

- حين وصل بنو إسرائيل إلى البحر ورأوا مركبات فرعون

وراءهم دفعهم اليأس أن يقولوا لموسى النبي: هل لأنه ليس قبور في مصر أخذتنا إلى البرية؟ ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر؟ كفَّ عنا فنخدم المصريين، لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية.

- حقًّا تقول يا بني.. إن سعى فرعون وراءك، قل كما قال إليشع النبي.

قال نفتالي:

- إن الذي معنا أكثر من الذي علينا.

سأل طفل وهو يرفع وجهه عن ثوب سيدنا الذي كان يدس وجهه فيه وسأل:

- هل إيزوس هو إبليس؟

ابتسم سيدنا ومسَّد على رأسه مجيبًا:

- وأطلب إليكم أيها الأخوة أن تلاحظوا الذين يصنعون الشقاقات والعثرات، خلافًا للتعليم الذي تعلمتموه، وأعرضوا عنهم. يا بُني، قد يكون إبليس ساكن في طعام تأكله، أو مرض يُلم بك، أو قريب يدعوك للمعصية. لاحظ وابتعد عن الشر في أي شكل يتمثل به.

سأله نفتالي:

- إلى متى تقيم معنا يا سيدنا؟

- سأرحل بعد يومين أو ثلاثة بمشيئة الرب. أتيت كي.. أودعكم. يجب أن أمر على كل الشعب فأودعه وأذكِّره بالرب.

شهقت النساء، وغمغم الرجال، واتسعت أعين الأطفال. سألته في لهفة:

- تودعنا؟ هل أنت مريض؟

- أنا مُطارد. جند الرومان يريدون دمي. لكني لا أفر من الموت. أنا فقط أردت أن أبشركم بملكوت السماء لو صبرتم وتمسكتم بالنور في وقت العتمة. لا يخيفنَّكم قوتهم، ولا تهابوا الموت.

يعلو صوته، فتسري القشعريرة في أجسادنا وهو يضيف:

- تذكروا رؤيا يوحنا.. والموت لا يكون فيما بعد، ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع فيما بعد، لأن الأمور الأولى قد مضت.

سرت الفوضى بيننا، البعض يبكي، والبعض متحمس للموت، وآخرون ذاهلون وقد تأكَّد ما قيل من نية قتل الرومان لنا. زال آخر أمل للناس في النجاة.

الحق يا فيكتور، أنني قد احتجت إلى أن أختلي بنفسي.

مسؤوليتي عمَّن معي تُربكني. نحن غرباء في هذا العالم، وأحزاننا ستتحول إلى مجد عظيم في السماء. لكن، هل ألوم الخائفين على أولادهم وأعراضهم؟ لو استشهد منا أحد، وعاش ذويه، فماذا سيحدث لهم في هذا العالم الوحشي؟

إن كان الأمر بهذه البساطة يا فيكتور، لسلَّمنا أنفسنا جميعًا إلى محاكم الرومان، ولهدرت أصواتنا في وجوههم بأنَّا مؤمنون. لكن بعضنا، مثل سيدنا بارتلميوس، كُتِب عليه أن يقف على الجسر الذهبي بين الحياة ومجد السماء، وأن يُرشد الضالين ويشجعهم على العبور، ويذكرهم بأن وعد الرب ينتظرهم حيث لا حزن ولا ألم للأبد. ويا لثِّقل ما كُتِب عليه يا فيكتور! ولكم أصلي كي لا يُكتب عليَّ هذا الحمل فأوصِل كل من أحب إلى السماء وأظل هنا وحدي، أجلس تحت شجرة الجميز المحترقة.

أهدني يا رب طريقًا أبديًا، واسندني لأن لطفك عجيب. ما أعظمك رفيقًا وكفيلًا وضامنًا أمينًا لسلامة مسيرة أولادك ومختاريك مدى الحياة، فلا تحجب وجهك، بل كن كفيلًا لكل ما يحدث لي في غربة هذا العالم، إلى أن أدرك الأرض التي وعدت بها محبيك.

(13)

نحن شهود

في اليوم الثاني لإقامة سيدنا بارتلميوس معنا، قضينا الصباح في الصلاة، ثم بدأ يحكي لنا كيف تعشَّم الناس بالخير حين أظهر الإمبراطور في أول أشهر حكمه تعاطفًا مع المسيحيين، ثم أشرك ماكسيميانوس معه ليحكم الشرق، وانقلب كل شيء.

- يتحجَّجون بأننا بالنسبة لهم مخيفون، نلتصق ببعضنا كالجسد الواحد، نتعبَّد وحدنا، نمارس طقوسًا لا يفهمونها. هم يخشون أن نصير نواة لثوارت أو انقلابات على الإمبراطور، والحقيقة أنهم يخشون مغبَّة ظلمهم هم. انظروا يا أبنائي كي نعيش في أرضنا غرباء، كيف نكدح لندفع الضرائب، كيف نُمنَع عن خير أراضينا وطعام نهرنا. انظروا كيف كانت طيبة، وكيف صارت. ستعرفون أنهم لا يخافون إلا ظلمهم وإجحافهم.

وصل خبر قدوم سيدنا إلى باقي أهل القرية، فبدأوا يتوافدون على دارنا المُهدَّمة، يقبِّلون يده ويطلبون البركة. شيء في مرآهم أثلج صدري يا فيكتور، ثم بدأ الشيطان يهمس لي بأنهم لا يستحقون الخلاص. هم منافقون يا

فيرينا، يسرحون خلف من يحمل رغيف الخبز.

لكن لدهشتي، رأيت أوريليا تقف بعدما أنهى سيدنا مباركة الجميع، ثم تُخرج الوثيقة إياها من طيات ملابسها وتقول:

- سيدنا.. أعتقد أنني أخطأت. ممَ كنت أخاف؟ الموت؟ التعذيب؟ وهل من شيء أقسى من أن تحيا خائفًا، كالفئران تقتات على الفتات، وتنتظر أن يطردك سيد الدار في أي لحظة يرى فيها حقيقتك؛ أنك مجرد جرذ لا أكثر. هذه هي من جعلتني أرى حقيقتي..

أشارت لي ثم أردفت:

- لم تحتقرني كما حذرني إيزوس. لم تلُمني.. لم تتهمني ولم تُرسل في أعقابي أتباعها يمنعونني عن إضلال الباقين. بدلًا عن كل ذلك، عرضت علينا أرضها، وكلنا نعلم أن فيرينا وأباها إن وعدا أوفيا.. وإيزوس لم يعدنا بشيء إلا وأخلف وعده.

التفتت إلى الجمع من خلفها وهتفت:

- رجال الرومان آتون إلى القرية. أتعرفون السبب؟ للظفر بسيدنا بارتلميوس وزوجته، وكل من لا يحمل هذه البردية. سمع زوجي اتفاق إيزوس مع الموظف الذي جاء ليعطيه أجر شهادته لنا على تبخير الأوثان. رأى زوجي بعينيه المال

المخصص لإقامة الطقوس في منزل إيزوس، ورآه يقتسمه مع الموظف الفاسد. وبعد كل هذا، لا زالوا يطمعون في مكافأة الإرشاد عن المؤمنين. لا أعرف أين زوجي الآن، لكن حين عاد وحكى لي كان خائفًا؛ لقد رآه إيزوس من خلف النافذة، وابتسم له في خبث.

سرت الهمهمات والتساؤلات، ثم هتف أحدهم:

- كيف نعرف أن ما تقولين حقيقة؟ لماذا يفعل إيزوس كل هذا؟ لو كان فاسدًا كما تقولين، فيكفيه ما أخذ من مال ومن عملنا في أرضه بلا مقابل.

قالت أوريليا:

- لأن محبة المال أصل كل الشرور.

ضحك مُحدِّثها مُتهكِّمًا وقال:

- الآن يا أوريليا تعظين؟ هل نفد المال الذي أعطاكِ إياه؟ أنت وزوجك كنتما أقرب اثنين له، وأول من وقَّع على هذه الوثيقة، وأول من نبَّهنا إلى ضرورة أن تكون معنا. أوجستس زوجك هو من قال لنا إنه عرف بأمر الرومان ومحاكماتهم للمسيحيين، وهو من أخبرنا أنه سيستطيع أن يُخرجنا من هذه القرية. هل أخبِر سيدنا بالمزيد؟

وقفت جوارها وقلت للجمع:

- هي اعترفت بخطيَّتها، هل سنقتلها؟!

قالت امرأة تحمل طفلًا، ترتكن إلى إحدى العواميد الحجرية المتبقية من البيت:

- إيزوس لم يُسئ لنا يا فيرينا، ولو كان وثنيًّا، فهو لم يجبرنا على التبخير للأوثان، ولم يُقِم أي طقس يتعارض مع إيماننا.

- لقد أرغمكم على الكذب!

- فقط لننجو! لقد حذرنا من الهلاك وكان من الممكن أن يتركنا للرومان.

- هو فقط يحتفظ بعبيده. يتلذذ بالإفساد. يتلوَّن ليضلكم جميعًا. ولا عجب، لأن الشيطان نفسه يغير شكله إلى شِبه ملاك نور!

توتَّرت الجلسة، فنظرت إلى سيدنا لأراه يرمقنا في حزن. منذ متى كنا بهذا التخبط والضعف؟ منذ متى ونحن نفتش في نوايا بعضنا البعض؟ منذ متى والصراع ينشب تحت هذا السقف.

لكن أين السقف يا فيكتور وأين الحوائط؟

هتفت أوريليا وهي تمزق وثيقتها وتلقيها تحت قدميها:

- ها أنا ذي أندم على خطيَّتي، وأسلم نفسي للرومان حين يصلون. لن أبرح مكاني هنا. لن أموت وهذه البردية معلقة حول عنقي.

تهاوت أوريليا باكية، فدسست وجهها في صدري. قامت امرأة تلو الأخرى تمزق الوثائق وتلف ذراعيها حولنا. الرجال يلقون البرديات أمام سيدنا ويطلبون عفوه.

لكن كما رأيت الندم، رأيت الخوف، وأبصرت الاستكبار.

رأيت من يرحل عن جمعنا، وعينا سيدنا تتبعانه في حزن. الحق يا فيكتور كنا جميعًا في ورطة، لا نحكم على أحد بالشر لأننا جميعًا بائسين، يثقل الاختبار على كواهلنا، ولا يرى أحد منها المخرج.

انتحيت بسيدنا في الركن الذي ترقد فيه أمي تصارع الكآبة والحزن، كسماء مثقلة بالسحب. همست له:

- ماذا سنفعل؟ كيف سنطعم كل تلك الأفواه؟ أين سنذهب بهم؟

- ابنتي.. ما علينا سوى الإشارة إلى الطريق، وعليهم أن يسيروا فيه بأنفسهم. كان خطأ والدك هو أنه ظل يسندهم

في كل خطوة، ويمهد لهم الدرب حتى لانوا، والمؤمن الحق قوي يا ابنتي. أرض الرب واسعة، من أراد الرحيل فليرحل، من أراد المكوث والمواجهة فليفعل. أنت يا فيرينا، ماذا تريدين؟

- الحمل ثقيل يا سيدنا.. ثقيل ولا أجرؤ على التخلي عنه. ستلاحقني استغاثات من سيهوي في وهدات الدرب.

- لن تحملي آثام البشر عنهم يا ابنتي. دعيهم يجربون ويخطئون ويتعلمون. الرب سيرشدهم إن أخلصوا له الخُطا.

كانت أمي تسمع، وترى بعين بصيرتها، وكانت تشفق عليَّ، وأشفق عليها. في كل ليلة تطلب مني أن أطفئ المشعل -فلم يعد في الأسرجة ما يضيئها- ثم تولي ظهرها لي وتصلي حتى تغيب في النوم.

هل تفهم ما أحكيه يا فيكتور؟ لقد كنت وحيدة، عاجزة عن التعبير عن معضلتي. سيدنا يقول الحق وما يُفترَض أن أفعل، لكني لن أستطيع أن أنفذ حكمته لأنني -وبصدق- عاجزة عن التفريط في أهلي، في الأرض التي أقف عليها، في الدماء التي تسري في عروقهم فتصل إلى فؤادي مباشرة.

من أنا يا فيكتور؟ هل أحيا حياتي أم حياتهم؟ هل يرونني

كما أراهم؟

هل تفوَّه إيزوس بالحق وإن كان كذوبًا؟

في صباح اليوم الثالث من وصول أسقفنا المُبجَّل، مشى بين الشعب يتفقد أحوالهم، وكان منهم من يركب عربة تجرها بغال إيزوس متجهين إلى أرضه، ومنهم من يقيم بيته المُهدَّم، ومنهم من رحل إلى الكنيسة يحتمي بها. ومنهم بالطبع من يطوف حول منزل إيزوس، ينتظر أوامره أو يلتمس من وجوده الأمان.

وقفت ونفتالي وأوريليا على مقربة، بينما تقدم سيدنا إلى حيث يجلس إيزوس إلى منضدته الخشبية، يجرع الخمر ويلتهم اللحم والخبز.

لم يتحرك الأخير، فقط رفع عينيه نحو الأسقف، ثم أدارها نحونا، وأعادهما إلى طبقه وكأسه.

- سيد إيزوس. لم آتِكَ لأطردك أو أطالبك بالرحيل، فأنت الآن صاحب منزل وأرض.

لم يُعلق إيزوس، وصبَّ المزيد من النبيذ بأناقة، ثم رشف منه وتبعه بقطعه لحم.

- هذه قرية مسيحية، وأنا راعيها. بلغني أنك تُغري الناس

بشهادات زور، وتساومهم على سلامتهم لتتربح من هذه الصفقة. أنت لا تخدم معتقداتك، ولا تخدم القانون الروماني وإن كان ظالمًا.

- ماذا تريد يا... سيدهم؟ هذا كلام لا طائل من ورائه، ويعكر صفو إفطاري. لم أجبر أحدًا على شيء.

- هذا حقيقي يا إيزوس. الشرير لا يجبر الناس على شيء، بل يزين لهم الخطية ويبررها. لم آتِ لتوجيه كلامي إليك يا إيزوس، بل لكم...

والتفت إلى من حوله، متعمدًا النظر نحوي أكثر من مرة، وأردف:

- فاخضعوا لله، قاوموا إبليس فيهرب منكم. اقتربوا إلى الله فيقترب إليكم. يارب اغفر لنا خطايانا كما نغفر للمذنبين إلينا، لا تدخلنا في تجربة، بل نجنا من الشرير.

غمغم البعض: «آمين».

سار سيدنا بارتلميوس في حزن مبتعدًا، وسرنا خلفه. سألته:

- هل ستتركنا؟

- يجب أن أرحل إلى القرية التالية يا ابنتي. وحين أنتهي

من تقوية شعب الكنيسة، سأعود إلى تاوياس وأنتظر أن يأخذني جند الرومان.

سألته أوريليا:

- لماذا لا تنجو بنفسك وبنا يا سيدنا؟ أنت قادر على تقويتنا في الطريق، وبدونك قد نتعثر ونقع في الضعف. وجودك سينجينا. أرجوك، امكث معنا.. سنخبِّئك.

وقف، ثم التفت نحوها وقال:

- بل أنتم تقوُّون أنفسكم وتجابهون أعدائكم. كتابكم في صدوركم يُذكركم بما عليكم أن تفعلوا، أما أنا، فأفضِّل أن أنفذ موعظتي لكم وأتمسك بإيماني، وليكن ما سيحدث لي هو المَثَل الذي به تأتَمُّون.

دمعت عيناي، فغطيت وجهي أكثر بغطاء شعري، وسرت وراءه، نمر على الذين لم يودعهم سيدنا بعد.

الغروب يومها كان ذبيحًا، الشمس تغوص في دمائها، ولا تعدنا بزيارة أخرى. ربما سيكون الليل أبديًا، والطريق مقفرًا، والنهاية بعيدة.

تدور في خاطري كلمات الشاعر هوميروس: «المقادير تعمل عملها من وراء ستار حتى لا تراها، وستستمر حتى تنفذ

ما كتبته في ألواحها.. لا نستطيع له دفاعًا، ولا نستطيع له ردًّا».

(14)

وأذناه إلى صراخهم

حين استيقظنا لنودِّع سيدنا بارتلميوس وزوجته، وجدنا حماره ميتًا، وزبَدًا أبيض يسيل من بين شدقيه.

قال نفتالي:

- هذا الحمار مسموم.

سألته في قلق:

- من قتله، ولأي غرض؟

- لا يهم يا أختاه. علينا أن نُخرج سيدنا فورًا. هناك من يكيد له هنا.

إيزوس؟ لم أنطقها، لكني رحت أدور حول نفسي، أفكر في ركوبة لسيدنا فلا أجد شيئًا يصلح. هل نشتري حمارًا؟ ممن؟ وبأي شيء؟ نحن بلا مال لا متاع.

- سأحمله والرجال على أكتفانا. سنصنع له مقصورة الآن ونحمله إلى حيث نخبئه.

لم ينتظر نفتالي ردي. كنت أعلم أن سيدنا سيرفض كل هذا، وسينتظر مصيره معنا. هل أرسل إيزوس للرومان

بمكانه؟ حين يصلون، هل سيأخذونه وحده ويتركون المؤمنين؟

لن يجدي الاختباء حقًّا.

هرعت إلى حيث تنام النساء، وأيقظتهن، ثم همسًا قلت كي لا يستيقظ الأطفال:

- الرومان قادمون لأجل سيدنا، ولن يتركونا. ماذا سنفعل؟

- دلينا أنت.. ماذا نفعل؟

جلست القرفصاء وأمسكت رأسي بين كفاي. لكم أفتقد ريجولا. لكم أفتقد أبي. جريت يا فيكتور إلى شجرة الجميز وأنا أبكي. أمر على الأطفال الغافلين يلعبون في الطرقات، بعضهم يناديني «فيرينا.. فيرينا.. العبي معنا»، وبعضهم يجذب طرف ثوبي.

لا أرى أمامي سوى عجزي التام عن أن أكون مثل أبي، أو أكون مثل سيدنا بارتلميوس. عجزي أن أكون شيئًا من الأساس. كل ما أفعل يُنسى، لكن هل أنتظر حقًّا تقدير الآخرين؟

كلا يا فيكتور، كل ما أحلم به هو أن أرى بعيني أثر محاولاتي، أنا مؤمنة، لكن قلبي ليس مطمئنًّا بعد.

لاحظت مينريت، ابنة مرتا -بائعة الشعير، ألا تذكرها؟ أظن موريس قد أشترى منها في مرة كل ما لديها لأجل رحلة عودتكما إلى أوكسيرينخوس- تقترب مني في حذر، ولم تكن قد بلغت الحادية عشر بعد. أظنها تبعتني حين رأتي أعدو وأتعثر في ثوبي في طرقات القرية. من بعيد، خلف النخيل، عشرات الأعين الصغيرة تنظر إلينا. أعين وجلة قلقة... مُحبة.

قالت مينريت بصوتها المبحوح دائمًا أثر سقوطها على رقبتها وهي رضيعة:

- فيرينا؟ لماذا تبكين؟

ابتسمت رغمًا عني، ومددت ذراعي نحوها، فجلست جواري ولفَّت ذراعيها حول خصري.

- لا تقلقي يا مينريت. الله يدبر أمرنا.

- هل سيأتي الرومان حقًّا ويقتلوننا؟

- لا أعرف. أنتم خائفين؟

- لست خائفة... أعني، إنني لست خائفة من أن أموت وأذهب إلى السماء. لكني أخاف الرومان وأخاف أن يضربوني أو يعذبوني. سمعت من أمي أن الرومان قد اختطفوا المسيحيات وباعوهن ليعملن في أماكن سيئة،

يفعلن فيها أشياء مُخجلة. هي كانت تقول هذا لخالتي لتحذرها.

صمتُّ، فقد سمعت أن أشياء كهذه قد حدثت في الاضطهادات السابقة. إن صدر مرسومًا بالتحقيق مع المسيحيين، فمن ينفذ المرسوم يسجنهم دون تحقيق. وإن كانت الأوامر أن يحاكموا البعض، فهم يقتلون الكل. ثمة غِل غريب في صدور هؤلاء، لا يُشبع بالظلم، ولا يهمد إلا بالإجحاف.

ظلت مينريت تنظر إليّ في انتظار إجابة، ثم قالت:

- هل يمكن أن نمكث معك؟ لن نتكلم.

أشارت إلى الأطفال خلف النخيل، فهرعوا إلينا واجمين، وتحلقوا حولنا. قال أميل وهو يعاني كي تخرج الحروف من فمه بشكل واضح من بين أسنانه الأمامية المفقودة:

- احكِ لنا يا فيرينا قصة. أمي لم تعد تحكي لنا القصص. حين تعود من عند سيدي إيزوس تنام ولا تتحدث إلى أحد منا.

قلت وأنا أمسح وجهي، وأنتزع من حزني ابتسامة، ورحت أحكي تلك القصص القديمة التي لا عظة من ورائها، فالوقت ليس وقت عظات. يكفي أن أرى الأفواه المفتوحة دهشة

بغرابة القصة ولا منطقيتها.

غصتُ أنا كذلك في قصة الفلاح الفصيح، والملاح الغريق وكل تلك الأحداث الساحرة المثيرة، حتى وصل إلى مسامعي صوت الهرج من ناحية القرية. هوى قلبي في أحشائي، وراحت عيناي تدوران في المكان حولنا بحثًا عن مخبأ لهؤلاء التعساء. حُفر الخزين خلف النخيل...

جمعت أطراف ثوبي وقمت وصوتي يعلو أكثر، يصرفهم عن سماع أي أصوات أخرى:

- هيا نلعب لعبة.. ما رأيكم أن نحفر حفرة كبيرة في التل خلف النخيل، سأحكي لكم هناك حكاية سرية لا أريد أن يسمعها أبو قردان كثير الكلام.

نظروا إلى السماء، ورأوا الطيور تهجر القرية إلى الغرب. نظرت لي مينريت وهمست:

- الرومان؟

هززت رأسي، فابتسمت لي مُشجعة -يا ليتك رأيت هذه الابتسامة يا فيكتور، تذكرني كثيرًا بابتسامة ريجولا المُطمئنة التي تخفي الذعر- ثم هتفت في الأطفال وقد بُح صوتها أكثر:

- الطيور تغادر القرية لتسمع القصة السرية! هيا بنا نحفر سريعًا!

صاروا يوسعون إحدى حفر التخزين، وأنا أقطع جريد النخيل بكفاي حتى أدميتهما. أرشدت مينريت إلى الكيفية التي تُبطن بها الحفرة. في النهاية أجلستهم جميعًا بالداخل، وغطيت المدخل بالجريد والأحجار وأنا ألهث وأقول:

- سأحكي لكم حكاية غريبة للغاية.. فقط امكثوا هنا حتى أعود. مينريت، رجاء، لا تصدروا أي صوت مهما حدث. سأعود سريعًا.

كنت أفكر في أمي، تُرى مَن معها؟ أفكر في الذعر الذي قد يصيبها وهي تسمع الصرخات ووقع حوافر خيول الرومان ولا ترى شيئًا.

أردد الصلوات لمريم العذراء أم النور، وأنا أعدو حافية بين الأطلال، أتبع صوت الصرخات والبكاء، وحديث الرومان المتعالي، ولكنتهم اللعينة التي تلوث لغتنا، لغة الفلاحين أبناء الطين والماء، نسل سماء هذه الأرض، وأولاد الشمس الحانية.

وجدت عصا من النحاس، فرفعتها في يدي، منتوية أن أشج رأس أي لعين يقترب من أهلي.

ثم شممت رائحة الدماء، وشعرت بسخونتها تحت قدماي الحافيتين. أظلمت الدنيا أمام عيناي لوهلة، قبل أن أنظر إلى أسفل، فأرى طفلين مبقوري البطن حولهما أثر حوافر الخيل.

قد يكونا ماسوريس وكيرا، أو كابي وتوما، أو أنا وأنت يا فيكتور.. لا يهم من هما، لكنهما ماتا دون أي ذنب!

ثم رأيت بيتروس واقفًا عند نهاية الطريق الضيق، يشهر البردية الرفيعة في وجه جندي روماني يقف جوار جواد، ويحاول أن يحمي أبناءه خلفه. ينظر الجندي إلى البردية ثم إلى الرجل وأبنائه، وقبل أن يعتلي حصانه، يشير إلى الطفل الأصغر ويصيح:

- أنت.. ما هذا؟

لا شعوريًا، يجثو بيتروس خلف ابنه ويحيط صدره بذراعه وهو يقول:

- هذا.. ابني يا سيدي.. اسمه مكتوب في الوثيقة.

يزيح الروماني ذراع الأب عن صدر ابنه بطرف سيفه، فينشق اللحم، ويظل بيتروس متشبثًا بابنه. هرعت إليهم أصيح في الجندي:

- ما لك ومالهم؟ لقد رأيتَ الوثيقة. إن كنت تشك أن هناك

مُزوِّرًا، فهو رجلكم إيزوس.

- ابتعدي الآن.

قالها هو ينظر إليّ في اشمئزاز، ويقبض على ذراع الطفل بيده، وباليد الأخرى يمزق صدر ثوبة المهتري ليكشف عن حبل من الكتان يتدلى منه صليب خشبي صغير.

أهتف:

- هو مجرد طفل، لا يعرف معنى هذا الرمز. اتركه..

- ولا يعرف أبواه معنى هذا الصليب؟ هل أنتِ مسيحية؟

تسارعت ضربات قلبي، وعرفت أنها النهاية. جذبت الطفل من بين يديه وصحت وأنا أطوح جسده الصغير خلفي:

- اهربوا!!

هرب الأب وأبناؤه، وقبل أن يركب الجندي حصانه خلفهم، صحت أنا:

- أنا مسيحية. نفسي ليست ثمينة عندي.

لطمني بظهر يده، ثم صاح يستدعي المزيد من رفاقه الراجلين، واندفع هو على حصانه خلف بيتروس. من خلف الأطلال رأيت جنديان يحمل أحدهما أغلالًا. تذكرت مخاوف

مينريت وحكايات الأمهات.

رفعت العصا ورحت أضرب بها في الهواء حولي. أنا لم أضرب أحدًا قط، وفي كله مرة تصيب العصا أحد الجنديين، أتألم أنا.

أتراجع ويتقدمان هما. يقول أحدهما:

- اختصري عليك العذاب يا امرأة. قفي مكانك!

في لمح البصر، جرَّدني الجندي من سلاحي، وجثا الآخر يحاول أن يطوق قدماي بالأغلال. ركلت وصرخت ولا يسيطر عليّ إلا فكرة أن تتعرى ساقاي أمامهما. يا رب.. لا تدعهم يكشفون جسدي.

سمعت صوتًا يتكلم بلهجتنا، ولم أستطع أن أبصر من هو لأن غطاء رأسي كان قد انزلق وغطى وجهي.

- انتظروا.. هذه فيرينا. سيدي إيزوس يبحث عنها.

توقف الجندي عما كان يفعل، ثم قال:

- من أنت؟ هل أنت مسيحي؟

ساد الصمت إلا من صوت خطوات تقترب. أزحت غطاء الرأس عن وجهي، فرأيت نرسيس -من أشد المدافعين عن إيزوس والمعارضين لي- يدفع البردية الرفيعة إلى الجندي

ويقول:

- لست مسيحيًا يا سيدي. هذه محظية إيزوس. لو أنك لا تصدقني، فتعال معي إليه واسأله بنفسك. سيغضب كثيرًا لو أصيب جسدها بأذى.

نظر الجندي نحوي، ثم قال كأنما يبصق:

- لقد صار ذوق الهيلّنيين متدنٍّ للغاية. أو أن الرجل رغم ماله لا يحب سوى الفلاحات القذرات. سأذهب معكم.

عرفت بعد ذلك أن الجنود ليسوا رومانًا، بل إغريق وداكيُّون وثنيون، يعملون لدى الرومان في المهام التي لا تحتاج إلى قيادة رومانية خالصة. وللأسف أدركت أنك وموريس وكل الكيميين في الجيش الروماني مجرد قشرة رومانية، تخفي جوهرًا مختلفًا بداخلها، يختنق خلف تلك الخوذات والدروع والتروس، ويصرخ بأحقيته في الظهور.

لا زال الهيلّنيون يكرهون الكيميين ويتعالون عليهم، ولا يجدون غضاضة في إبداء هذه الكراهية، ولا زالوا يكرهون الرومان ولا يجدون متسعًا لخيانتهم أو سرقتهم إلا وفعلوا. الإغريق طبقة مضغوطة بين الحُكام والعبيد، تنز الصديد والدم عليهما معًا. لا أجزم بالطبع أن كلهم كذلك، فقد كان لأبي أصدقاء إغريق من تاوياس، وبعضهم لم يكن مسيحيًا

حتى، وكانوا أنقياء مسالمين. لكني ألعن الكبرياء الذي هو السبب في كل شرور العالم.

اقتادوني وقد أمسك الجندي بذراعاي خلف ظهري. لا أعرف ماذا يحدث، لكني قررت أن أجاريهم، ربما أكسب بعض الوقت حتى أفر.

لقد صار الفرار محتومًا يا فيكتور. كنت أظنني سأقتَل، لكنهم يحرموننا حتى من ملاقاة الرب بكرامتنا.

في منطقة ممهدة قبل منزل إيزوس، فرش أحدهم الحُصُر على الأرض وأجلس عليها أهل القرية في صفوف، كل أسرة في مجموعة واحدة، واستنتجت أن هؤلاء هم أصحاب الوثائق السارية. رأيت آباء وأمهات يلفون بعض أطفالهم الموتى في أثواب قديمة.

أنادي على إحدى الأمهات أسألها في لوعة:

- من هذا الذي أمامك؟ لا تقولي إنه دانيوس؟!

تجهش بالبكاء، فتصلني الإجابة. هؤلاء أطفال داستهم سنابك الخيل ولم تشفع لهم طفولتهم ولا صكوك البراءة مع آبائهم. همس لي نرسيس من بين أسنانه وهو لا ينظر لي:

- اسكتي قليلًا.

سأله الجندي خلف:

- ماذا تقول لها؟

- أقول لها اخرسي. معذرة يا سيدي، فعقلها ليس.. أنت تفهم.

وأشار إلى رأسه، فقهقه الجندي خلفه وقال:

- مجنونة! يا لإيزوس وانحراف مزاجه في النساء! بالطبع لا بد أن تكون مجنونة كي ترضى بجثة مثله.

وقال شيئًا بذيئًا لن أذكره. حين وصلنا منزل إيزوس، لم أره في المكان. نادى نرسيس عليه مرات، ثم قال:

- حماره ليس هنا. لا بد أنه ذهب ليشهد تعذيب الأسقف.

اتسعت عيناي ونظرت له، حاولت التملُّص من الجندي وأنا أصرخ:

- نرسيس أيها الخائن!

بصقت عليه، فمسح وجهه بظهر كفه وقال وهو يجذبني من ذراعي:

- اتركها لي يا سيدي.

- ماذا ستفعل بها؟

- قيدها واتركها أمام البيت حتى يعود سيدي. أم أقول لك..

اقترب من أذن الجندي وهمس شيئًا، ثم قال الأخير:

- أنا أولًا. لنرَ ماذا يعجبه فيها.

- لا بأس. أعرف مكانًا مستورًا..

صرخت أستغيث وقد فهمت ما ينتويانه، لطمني الجندي مرة أخرى، وجذبني نرسيس من ملابسي فسقطت على ظهري حتى كدت أختنق. صرخت إحدى النسوة، وعدا نحوي رجلان ممن كانوا جالسين على الحصير. طوَّح الجندي غمد السيف في وجه أحدهما، فتدفق الدم من عينه، وتوقَّف الرجل الآخر هاتفًا:

- اتركها يا سيدي. لن تهرب. أقسم لك بـ... بـ... بجلالة الإمبراطور.

- لو لم تصمت وتجلس مكانك سأقطع رأس ابنتك هذه.

وأومأ نحو طفلة دامعة العينين تجلس القرفصاء. كلنا يعرف أنهم قادرون على تنفيذ تهديد كهذا. همس الرجل بصوت مرتعد:

- سامحينا يا فيرينا...

أسامحكم! هذا الهول لا يحتمله بشر، اختبار عسير يزعزع

الجبال. انتويث أن أمزق بأسناني من سيقترب مني، ولن أسمح لأحد أن يضحي بنفسه من أجلي، يكفيهم ما يعانوه وما دفعوا من ثمن.

المكان خلف منزل إيزوس مليء بالقدور والأوعية الفخارية والسلال. يبدو لي كمخزن مُسقف بعروق الخشب وجريد النخل والطين. رائحة النبيذ المُعتَّق تدفعني للسعال، والذباب يجتمع حول اللحم المجفف المعلق.

رماني الجندي إلى ركن، فأمسكت قِدرًا ثقيلًا وقذفته به. تحاشاه ببراعة، ثم بدأ يرفع تنورته. أغمضت عيناي فورًا وتكورت على نفسي. راح نرسيس يتفوه ببذاءات والجندي يجاريه ويضحك، ثم سمعت شيئًا يتهشم، تلا ذلك سُبَّة هيلِّنية، ثم صوت سيف يُستل من غمده.

- اهربي يا فيرينا. الأطفال مع أمك!

زحفت على أربع أتعثر في ثوبي، أتحاشى النظر خلفي، لكني أسمع صوت الصرخات والشتائم بين الرجلين، وفخار يتهشم. بعد خطوات رأيت جثة جندي آخر ملقاة خلف البئر، وقد تهشمت رأسه.

شرعت أعدو وألتمس الطرقات الخالية وأنا أصلي للرب كي يعين أبناءه الذين ضلوا الطريق يومًا، ثم وجدوا النور

فاتبعوه. أصلي لأجل نرسيس ولأجل التعساء المكلومين.

جريت، وتعثرت، واختبأت، ثم واصلت الطريق. الأطفال جوار شجرة الجميز، والأطفال في بيت أبي. العبء يتزايد عليّ، وقلبي يدفعني للبحث عن سيدنا بارتلميوس. أيعذبونه دون محاكمة؟ أيعذبونه أمامنا؟! أمام الشيطان إيزوس؟

وقفت وسط الأطلال أنظر إلى السماء وأسأل الله: أين الطريق؟

أسمع صرخات نساء، وأعرف أنهن يلاقين ما كنت سألاقيه. التراب تحت قدماي يستغيث، فبمَ أغيثه؟!

حين وصلت إلى بيتنا، وجدت الحجرة المتبقية منه مخفية خلف أكوام من الردم والحجارة. دُرت حول البيت وسمعت همسًا؛ صوت أمي.

هرعت أزيح من الأحجار ما يمكنني من الدخول وأنا أكرر بصوت مُطمئِن:

- لا تخافوا.. هذا أنا..

دخلت إليهم، لأجد أمي متربعة في الظلام وحولها عشرات الأطفال، وقد زودهم أهل القرية -كما يبدو- بالطعام في آنية تشبه تلك التي عند إيزوس. دمعت عيناي وأنا أرتمي في

حضن أمي، وأدرك أن الظلام لم يحتل النفوس بعد. أهلي -على اختلافهم- يبصرون الحق ويعرفونه، حتى لو عجزوا عن اتباعه في الشدائد.

قلت لأمي:

- خبأتُ المزيد من الأطفال عند شجرة الجميز. لا أعرف ماذا أفعل، هل أتركهم وحدهم أم أترككم أنتم وحدكم؟

- اذهبي إليهم يا ابنتي. الرب يحرسنا. لولا هؤلاء الأبرياء لخرجت معكِ.

أعرف أنها غير قادرة على حمايتهم من أي شيء، ولا قادرة على حماية نفسها. طمأنتها أنني سأعود، وخرجت أبحث عن أي شخص يرافقهم. الطرقات مهجورة. الصرخات تخفت. لا شيء سوى صوت حوافر الخيل تضرب الأرض بحثًا عن مختبئ هنا أو هناك. هل أذهب إلى الأطفال في الحفرة فأنقلهم إلى البيت؟

المسافة بين الشجرة وبيتنا قريبة، فعدوت بآخر ما ملك من قوة. قدماي تنزفان ولا أعبأ إن كان ما جرحهما حجر أم عظام.

تتناوب المشاهد أمام عيناي، كأنني أنا في الماضي والحاضر معًا. في الأمس القريب كنت أعدو ورفاقي إلى

الجميزة كي نختبئ في أحضان الحكايات. رائحة الفطير الطازج وطعمه في فمي يا فيكتور يطغى على رائحة الدماء وطعم دموعي المالحة.

أسمع صوت إيزوس في بيتنا يُلقِّنني أبيات الإلياذة، فأنظر إليه بعينين مبهورتين وهو يحرك ذراعيه فتلمع فيهما الأساور والخواتم، ويهتف: «أنشِد يا هوميروس! واملأ الأحقاب موسيقى، واللا نهائية جمالًا وسحرًا! فالأرواح ظامئة، القلوب متعبة، والإنسانية واجفة، والآذان مكدودة من دوي العصر، فهي أبدًا تحنُّ إلى سكون الماضي».

فهي أبدًا تحنُّ إلى سكون الماضي. إلى دروس الصباح، ولعب الظهيرة، واجتماع المساء، وليالي الأعياد في الكنيسة.

لا شيء سوى الأطلال حولي. أشكر الرب أن مخبأ الأطفال آمن. أتلفَّت حولي، فأرى ظلًّا خلف النخيل. أضيِّق عيناي، فأبصر أوريليا وتبصرني. تعدو نحوي وتقبض على عضدي وتقول:

- حبيبتي! ماذا حدث لك؟!

- ماذا حدث لكِ أنت؟!

كانت ذراعها اليسرى مكسورة، تتدلى جوار جذعها، منتفخة مزرقة. مسحت وجهها المترب وقالت:

- لا عليك. فيرينا.. الأطفال بخير، لقد جئت أبحث عن مخبأ هنا.. قلبي لم يرشدني إلا إلى الجميزة، حيث كنت تعلمينني وأنا صغيرة.

ابتسمت ابتسامة مزقت قلبي. مسدت على رأسها فأكملت:

- وسمعت الأطفال هنا يبكون. مكثت خلف النخيل أحرسهم. فيرينا...

وأجهشت بالبكاء. قالت من بين أنفاسها المتهدجة:

- فيرينا.. لن يرحل الرومان قبل أن يدكُّوا القرية على من فيها. لن يبقى منها سوى عبيد إيزوس. حتى هؤلاء... حتى هؤلاء لم يسلموا من الأذى...

- أعرف يا حبيبتي.. أعرف. لكن...

- أختاه.. لو نجوتِ، أوصيكِ بمن سيتبقَّى منا. اهربي بهم من هنا. هم بدونك ضائعون لا محالة. لا تظني أن ما فعلتِه لنا وما فعله والدك قد راح هباء. معروفكما يجري في عروقنا لكننا نسينا، كما ننسى أن في لحمنا دماء، ولا نتذكر إلا حين تُراق. اليوم تراق الدماء يا أختاه، ونصير مبصرين...

تضحك ضحكة مكسورة، وتضيف:

- أتسمعين كلماتك المنمقة تخرج من فمي؟ أنا لم أنسَ قَط

ما علَّمتِه لي...

نظرت أوريليا خلفي، وحين أدرت رأسي كي أرى ما أرعبها، لفَّت وجهي، ثم دفعتني إلى الحفرة التي بها الأطفال..

- أوريليا؟!

- اصمتي!

وضعت كفها على فمي، فلم أجد بُدًّا من أن أحشر جسدي بين الأطفال، الذين تلقفتني أذرعهم الصغيرة في اشتياق. شممت رائحة أخشاب تحترق، لكن أوريليا لم تترك لي فرصة للسؤال؛ أهالت فوقنا التراب، وسمعت أنفاسها المتهدجة إذ تحمل الأحجار وتضعها أمام الفتحة بذراع واحدة.

- فيرينا.. صلي لأجلنا.

احتضنتني مينريت، فأحطتها بذراعي. كنا كتلة واحدة متماسكة لا فراغ بيننا. جسد واحد يرتجف في الظلام. رائحة الدخان تتزايد. أحد الأطفال -لا أعرف من هو- ينفجر في البكاء، فأقربه إلى صدري وأهمس:

- لا تخف.. الرب معنا.. الرب معنا.

لا أعرف ماذا سقط فوقنا، لكن السقف هوى، وسمعت أحدهم يهتف:

- يا امرأة.. قفي مكانك.

تلا ذلك صوت صرخة. صرخة أوريليا. صوت حوافر حصان. صوت أخشاب تحترق. صوت أنفاس لاهثة تسأل:

- أين وثيقتك؟

- ليس معي وثيقة.

- اربطها هنا.

صوت أقدام أخرى، صرخات أوريليا، ثم صلواتها الهامسة التي راحت تعلو شيئًا فشيئًا حين بدأ الأطفال حولي يسعلون ويبكون.

- ليكن اسمك يا رب مباركًا مدى الدهور...

تبكي، ونبكي.

- ... لأنك شئت أن تُنزل بي هذه المحنة..

يضربها أحدهم. يشتمها كي تصمت، فتجهر بصوت أعلى يغطي فوق أصوات الأطفال:

- ... والشدة التي لا أستطيع الهرب منها...

الطفل في صدري يسكن أخيرًا. أغمض عيناي وأضم جسده. كيف يا فيكتور أمنع نفسي من الصراخ وقد فاضت

روحه البريئة ولم أستطع أن أفعل له شيئًا؟

- ... بل أنا في حاجة أن ألتجئ إليك، لتساعدني وتحولها لي إلى خير...

صوت صرخات نساء أخريات، وصوت هرج. الجندي يهتف:

- من منكم مسيحي فليتقدم الآن ويرى هذه العاهرة تُحرق. من منكم يؤمن بيسوع الناصري وسوّلت له نفسه الخبيثة أن يقتل جنود الإمبراطور فليتقدم وليرينا شجاعته.

آه يا فيكتور. ليته ما تكلم. ليته ما وصف ما يجري.

- ... يا رب أغفر لي لأني لا أستطيع أن أرفع عيني إليك لأني أخزى من كثرة آثامي.

انتهت صلاة أوريليا بصرخة مكتومة، وعلا صوت الاحتراق والندب والاستغاثات. أنا أيضًا أختنق. العالم يغيب من حولي، ثم يعود.

موريس يحمل جسد الطفل الذي قد يكون ساليستو أو بولس أو أنا أو أنت. كلاهما مغطى بالطمي والدماء. الفيضان أحمر اللون يذكرني بضربة تحويل الماء إلى دم في زمن موسى النبي. الضفادع التي كنا نطاردها صغارًا صارت في

حجم الخيول، تصهل مثلها وتضرب صدورنا.

والظلام يا فيكتور.. الظلام..

تهمس طفلة تهذي كما أهذي:

- الحكاية يا فيرينا..

- آه.. الحكاية.. عندما مد موسى يده نحو السماء، بناء على أمر الرب له صار ظلام دامس في كل أرض مصر ثلاثة أيام، لم يبصر أحد أخاه، ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام...

أغيب عن الوعي، ربما لحظات، ربما أيامًا، ثم أعود وقد جف ريقي لكني لا زلت أهمس:

- ولكن جميع بني إسرائيل كان لهم نور في مساكنهم...

النور يعمي عيناي، أغطي وجهي. هذه ليست الشمس. هذه نار. أردد بلا وعي مني:

- ولكن جميع بني إسرائيل كان لهم نور في مساكنهم...

الرائحة.. الرائحة اللعينة.. النبيذ والعطر. أفتح عيناي رغمًا عني، وأصلي للرب أن يكون ما آراه حلمًا آخر.

جاء صوته الخبيث:

- وقال موسى: هكذا يقول الرب إني نحو نصف الليل

أخرج في وسط مصر، فيموت كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيِّه، إلى بكر الجارية التي خلف الرحى وكل بكر بهيمة، ويكون صراخ عظيم في كل أرض مصر لم يكن مثله، ولا يكون مثله أيضًا.

ضحك، ورفع المشعل في يده أكثر فرأيته رجيمًا يقف وسط الخراب.

- قومي يا فيرينا.. قومي من قبرك، أم ستنظرين ثلاثًا مثل مسيحكم؟ لكني لا أرى ملائكة القيامة.. لا يوجد سوى هؤلاء.

وأشار إلى النسور تدور حوله، تنهش في الأجساد المحترقة. لكني تحاملت على نفسي. زحفت على ركبتي وخرجت. ساقاي ترتجفان ضعفًا. ملابسي ممزقة وشعري أشعث. نظرت حولي ورفعت رأسي وأنا أقول:

- عزيز في عيني الرب موت أتقيائه.

لم أنظر إليه، لكن إلى أوريليا نظرت. لم أتبين شيئًا منها، وقد صارت هي والجميزة واحد. تفحّمت الاثنتان، لكنهما ظلتا منتصبتين شامختين.

ركعت أمام الحفرة، أخرج منها الأطفال. أمسح على وجوههم وأضعهم واحدًا جوار الآخر، ممددين تحت السماء الغائمة المُحمرة. اسأل نفسي يا فيكتور، لماذا لم أمُت معهم؟

هل موتهم عقاب لي على خطية اقترفتها؟ ماذا فعلت يا رب وأغضبك عليَّ؟

قال إيزوس وهو يتقدم مني:

- ماذا تفعلين يا فيرينا؟ تدفنين أفعالك كي لا تواجهينها؟ لقد عرضت عليكِ أن تكوني سيدتهم وتقوديهم إلى النجاة، لكنك رفضتِ، وظللت ترفضين كل الفرص، بل وتُشعرينهم بالذنب أنهم قد حاولوا النجاة بأنفسهم. أنت أنانية يا جميلة، لكني لا أمانع في هذا. أنتِ مني، وفي النهاية لم يعد هناك سوى إيزوس، وإيزوس يقبلك كما أنت ويغفر لك كل ما فعلتِ... وأكثر.

أكملت ما أفعل كأنني لا أسمع ما يقول. ركل سوارًا نحاسيًّا وجده على الأرض بطرف حذائه، ثم أضاف:

- كانت الأرض خرابًا، ثم أصلحتها أنا. لولا الخطيئة الأولى ما كانت هذه الدنيا التي تتكالبون عليها نهارًا، وتنكرون وجودها في قلوبكم ليلًا في صلواتكم. الإنسان ابن الخطيئة يا فيرينا. بها لُعِن، وبها تعلَّم، وبها يكون له الخلود. كفاك ندمًا... هذه الأرض ملكك. هذه هي جنتك.

دون أن أنظر إليه قلت:

- بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم...

- ودخلت الحياة. تعرَّى الإنسان فتناكح وتناسل وصارت الحياة!

ركب حصانًا لم أره معه من قبل. حصانًا ضخمًا أبيض اللون، دار به حولي دورة كاملة ثم قال وهو يبتعد:

- تعرفين بيتي... أنتظرك. لا مكان للوم أو الحساب. فقط تعالي، وكوني سيدة العالم.

ظللت أكرر في نفسي أنني أحلم. هذا حلم. إيزوس لا يعرف الكتاب المقدس، وليس لديه حصان. إيزوس لا يراني لأنني لا شيء. لن يفعل كل هذا لأجلي؛ من أنا حتى يُعلق كل أمانيه عليَّ؟

هذا حلم.. وحتى أستيقظ، يجب أن أفعل شيئًا حتى لا أجن.

جررت ما تبقى من أجساد أهلي ورصصتهم جنبًا إلى جنب تحت الجميزة. كنت مستسلمة، أفعل كل شيء بلا تفكير، أصوات ضعيفة وأنين لا أعرف مصدره، لكني موقنة أن الجميع موتى.

سرت نحو البئر فشربت وغسلت وجهي. جررت قدماي إلى بيت أبي وأنا أجهز نفسي لما سأرى، لكن ماذا قد يضيرني في

ما أرى في حلم طويل سخيف؟

خطر ببالي ترنيمة كنا نرنمها في الكنيسة وأنا صغيرة، فصرت أرددها كي يكتمل الحلم الغريب الذي أحياه. أترنح يمينًا فأستند إلى أطلال بيت أوجستس، أترنح يسارًا فتتلقفني أحضان نخلة مكسورة محترقة. السماء.. السماء تهوي فوقي. أتذكر أمي.. تُرى...؟!

وصلت إلى البيت الذي -كما توقعت أنت- قد صار كومة رماد. الطين حوله أحمر، رائحته لا تطاق. العواميد الحجرية البيضاء إنهارت أخيرًا، واحترق جريد النخيل الذي كنا به نحتمي.

نظرت إليه برهة، ثم فقدت الوعي.

الفصل الثاني

الزرع

سقطت اليوم «إليوم»، ونزح المُغير عنها بخيله ورجله، فتعالي يا عرائس الفنون فافتقدي أوديسيوس في ذلك البحر اللجي يذرعه، موجة تلبسه وموجة تخلعه، لا يعرف لمملكته ساحلًا فيرسو عليه، ولا شاطئًا فيقصد إليه. يخبط في اليم على غير هدى، ويرسل عينيه في الماء والسماء على غير بصيرة. زرقة متصلة في العلو والسفل، وتيه لا نهائي يخبط في أحشائه أسطول السادة المنتصرين.

الأوديسة- هوميروس.

(1)

ورأى مشقَّتنا

أفتح عيناي..

النهار. لقد حلَّ النهار. آلام متفرقة في جسدي كله. أسعل حتى تجحظ عيناي. أبصق ترابًا على... حصيرة؟

أجفل وأنظر حولي في جازعةً؛ أين أنا؟ الوجوه مألوفة. ألم يموتوا جميعًا؟ هل تبقَّى أحد من القرية؟! أسمع الصوت المبحوح وأرى جسدًا نحيلًا يرمي نفسه فوقي. مينريت.

- فيرينا! حبيبتي! حمدًا للرب أنك بخير. ظنناكِ مِتِ.

- مينريت... صغيرتي، ظننتكِ مِتِ.

- بل ناديتُكِ، لكني كنت متعبة، وصوتي ضعيف. رأيتك عند البئر، وسرتُ خلفك قدر استطاعتي.

أشارت إلى قدمها المُضمدة، ثم أردفت:

- ثم فقدتِ الوعي. ظننتكِ...

الأكُف حولي تربت على كتفي. النساء يقبلن جبهتي. هؤلاء من كانوا جالسين بالقرب من منزل إيزوس، لكن ينقصهم نحو ربعهم تقريبًا.

- أين الباقين؟ أين نرسيس؟

رأيت زوجته في الركن تحدق إلى الأرض. قالوا لي إن الرجال قد رأوا هول ما فعله الرومان مع جيرانهم، ولم يشفع للأطفال وثيقة تبخير الأوثان مع آبائهم. كانت اللحظة الفارقة لحظة انتهاك النساء أو أسرِهن. هنا تحركت مجموعة من الشباب تحاول كسب ثقة الرومان، ثم استدراجهم لقتلهم. لكن الأمر انكشف، وحُرقَت القرية، ولم ينجُ إلا الحضور في هذه الحجرة.

دققت النظر لأتبين في أي حجرة أنا، لأكتشف أنني في قاعة منزل إيزوس. هتفت:

- أين إيزوس؟

- لم نره بعد استشهاد سيدنا بارتلميوس.

قمت من مكاني رغم منع النساء لي من الحركة. ضربني الدوار فهويت مرة أخرى. سيدنا... كيف؟ لماذا لم يدافعوا عنه؟ لماذا لم يهرِّبه نفتالي كما خطط؟

- وأين نفتالي؟

قالت سارا:

- لا تقلقي. هو بخير، لكنه مصاب بحربة تلقاها في كتفه

وهو يحاول فك سيدنا من...

لكزها زوجها فصمتت. قدمت لي مينريت شيئًا في صحن، فدفعته برفق. ثم طلبت منها أن تسندني حتى أقوم.

كنت أريد أن أتأكد أن ما يدخل من النوافذ نور؛ أنا لم أرَ نورًا بهذه الدُّكنة من قبل. الهواء لا يدخل إلى صدري. أصواتهم إذ تناديني تضرب أذناي وتسقط على الأرض تحتي. من بقي، من مات؟ أم ترانا كلنا متنا؟

الجو بارد، وملابسي ممزقة. أضمها على صدري وأسير متكئة على كتف مينريت. هذه ليست قريتي.

أتفهم يا فيكتور كيف تتالت الأحداث حتى لم تترك لي فرصة استيعاب كل هذا التغيير؟ بالأمس كنت أعدو عند ضفاف (فيارو) وألوح لأبي. منذ لحظات كنت أعلم الفتيات تحت الجميزة. قبل أن أغمض عيناي كانت أمي حية.. وأوريليا.. وسيدنا بارتلميوس...

أسير ولا آبه لصوت مينريت المبحوح يصيح بي، ويجذب كُمي. أرى ترابًا في الأفق عند بداية الطريق، ثم أنتبه إلى صوت حوافر حصان، ومينريت تصرخ:

- لقد عادوا! فيرينا! لقد عادوا.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أستدير وأحملها -هي طويلة، فتلف ساقيها حول خصري كي لا أتعثر- وأعدو نحو منزل إيزوس وأنا أهتف:

- عاد الرومان!

الأذرع تمتد من الباب، تتلقفنا، تدفعنا إلى الداخل. يشير الرجال للنساء أن يختبئن خلف الأثاث القليل وأسفل المنضدة. الباب الخلفي المفضي إلى المخزن موارب، يمكننا أن نتسلل خارجين منه لو حوصرنا، لكن إلى أين؟

صوت الحوافر يقترب. هما حصانان. كلا، حصان وحمار أو بغل. أسمع صوت شاب يقول:

- لا يوجد سوى هذا المنزل. الموتى بالخارج، وهي ليست فيهم.

نكتم أنفاسنا.. صوت الحصان يدور حول المنزل، وأسمع صوتًا قويًا هادرًا:

- فيرينا!

يتحرك أحد الشباب بخفة لينظر عبر النافذة المواربة، ثم يهمس:

- لا أرى وجهه. يرتدي ملابس رومانية.

لا بد أن إيزوس قد أرسله.

- فيرينا!

أهمس لهم:

- نحن أكثر منهما. يمكننا مواجهتهم. لماذا نختبئ؟

يقول قائل:

- ونجلب الوبال على أنفسنا مرة أخرى؟ لو قتلناهما سنُقتل. لنختبئ حتى يرحلا.

ينادي الرجل بالخارج:

- نفتالي!

ماذا يريد من نفتالي؟ أين نفتالي أصلًا؟ أسألهم، فيجيبون بأنه في الحجرة الخلفية مع المصابين من الرجال.

- فيرينا!

- يبدو أنها هربت يا سيدي.

أسمع صوت حذائين يسيران على الأرض، يقتربان من الباب، ثم صوت طرقات. يسأل من بالخارج ليس بلغتنا فقط، بل بلهجتنا كذلك:

- بيت من هذا؟

الصوت مألوف. بل هو ليس رومانيًّا! هو... أصيح:

- موريس!

أنطلق نحو الباب أفتحه، فأراه في كامل زيه العسكري -الذي لم أكن قد رأيته من قبل- يقف أمامي. الشمس لوّحت بشرته فصار شبيهًا بالتماثيل الحجرية.

تهلل وجهه، وانطلق من معي نحوه يسلمون عليه. عانقه الرجال وتشبثوا به بقوة، بل إن بعض الأعين قد دمعت. ضحك موريس وهو ينظر إليّ عبر العشرات الذين يطوّقونه:

- فيرينا! كنت أعرف أنكِ حية. مثلك وُلِد ليَحيا. أنت الجميزة التي يلتقي عندها الضَّالون.

هذه مزحته عني دومًا. في كل زيارة كان يبحث عني فلا يجدني إلا تحت الجميزة والفتيات حولي. احترقت الجميزة يا موريس، وصُلبت على جذعها أوريليا الغالية.

أطل الشاب الذي يرافقه من فوق كتفه. هذا هو حامل البريد المعتاد؛ دانيل. قال لي:

- سيدتي فيرينا. لقد كنت في طريقي من أوكسيرينخوس إلى هنا حين التقيت بواحدة من نساء القرية، لا أتذكر اسمها للأسف، وكانت هاربة من السيول. قالت لي إن القرية في

خطر، فعدت إلى القائد موريس أخبره، ثم عدت معه.

كان يتحدث في فخر وابتسامته صفراء الأسنان تحتل نصف وجهه الأسفل. هو دانيال، يهودي مهذب يعرف أبي منذ زمن، وقد عمل في عدة وظائف ذات صلة بالمراسلات وتوصيلها بين المعابد الرومانية، لكنه سئم معاملة الكهنة هناك، فانتقل للعمل في توصيل رسائل جنود الفرقة الكيميتية من أوكسيرينخوس إلى قرى الجنوب. وظيفة شاقة، لكنه شاب خفيف الحركة لا ينزل عن حماره إلا فيما ندر، وتلك الوظيفة ناسبت طبيعته المتقلبة التي تحب الترحال، وآلفت بينه وبين دابته حتى صارت علاقتهما مضرب الأمثال.

لا بد أنك تعرف دانيال يا فيكتور، لكني أشك أن موريس قد أخبرك عن ماضيه، فقد كان دائمًا في خلفية الأحداث ولم نكن نعرف أنه سيكون من أبطالها.

دخل موريس ودانيال، وأحطناهما بكلماتنا وابتساماتنا، وللحظات شعرت أنني في بيت أبي، وموريس قد أتى محملًا بالحكايات والنوادر.

راح دانيال يعبث هنا وهناك، بحثًا عن شيء يطعمه لحماره. حكينا لموريس ما حدث، وازداد وجهه غمًّا مع كل كلمة. يجز على أضراسه حين وصلنا إلى ما حدث مع سيدنا بارتلميوس،

فقال:

- كفى. إيزوس هذا خائن، وهو سبب ما حدث لكم. الرومان لا يقتلون أي مسيحي مسالم بلا سبب، لن يرسلوا جنودًا إلى قرية في مجاهل البلاد لتبيدها. هذا الخسيس قد أبلغ عن أسقفنا، وربما زعم أنه يرأس جماعة ثورية هنا من المسيحيين. سوف أرى ما يمكن أن نفعل كي نجده في أقرب وقت.

لم يكن هذا ما انتظره الناس، ربما كانوا يأملون في تفسير آخر يزيد الخطر الخارجي، ويجعل من إنقاذهم أمرًا محتومًا. بدا موريس مُتعجِّلًا بعض الشيء، فصحبني إلى خارج المنزل، وأعطاني وشاحه وكيسًا به مال، ثم قال:

- فيرينا. أريدك أن تأتي إلى أوكسيرينخوس. لا أستطيع أن أترك الفرقة طويلًا. دانيال معكِ، وهو يعرف كيف يوصلك إلى الميناء لتركبي السفينة.

- سفينة؟!

- هذه آمن وأسرع طريقة. لا تخشي شيئًا. في هذا الكيس وثيقة مني ستسهل رحلتك. حافظي عليها يا فيرينا لا يوجد إثبات أنك ابنة عمي سوى ما كتبت هنا. سيغنيكِ هذا عن وثيقة التبخير. لا تقلقي.

- موريس.. هل...

نظر إليَّ متسائلًا، فقلت وأنا أحدق إلى عينيه:

- هل بخَّرت للأوثان؟

اتسعت عيناه كأنه لا يصدق ما أقول، ثم انفجر ضاحكًا -تعرف كيف ينفجر موريس ضاحكًا فجأة- وقال:

- فيرينا.. أنا -ابن عمك وأبوكِ الثاني- أبخِّر للأوثان؟ يبدو أنك مُتعبة.

- كيف تتحرك بثقة وأمان هكذا؟ كيف يثقون في كتيبة كلها من المسيحيين الكيميتيين؟

- هم يعرفون ولاءنا منذ سنوات طوال. لا دخل للدين في حماية الإمبراطورية. هم يثقون بنا، وكل ما يحدث الآن ما هو إلا خوف من القلاقل في القرى والمدن البعيدة عن النظر. هل تتصورين أن يبيدوا شعبًا كاملًا لأنه فقط لا يدين بدينهم؟ بالطبع لا.

- وسيدنا بارتلميوس؟

- هذا أمر لن أبتلع له أي مبرر. حتى لو كان استشهاده بسبب إيزوس، فلن أخفي عليكِ أنهم يضيقون على الأساقفة جميعًا، خاصة الذين يلتف حولهم الناس.

صحبني ورحنا نسير في الطريق المشمس وهو يضيف:

- أعرف ما يدور في خلدك. لكني لو تركت الخدمة في الجيش أنا وكل المسيحيين، من سيدافع عن أرضنا؟ الرومان؟ هل ترضين أن نكون تابعين لهذه الدرجة؟ أثق أن الرب سيأتي بيوم نراهم يغادرون فيه أرضنا، وقتها سنحتاج إلى قوتنا وأسلحتنا.

هززت رأسي وظللت صامتة حتى وصلنا إلى حيث يوقف حصانه.

- ألن تبيتَ معنا؟ لا بد أن الطريق مُرهق للغاية.

- كنت أود ذلك، لكن لن أستطيع. سأصلي لكم، واذكريني في صلواتك.

ركب الحصان، فظللت واقفة في مكاني أرمقه حتى توارى في الغروب. قبضت على الكيس، فوجدته مربوطًا بحبل، فعلقته حول عنقي، ثم عدت إلى منزل إيزوس، حيث الأعين المتسعة تراقبني من خلف النوافذ، تنتظر البشارة التي لن تجيء.

(2)

يكسب لنفسه هوانًا

المساء مجددًا. لا زال هناك الكثير من الأهل يحتاجون إلى مدفن وصلاة. الأرض لا تتسع لكل هؤلاء. المشاعل تطوق المساحة الواسعة أمام الجميزة، حيث دُفن كل من أُحرقوا أو ذبحوا حولها. جفت الدموع من المآقي، ولم يبق إلا الهم الكبير، وإنزال سيدنا بارتلميوس عن العامود الذي قتل عليه مربوطًا رأسًا على عقب.

هزل نفتالي، وغاصت عيناه في محجريهما. لم يستطع مساعدة الرجال في الدفن، لكنه ظل يصلي بصوته الحزين العذب، وهو يجلس فوق التل الذي بُعثثُ من تحته.

هذه أثقل ليلة مرت عليّ في حياتي يا فيكتور. الموت مألوف، وقد يكون مقبولًا حين تودّع أحباءك وهم راقدون على فُرُشهم، باسمين، فرحين بالملكوت. لكن هؤلاء لم تعد لهم وجوه نودعها، ولا أجساد ندفنها. كيف تتحمل أن يكون هذه الذراع هو ما تبقّى من فلان، وهذه العظمة هي ما تبقى من فلانة. شرع دانيوس يبحث في الرماد عن الحُليّ التي تخلّفت من الحرق، حتى وجد شيئًا فسار نحوي وهو يمد يده ويقول:

- صليب أوريليا.

ضممت أصابعي عليه، وانحنيت على نفسي. لم يبق من أهلها أحد، وأنا أقرب الموجودين إليها. نظرت إلى مينريت النائمة ورأسها على حجري، ترتجف من حين إلى آخر وتتشنج. هذه أيضًا لم يبقَ من أهلها أحد. هل آخذها معي إلى أوكسيرينخوس؟ ماذا سيكون مصيرها هنا؟ بالتأكيد ستتزوج ابن أحدهم هنا، لكن إن كانت ابنتي، هل كنت سأرضى أن تتزوج واحدًا من أولئك الخانعين؟

أدركت أنني أراهم أسوأ وأجبن من تبقَّى من القرية، فمسحت وجهي أزيل عنه تلك الأفكار الشريرة. أنا أيضًا نجوت، فمن أنا كي أحكم على الناجين كلهم بالجُبن؟

في الصباح التالي، تناولنا بعض الطعام من مخزون إيزوس، ثم أنزل الرجال سيدنا بارتلميوس، ثم حملوه فوق الأعناق ليُدفن عند الكنيسة. سار نفتالي في نهاية الركب، محنيًّا، مكسورًا. لم نتحدث عن شيء، وكان هو في وادٍ آخر، يرانا ولا يرانا. حين أوجه إليه كلامًا، يهز رأسه ببطء ثم يتركني ويرحل. أسأل نفسي، ماذا حدث وأفقده عقله؟

وأعود وأفكر، هل أتركه هنا؟ من سيعنى به؟ هل له من شفاء؟

هطل المطر علينا في الطريق، لكنه مطر خفيف كأنما السحاب يسير في ركب جنازتنا. قرر باخوميوس أن يرسم لسيدنا صورة على جدار الكنيسة، فأمسك بقطعة من الحجر الجيري يخط بها ملامحه التي رأيناها جميعًا مُجسدة رغم ردائة الرسم.

هذا دفن لا يليق بأسقفنا، لكننا لا نملك شيئًا. سنذكره حتى نموت، ثم سيبلى الرسم على الجدار، ونقش اسمه على الحجر، ويُنسى. كل هذا الألم سيُنسى...

أنا نفسي سأُنسى، ومهما امتدَّ بي العمر لن أفعل قدر ما فعل أسقفنا الحبيب. هل أتينا إلى الحياة لنُنسى؟

يسير نفتالي على غير هدى، يصلي، يغمغم. النار التي أشعلناها لتضيء مراسم الدفن والصاة تنطفئ. يجب أن نعود إلى القرية. سأل سائل:

- ماذا سنفعل يا فيرينا؟

قال قائل:

- لقد جاء ابن عمها، وسيأخذها لتعيش في أوكسيرينخوس. لماذا ستهتم بمصيرنا؟

احمرَّ وجهي، وتمالكت نفسي كي لا أرد عليه، فرددت على

السؤال الموجه لي:

- ستعيدون بناء القرية، وستزرعون أرض أبي.

قال القائل مرة أخرى متهكمًا:

- ألم أقل لكم؟ ستتركنا وترحل. لقد صار موريس رومانيًا خالصًا. ألم تروا ملبسه؟

تشجَّع آخر وانتهز فرصة الظلام فاستتر خلفه وصاح:

- ما حدث لنا كان بسبب معلمك إيزوس. لو لم تحلمي بأن تكوني مثل سكان عواصم الأقاليم وتتعلمي مثلهم، ما جاءنا هذا الرجيم. دم من مات في عنقك.

كأنه يردد ما يعتمل في قلبي وأخشى البوح به. صمتُّ، وتلاقت عيناي وعينا نفتالي. أمسكت بيد مينريت التي فزعت للمستي، وسرنا عائدتين وحدنا إلى القرية، تتشبث مينريت بملابسي وتحدق إلى وجهي كأنها لا تصدق أنها قد أفاقت من نومها على نفس الواقع الأليم. سمعت امرأة تقول من خلفنا:

- اتركوها وشأنها.

- كيف نجت من المحرقة؟ هه؟

- لا بد أن لإيزوس يد في الأمر.

- هي السبب. دعوها ترحل وتتركنا نموت كما مات الآخرين.

- فيرينا، خذينا معك. رأيت موريس يعطيكِ مالًا.

- خذينا إلى أي مكان آخر.

الحِمل ثقيل يا فيكتور، وأنا مُتعبة. كيف أعاتبهم وهم يظنون بي الظنون كلما ادلَهَمَّ الطريق أمامهم؟ من يوبخ مستهزئًا يكسب لنفسه هوانًا.

غدًا أرحل..

(3)

كأبْكمٍ لا يفتح فاه

ودَّعت جسد أمي في قبرها حيث كان منزلنا، ثم جاء دانيال بحماره، تسير خلفهما مينريت التي جمعت كل ما رأته مناسبًا لرحلتنا في صُرَّة قماشية حملتها على رأسها.

الضفة الشرقية للنيل صارت كالغربية؛ الأحباء تحت الأرض، ولم يعد لنا متسع فيها. إن كنا نخاف أن نعبر فيارو إلى أرض الموتى، فاليوم لا خوف.

قال دانيال:

- اركبي يا سيدتي فيرينا، وتبادلي ركوب الحمار أنت ومينريت. أنا سأسير حتى نصل إلى صديق لي يبيع الحمير، فنبتاع حمارًا أو بغلًا آخر.

- شكرًا يا دانيال. ما كان لك أن تتحمل كل هذه المشقة لأجلنا.

حكَّ دانيال شعره وهو يقول في حرج:

- لم أفعل شيئًا، إلى جانب أنني كنت سأتخذ هذا الطريق على أية حال. القائد موريس ساعدني كثيرًا، وكذا والدك.

اركبي.

مد عَضده لأرتكن عليه وأنا أصعد، فقدَّمتُ مينريت الواهنة ذات القدم الجريح، ثم وضع أمامها حِملها، وسرنا خارجين من حدود القرية الواجمة.

قبل أن نترك خلفنا الجميزة، قلت لمينريت:

- أين نفتالي؟

- يختفي لأيام ثم يظهر. هكذا قالوا لي.

قلبي لا يطاوعني على تركه هنا، لكني أعرف مكانًا قد يكون فيه. طلبت من دانيال أن يتجه بنا إلى القناة التي كان يصطاد منها دومًا، بحثنا طويلًا فلم نجده. أعرف أن هذا لا يعني أن مكروهًا قد أصابه؛ هو قد يكون في أي مكان، لكن لا أظنني قادرة على تجاوز القصص ذات النهايات المبتورة. رغم كل شيء، فالموت مهما قسا فهو نهاية لا تحتمل التأويل.

سرت خلف دانيال الذي راح يغني بصوته الحزين الرقيق. أغنية هي عن حبيب متقلب كماء فيارو.

لم يكن تاجر الحمير يبعد كثيرًا عن قريتنا، فاشترى من المال الذي أعطاه له موريس بغلة ضخمة، نستطيع أنا

ومينريت ركوبها معًا، واشترينا طعامًا للرحلة، وردائين لي ولمينريت، لم يناسبنا مقاساهما، لكنهما أفضل من الأسمال التي لا تسترنا.

تناولنا غداءنا عند التاجر الذي أصر على ذلك، ثم أكملنا رحلتنا الطويل الحزينة إلى الجنوب.

(4)

فلا تمنع رأفتك عني

قال دانيال وهو يتوقف عن الغناء فجأة، ما أفزعني ومينريت:

- أجزم أنك لم تزوري ديوسبوليس ماجنا(13) من قبل.

نظرت إليه متسائلة، ثم أدركت أنه يتحدث عن المدينة التي وصلناها الآن. مدينة زيوس الكبرى؛ تاوياس بلغتنا. بالطبع زرتها من قبل، لكني لم أر هذا المكان منها وإن كنت على مقربة منه في رحلتي مع إيزوس منذ سنوات. وعدني الرجل أنه سيُريني المعبد الهائل هناك، لكن رحلتنا انتهت نهايتها المؤسفة قبل أن أرى شيئًا.

أضاف دانيال:

- على الضفة الغربية بر حتحور. المقابر. أركب القارب أحيانًا لأوصل الرسائل إلى هناك.

تسأل مينريت وهي تنظر أمامها متسعة العينين:

- وهذا؟ ما هذا؟!

- معسكر الجيش الروماني.

أجفلت مينريت، فابتسم دانيال مردفًا:

- واحد من عدة معسكرات في البلاد، وعملي الأساسي هو نقل الرسائل بين هذا المعسكر، وذاك في الشمال حيث القائد موريس. الجنود بالداخل كيميتيون مثلنا. لا تخشي شيئًا.

ساد الصمت حتى اقتربنا من المعسكر الكئيب، وسمعت صوتًا أرجف جسدي. أصوات رجولية، ودقَّات معدنية وصليل مدوٍ. قال دانيال وهو يوقف ركوباتنا، ويبحث في جعبته الجلدية عن شيء:

- هذه أصوات طبيعية في الصباح. القوات تتدرب الآن بشكل مكثف قبل إرسالهم إلى الإسكندرية، ومنها إلى روما.

- روما؟

- يبدو أن هناك مشاكل سيورطوننا فيها -نحن الكيميتيون- لا محالة.

- وكتيبة موريس؟

رفع عينيه إليّ وقال مترددًا كأنما ينفي عن نفسه تهمة:

- لا أعرف معلومات دقيقة بالطبع، فلا تظني أنني أتلصص على الرسائل، لكني أسمع كلمات من هنا وهناك.

انقبض قلبي. حرب في روما؟! وسنحارب معهم؟ بالطبع

لم أكن أفكر سوى فيمن تبقى لي من عائلة؛ موريس. تفكير أناني -أعرف هذا- لكني لن أتحمل الآن أية أخبار مؤسفة.

لمح دانيال الهلع في عيناي، فحكَّ رأسه -وهي عادة لديه حين يضطرب- وقال:

- ربما هي مجرد تدريبات لا أكثر. أنا لا أعرف شيئًا محددًا، صدقيني.

سألته مينريت:

- وهل ستتركنا لتوصل الرسائل إلى البر الغربي؟

- كلا. أنا في مهمة خاصة الآن بأمر من القائد موريس. لذا لن أفارقكما حتى أوصلكما إليه.

كرر مرة ثانية وابتسامته المُطمئنة تتسع:

- لا تقلقي.

اقتربنا أكثر، حتى وصلنا سورًا حجريًّا ذا بوابة هائلة، مقوسة عند الأعلى، وفوق السور عند الزاوية حجرات لا أعرف ماذا تطلقون عليها -لا تسخر من جهلي يا فيكتورا!- وبداخلها جنود أو حرس. الوجوه كيميتية تمامًا، أراها كل يوم حين أطل من نافذة منزلنا، لكن هذا الزي الروماني صار يثير بطني، ويجعلني أشعر بدوار مُمرِض.

السور يحجب عنا ما بالداخل، لكنه كذلك يحذرني منه. قلبي يصرخ بي ألا أدخل، ولا أعرف لذلك سببًا. من بالداخل هم أهلي، أليس كذلك؟ مثلك يا فيكتور ومثل موريس وفيليكس؟

تناول الحارس عند السور بردية من دانيال، فتحها وقرأ ما فيها، ثم لفَّها ودخل إلى المعكسر وغاب بالداخل للحظات. لسبب ما كانت مينريت تحدق إلى الباب ذاهلة، ثم حرَّكت عينيها نحو دانيال ونظرت إليه نفس النظرة، فكوَّر أنفه مداعبًا وهو يقول:

- لا تذهلي. أنت لم تري شيئًا بعد.

خرج من البوابة رجل أسمر ضخم، مُتجهم، لحيته خشنة قصيرة. نظر إلى دانيال ولم يقل شيئًا سوى:

- دانيال؟

قال الأخير:

- سيدي القائد إنوسنت. هذه فيرينا، ابنة عم القائد موريس. وهذه قريبتها، مينريت.

أخرجت البردية التي أعطاها لي موريس من الصرة المعلقة من رقبتي داخل ملابسي، فنظر إليها إنوسنت، ثم هز رأسه

دون أن يفتح فمه. أدار ظهره إلينا وتحدث إلى الجنود، ثم تركنا ودخل إلى الحصن. اقترب الحارس منا، وأمسك لجام البغلة وقال:

- تفضلًا.

تقدمنا دانيال، فمنعه الحارس هاتفًا:

- هل معك خطابات أخرى؟

- كلا.

- إذًا، جِد لنفسك مكانًا بالخارج. خطاب القائد موريس لا يتضمن أوامر بمبيتك في المعسكر.

صاح دانيال:

- هما أمانة معي! لن أتركهما وحدهما. أمامنا يومان أو ثلاثة على الأكثر حتى تصل السفينة التي سنستقلها. سأبيت جوار السور، لا مشكلة.

ضحك الحارس وقال:

- أمانة؟ أنت يا دانيال تتحدث عن الأمانة؟

- أجل أتحدث عنها وأؤمن بها.

- المرأة الأخرى التي أحضرتَها في أمان بالداخل، ولم تشتكِ

من شيء. لا داعي لبقائك هنا. تسلَّ بقراءة الخطابات وأنت تشرب الشعير لدى ماركوس. هيا من هنا.

سحب الجندي البغلة، فنظرت خلفي إلى دانيال الذي هتف:

- لا تقلقي يا سيدتي. سأكون بالقرب منكما. القائد إنوسنت رجل شهم.

ظللت أنظر إليه حتى حجبه السور عنا. لا أعرف يا فيكتور سبب خوفي من أن أدير عنقي لأنظر أمامي. ربما أصوات الحناجر الخشنة التي لم أعتدها؟ ربما صليل السيوف والدروع يذكرني بما لا أريد تذكره؟ أنا امرأة لم تعتد سوى صوت خرير الماء وحفيف أوراق الأشجار.

وقع حوافر البغلة يردده الصدى داخل الممر الحجري الذي نقطعه. صوت قرعات صندل الحارس تثير قشعريرتي. الأصوات تقترب أكثر. صدى الصوت مرعب يا فيكتور، والممر لا ينتهي. ننعطف يمينا إلى ممر آخر شاهق الارتفاع. ضوء الشمس في نهايته يطمئنني، لكني لا زالت خائفة. أحدق إلى أذني البغلة وأشرد، حتى تقول مينريت وهي تجذب كمي الواسع:

- فيرينا، انظري.. ما هذا؟

نظرت، فوجدت أمامي ساحة واسعة للغاية، يتوسطها

معبد بتماثيل المعبودات الكيميتية القديمة. لم ترَ مينريت أي من هذا من قبل. قلت لها:

--هذا معبد. سترين مثله كثيرًا في رحلتنا. هذا ما عرفته من... مُعلمي.

قال الجندي:

- هذا هو إبت ريسيت؛ المعبد الكبير. معذرة لو كنت ضايقتكما بما قلت لدانيال. هو شاب لطيف المعشر، لكنه... يمكننا أن نقول إنه فضولي، ولا يمكننا أن نأمن جانب اليهود في المعسكر كما تعرفين. لا تنقصنا المشاكل.

تحفَّظت على ملاحظته الأخيرة بشأن ديانة دانيال، فهو لن يزوِّجه أخته، ولا داعي للحكم عليه بسبب ما يؤمن به، ثم قلت لنفسي: لماذا تحسنين الظن إلى هذا الحد، وقد اكتشفتِ بين أهل قريتك أنفسهم من لا يؤتمن؟

الجديد في هذا المعسكر -ولا بد أنك رأيته من قبل يا فيكتور- أن الحوائط مزينة بنقوش لم أرَ مثلها من قبل. لا تشبه منحوتات القدماء الغائرة في الحوائط، ولا رسوماتهم المُسطحة. الشخصيات المنحوتة رومانية بالكامل، فخمة متعجرفة. المشاهد تُمثل مجالس ما، ربما مجالس الإمبراطور، لا أعرف. وبعضها مشاهد من... معارك؟

تسأل مينريت:

- من هؤلاء؟

يجيب الجندي:

- الأباطرة القدماء. هذا هو القيصر، وهذا...

حجب عقلي صوته عن أذناي؛ لا أريد سماع تلك الأسماء الكريهة مرة أخرى. كيف يتحمل الجنود التدريب بين هذه الحوائط المنقوشة بالظلم والقهر، يطل عليهم هذا الإمبراطور أو ذاك القيصر، يراقبهم وهم يتدربون في جيشه، ودماء أهلهم لم تجف عن يديه بعد؟

- ... المعبد، اتفقنا؟

أفقتُ من خواطري، ولم أتبيَّن ما كان يقول الحارس، لكنني وجدت أمامي سلمًا يؤدي إلى مكان ما. أضاف الرجل:

- اصعدا. هذا مكان مبيتكما. رجاء لا تجوّلا في المكان بلا داع، خاصة أماكن التدريب والمعبد.

أخذ البغلة وابتعد، مع وعد بأن يرسل أحدهم بعد قليل بطعام وماء. وضعت مينريت الصرة فوق رأسها وصعدت خلفي، تتعثر في ثوبها الطويل. دفعت الباب الخشبي، لأرى وراءه حجرة حجرية، تتوسطها منضدة ومصباح زيت،

وبوصات وأوراق بردي. على يسار الباب فراش، وصندوق خشبي، وعلى اليمين أربعة مقاعد خشبية. في مواجهة الباب شرفة تطل على مساحة شاسعة من المعبد القديم، وعند نهايته فيارو العزيز.

وضعت مينريت الصرة على الأرض، ثم هرعت إلى الشرفة الصغيرة تنظر إلى المنظر المهيب بالخارج. الحقيقة لا أنا ولا هي وقفنا في شرفة بهذا الارتفاع من قبل، فأمسكَت كفي وضغطت أنا عليه. سألتني:

- سنركب السفينة من هنا؟

- أعتقد هذا.

- هل ركبتِ سفينة من قبل؟

- كلا.

- نفتالي قال إنه قد ركب قاربًا في...

وضعت مينريت يدها على فمها، ونظرت إلى الأرض في حزن. سمعنا صوت خطوات تصعد الدرج، فالتفتنا نحو الباب متوقعين من يأتي لنا بالطعام. صاحت مينريت وهي تعدو نحو الباب:

- ريجولا!

وقفت أنا مكاني مشدوهة، لا أصدق ما أرى. ريجولا القطة البرية حية! وجدت نفسي أضحك وعيناي تدمعان. اندمجت أجسادنا في عناق ثلاثي، وراحت مينريت تقفز بيننا فرحة.

- كنت أعرف أنك ستجدينني يا فيرينا!

- أين كنت؟!

جلسنا على الفراش تتوسطنا ريجولا التي بدت أكثر نحولًا، وقد فقدت جسدها المشدود القوي. قالت:

- فررتُ بطفلين فقط يوم السيل. غرق الباقون، وكدت أغرق أنا الأخرى. جرفنا الماء على غير هدى إلى خارج القرية، وكانت معجزة أن تشبثنا بشجرة مائلة، واستطعنا الخروج من الماء. لم أكن أعرف الاتجاهات، ولا أعرف مكاني حتى. سرنا حتى الصباح على الطريق، وقد فقدنا الأمل في أن يجدنا أحدهم. ثم رأينا الحمار المميز المصبوغ بالحناء، وعرفنا أنه دانيال قد أرسله الرب لينقذنا.

سألتها:

- أنت المرأة التي قابلها دانيال إذًا!!

- أخبرته بما يجري في القرية. يبدو أنه كان يحمل رد موريس لك على مسألة استئجار الأرض. قلت له إن القرية

تكاد تزول، وعليه أن يعود ليخبر موريس أنكم جميعًا في خطر. أوصلني والطفلين إلى المعسكر، ثم...

قاطعتها مينريت المتحمسة، وراحت تحكي لها كيف وجدنا موريس بعد المذبحة. عقدت ريجولا حاجبيها وسألتنا:

- أي مذبحة؟

كنت أعرف أن لحظة اللقاء السعيدة لن تدوم. لطالما تبعت الأحزان خطواتنا، فتلحقنا إلى أي مخبأ نتوارى فيه ولو للحظات. حكيت لها ما حدث منذ يوم السيل، وكلما سألتني على اسم، قلت لها إنه قد سبقنا إلى السماء. في النهاية، لم أرَ سوى الغضب في عيني ريجولا العسليتين المغرورقتين بالدموع؛ لقد اختفت الأرض التي كانت تُمنِّي نفسها بالعودة إليها. أليس هذا هو الموت يا فيكتور؟ أن تعجز عن العودة إلى ديارك؟

هتفت:

- وهؤلاء الرجال بالأسفل يعرفون أنهم يخدمون جيش من قتل أهلهم؟! موريس يعرف؟ أخي فيليكس يعرف؟

- لقد أخبرتك رد موريس على هذا. أعتقد أن ما حدث معنا كان بسبب إيزوس.

- لطالما حذرتُكِ منه يا فيرينا.

- لا تلوميني يا أختاه. كفاني ما أحمل على كتفي من ذنب.

جلسنا على الفراش، ننظر إلى السماء الزرقاء وفيارو يجري بعيدًا من تحتها. أكاد أسمع حفيف الجميزة فوقنا، لكن دائمًا يشغلني الموت عند الضفة الأخرى.

(5)

فآمنوا بالأعمال

الأرق يا فيكتور.. الأرق...

نامت رفيقتاي بعد عناء، وأنا بعد أصارع السهاد. لم أر فيارو ليلًا من قبل، لكن الظلام مرعب، وأضواء المصابيح القليلة تزيد الأمر سوءًا. ظلال الجنود والحرس تطول وتقصر، تميل وتتمايل. أصوات ضحكات بعيدة. أصوات أخشاب تحترق تثير في نفسي ما تثيره الأعاصير في الرمال.

سرت إلى باب الحجرة الخشبي ففتحته، ونزلت الدرجات. أتعرف يا فيكتور حين تصاب بقرحة في فمك، تضغط عليها بأسنانك، تؤلمك، فتضغط عليها أكثر؟ هذا ما أشعر به الآن وأنا أسير في الظلام بين نقوش القياصرة والأباطرة، البارزة منها والمسطحة. هم رسموا فوق بعض جدران المعبد القديم، وأخذوا منه بعض الأحجار لبناء سور المعسكر. رغم الظلام، أرى الآن التفاصيل. يبدو أنهم لم ينتهوا من التغييرات التي يطمحون إليها بعد، لكني أتساءل لماذا لم يبنوا ما يريدون في أي مكان؟ لماذا يحبون هذا التشويه المقيت؟ المكان لا ينسجم مع بعضه البعض. ثمه شيء يزيد التنافر بين أحجاره

وبعضها، وبينه وبيني، فيكاد كل شيء ينفجر ويتناثر ويصير هباءً.

هذا المكان مسخ، يمسخ من فيه.

هذا المكان يتمدد، ويعبر حواجز الأسوار والمسافات. أم أن الانمساخ بالخارج هو من قهر أسوار المعبد العتيق وأمرضه؟

أعتقد أنني سرت حتى وصلت إلى المعبد؛ المكان الذي تقام فيه طقوس عبادة الأباطرة أو الأوثان أو شيء من هذا القبيل. على عكس الذي رأيته من قبل، فالحجرة الهائلة قذرة. بقايا الأزهار الذابلة من احتفال سابق تفترش الأرض، وتذروها الرياح يمينًا ويسارًا. على مبعدة أرى أربعة تماثيل متلاصقة. ليست تماثيل قديمة، وليست كيميتية بالطبع.

أقترب منها، أدور حولها. الملامح الرومانية تطغى عليها، تختلف تمامًا عن تلك الملامح الهادئة على وجوه الملوك الكيميتيين التي رأيتها عند المدخل الثاني. أيهم دايوقلشيانوس؟ أيهم ماكسيميانوس؟ لماذا لا أرى الدماء على أيديهم، والرماد فوق أكتفاهم؟

أسمع صوت خطوات من خلفي، وأسمع الصوت الرفيع يهتف في حزم:

- لقد حلمتُ بكِ.

التفتُّ فزعة، مصباح الزيت على الحائط خلف من ينادي يخفي ملامحه في الظلال. الهواء يدير أوراق الأزهار الجافة حول أقدامنا في أعاصير صغيرة.

- مَن أنت؟

ضحك ضحكة مبتورة مريرة. تقدم مني بضع خطوات، وتبينت أنه ليس جنديًا. لا جسده جسد جندي، ولا مشيته، ولا ملابسه. أين سمعت هذا الصوت من قبل؟

- نسيتِني؟ ألم ترغبي في مساعدتي حقًّا وقتما التقينا؟

- أنت.. أنت الشاب الذي قابلته مع إيزوس!

- أنا هو.. ولست هو. الأمر محير يا فيرينا. من يكون المرء حقًّا؟ منذ تولدين وحتى تموتي، يتغير جسدك وعقلك وروحك مرات ومرات، كأطوار القمر. فأيهم أنتِ؟ وأيهم أنا؟

أنظر إلى ملامحه التي تغيرت بحلاقته لشعر رأسه. دوائر داكنة تحيط بعينيه، وأسنانه مصفرة بعضها مبقع بالبني. لكنه هو، لا زالت نظرته نظرة شاب يفر بنفسه. صوته رغم حزمه، ما زال رقيقًا يليق بامرأة. سألته:

- ومن أنت الآن؟ كاهن هذا المعبد؟

- بل أكثر يا فيرينا. بالنسبة لهم، أنا كاهن معبد. هذا ما

يرونه ويسمعونه، أما الحقيقة التي ترسخ في أذهانهم وهم غير مدركين هي أنني نصف إله. بل إله كامل. ولمَ لا؟

دار حول التمثال الرباعي وهو يضيف:

- هل الأباطرة المؤلّهون يرون في أحلامهم المستقبل مثلي؟ هل يشفون المرضى مثلي؟ هل حلَّ في جسد أحدهم حعبي(14) مثلي؟

ضيقت عيني وأنا لا أفهم ما يرمي إليه، ولا ما «حعبي» هذا. قال لي وهو يقترب أكثر، وأنا واقعة تحت تأثير كلماته لا أستطيع الحركة:

- فيارو.. حعبي.. الذكر والأنثى معًا. الإلة الأزرق حلَّ بي. هم يريدون إلهًا، أليس كذلك؟ الكل يبحث عن إله.

أريد أن أتحرك، أن أبتعد، لكني مخدَّرة.

- القرابين تحت قدمي أنا. الناس تأتي لطلب معونتي أنا. لا يرى أحد الإمبراطور ولا الآلهة. لا يرون سواي. أؤمن بأن أبي سعيد الآن، يتفاخر بأنه قد أنجب إلهًا.

انفجر يضحك وهو يبتعد عني. هذا الرجل قد جُن. لا أعرف ماذا حدث له بعدما افترقنا، لكنه لم يكن هينًا أبدًا.

- سيدي. أنا أكرر عرضي. لو أنك لا تريد البقاء هنا، فيمكنني

أن...

- تنقذينني؟ لقد أنقذتِني بالفعل حين تركتِ معلمك يكتب شهادته.

- أنا لم أتركه...

- بل تركتِه. نجوتِ بنفسك وتركتِه... وتركتِني. لكنني شاكر لك يا فيرينا، ويسعدني أن أردَّ لك الجَميل.

- لقد دمَّرتُ حياتك.

- تخيلي لو لم أَصِر كاهنًا. كيف كنت سأعيش بجسدي ونفسي هذان ما لم أكن حعبي نفسه؟ هل كنت سأتزوج؟ برجل أم بامرأة؟ هل كان سيحترمني الناس ويوقِّرونني كما يوقِّرون أبي؟ هل كانت ستفخر بي أمي؟ أنا مسخ خارج هذه الأسوار، وإله داخلها.

سألته: ماذا تريد مني؟

فأجاب:

- حلمت بأنك هنا. تحت تماثيل الأباطرة تلك. واحد منهم قام خلفك، يعدو، يريد اللحاق بك. رأيتك تخوضين في الدماء والأشلاء، وهو خلفك. رائحة البخور تزكم أنفي في الحلم. كائنات غريبة تطير في السماء، تمد يدها إليك. ثم

رأيتك تُخرجين مشطًا خشبيًا من صدرك، وتذبحينه به.

- مَن؟ أذبح من؟

- تمثال دايوقلشيانوس.

فرد يديه جانبًا، وراح يدور حولي والتمثال الرباعي، وراح يترنَّم بالكيميتية ما لم أسمعه من قبل.

«الآلهة مجتمعين، والرجال جميعًا معك. لن يؤذيهم الضياء المنبعث من إشراقَتِك، ولن تؤذيهم رحلتك بالمركب السماوي أعلاهم. توقف الأعداء عن أن يكونوا أعداءً، لأنني أنا أصونك يا إلهي رَع! لا تغادرنا نحن الناظرين إليك!»

ثم وضع كفه على كتفي بغتة، وقال هو ينظر إلى القمر فوقنا:

- إيزه(15).. وِرت حكاو(16)!

تملَّصت في ذعر وعدوت مبتعدة. سمعت صوته يعلو ولم أفسر ما يقول. صعدت الدرجات ورحت أنكفئ وأقوم حتى دخلت الحجرة، وأغلقت بابها وأسندته بجسدي. شكرت الرب أن الفتاتين نائمتان بعد. لم أعد أسمع صوت الشاب، يبدو أنه قد صمت. لن أستطيع أن أخبر أحدًا أنني رأيته، لكن... هل حقًا رأيته؟ كيف تنبأ بوجودي؟ لا بد أنني كنت أحلم. يا

للأرق الذي يمزج الأحلام بالواقع!

سمعت صوت خطوات جنود تضرب الأرض الحجرية. هرعت إلى الشرفة لأرى مصابيح تُضاء فتبدد الظلمة. الكُل يتجه إلى القاعة حيث التمثال الرباعي. هل سمعوا صوت الشاب؟ إذًا كان حقيقيًّا؟

أهز ريجولا وأهمس:

- ريجولا، استيقظي.

فتحت عينيها مذعورةً، فربتُّ على كفها وأنا أحكي لها سريعًا ما فعلت. استعرت عينيها كالعادة، فهي تغضب قبل أي شيء آخر، ثم قامت ولفَّت جسدها بالتوجا، ثم أمسكت يدي وقالت:

- لنرَ ماذا يحدث. لا تخبري أحدًا برحلتك الليلية.

أغلقت الباب على مينريت النائمة، متمنية ألا تستيقظ فتجد نفسها وحدها، ونزلنا الدرجات نتبع صوت الجلبة. صوت جنود خشن، وصوت ضحكات رفيعة، وصوت قيء.

اقتربنا، فأمسكت ريجولا بذراعي كي لا أتقدم أكثر، ووقفنا خلف العامود الضخم نشاهد الشاب حوله الجنود، يقيء بلا انقطاع وهو يضحك. حين ابتعد أحد الرجال عنه ليكشف

فرجة في جدار الأجساد، لمحنا أن الفتى عارٍ أطرقنا إلى الأرض، واختبأنا بالكامل خلف العامود. همست ريجولا:

- عقله معتلٌّ تمامًا. سمعت أن هذا قد يكون بسبب السحر.

- المشكلة أنه يعرف اسمي.

- ربما سمعه حين كنت مع إيزوس عند أبيه.

- وكيف عرف أنني هنا؟

- رآكِ. هذا سهل يا فيرينا. هناك معبد، ويبدو أنه قد صار كاهنه. أليس هذا ما كان يخطط له أبوه؟

- صدفة غريبة!

نسمع تعليقات مهينة عن جسد الشاب. البعض يضحك ساخرًا، بينما يضحك الشاب معهم كأن ما يسخرون منه ليس جسده. ثم صمت الجنود إثر وقع خطوات قوية ترج الأرض.

بغتة، صاح واحد منهم في وقار مفاجئ:

- القائد إنوسنت. وجدنا لينوس الكاهن الهارب أخيرًا. يبدو أنه قد فقد عقله.

سأل إنوسنت:

- كيف تسلل إلى هنا؟ هذا هو السؤال. من في وردية

المراقبة؟

تتابعت الأسماء، فأمر القائد باستدعائهم، ثم أمر:

- احبسوه حتى الصباح. يبدو أن الأمر أكبر من كونه كاهنًا هاربًا. كيف التحق بالكهانة وهو.. وهو...

قال الشاب الذي عرفت أن اسمه لينوس:

- وهو إله؟ هه؟ هذا طبيعي أيها القائد. من سواي ومن قبلي لم يكونوا ليليقوا بمنصب كاهن. قل لي، لماذا يجب أن يكون الكاهن رجلًا؟ أو حتى أنثى؟ حعبي حل هذه المشكلة.

- ارتدِ ملابسك، ولا تتحدث أكثر. يبدو أنه مخمور.

- بل أنا الوحيد الذي يرى الحقيقة. حتى اسأل فيرينا!

سقط قلبي بين قدماي وهو ينادي:

- أيتها القمر المضيء، ابنة الشمس! فيرينا! أشرقي علينا من مخبئك، فأخوكِ حعبي يراكِ كما ترينه، وكما ترين أوزير الذي في الشمال.. في الشمال!

أمسكتُ بكف ريجولا ونحن نسمع خطوات إنوسنت تقترب من مخبئنا، فخرجنا قبل أن يجدنا. نظر إلينا وعقد ذراعيه وقال:

- لقد نبَّهت عليكما ألا تجولا في المكان بلا مرافق منا.

قلت:

- سيدي.. معذرة. لقد كنت فقط...

- ستغادرن ثلاثتكن صباحًا. مع خالص احترامي للقائد موريس، لكن هذا المكان تحت مسؤوليتي وحدي، ولن أتحمل تجوال النساء وسط جنودي ليلة أخرى. إلى حجرتكن.

صاحت ريجولا:

- لن نقبل هذا التلميح يا سيدي القائد.

- لا تقبليه إذًا، واحرصي على إبلاغ ما حدث كاملًا للقائد فيليكس؛ أخيك. في الصباح ترحلن.

سحبت ريجولا من ذراعها وسرنا إلى الحجرة، وصوت لينوس يصيح في ذعر غير متوقع وهو يبتعد في الاتجاه المعاكس:

- لقد وعدتِني أن تنقذيني يا فيرينا! لقد وعدتني!

التفتُّ نحوه، فقبضت ريجولا على معصمي وجذبتني هي هذه المرة إلى مخدعنا. لكن صوت لينوس لم يغادر أذني طوال الليل حتى الصباح. لقد خذلته. لو لم أمنع إيزوس من التآمر مع أبيه لما فقد عقله. لو كنت طلبت من مرافقي أن

يتبعه ما هام على وجهه حتى وجده أبوه وأرغمه على تلك الحياة التي يكرهها.

لا أستطيع يا فيكتور أن أمنع نفسي من مراجعة مكاني في حيوات الآخرين. أنا كالصخرة التي يتعثرون فيها، كالحفرة التي تكسر سيقانهم. هل كنتُ قط يدَ عونٍ لأحد؟ أم أن دوري كله هو الإبحار في نهر ستيكس كما في الإلياذة، أنقلهم عبر تيار الماء الوحيد المُفضي إلى الهلاك؟

أنا أكيليس(17) الذي غُمس في نهر ستيكس فصار منيعًا ضد الموت، ولُعن بأن يرى أبدًا المسافرين إلى حيث اللا عودة.

لكنني يا فيكتور إن كنت مثل أكيليس، فعليَّ أن أقاتل حتى يقضي الرب قضاؤه وأرحل مع الراحلين. فقط أصلي أن يقبلني في الملكوت.

(6)

لسنا من ليل ولا ظُلمة

قلت لدانيال ونحن جالسون عند ماركوس -صاحب مكان يشربون فيه الشعير والنبيذ في البلدة- وأنا أجر مقعدي جوار الباب أكثر رغم خلو المكان من مرتاديه:

- وماذا سيكون مصيره؟

سار دانيال نحو مينريت الجالسة فوق ظهر البغلة، ممسكًا بقدح من الشعير، وقال وهو يتأكد أن السرج مربوط:

- مَن؟ لينوس؟ الإعدام قطعًا. المشكلة الكبرى ليست في الفرار، ولو أنها مشكلة كافية.

- أتقصد مسألة أنه.. لا يستوفي شروط الرجولة؟

- هذا شيء. الشيء الأهم هو...

تربَّع دانيال أرضًا أمامي وناولني رغيف خبز وبضع تمرات، وحكَّ رأسه مترددًا وهو يهمس:

- هل لك أن تكتمي السر؟

- لا أعرف. لو أنه لا يسبب أذىً للناس...

- لا يسبب أي أذى. لقد سمعتِ أنني أتلصص على الخطابات، وهذه حقيقة.

اتسعت عيناي، فأضاف:

- لكن ما أعرفه منها لا يخرج خارج عقلي أبدًا، ولا يبرح لساني مهما حدث. أنا فقط أقطع مسافات شاسعة وحيدًا، وأريد أن أعرف ماذا يجري كي آخذ حذري. السبيل الوحيد إلى ذلك هو إلقاء نظرة سريعة على بعض الخطابات.

- لكنها قد تكون أسرارًا مهمة، خاصة تلك المتعلقة بالجيش.

- لا يرسلون معي خطابات بها أسرار مما يُخشى معرفته. أنا أقرأ خطابات الجنود لأهلهم في القرى أو في الفرق الأخرى لا أكثر. وهي كافية كي أعرف ما يعرفه الآخرون.

هززت رأسي والفضول يقتلني كي أعرف بشأن لينوس. سألته مينريت فأراحتني:

- ماذا عن لينوس؟ ماذا فعل؟

- لينوس تولى منصب الكاهن في معبد صغير جنوب ديوسبوليس ماجنا لمدة أربع سنوات، بعدها بدأ يتغير ويمزج نصوصًا قديمة مع النصوص الرومانية الرسمية لطقوس المعبد.

- نصوص قديمة؟

- أجل. نصوص عن آمنِ(18) ورَع وهذه الأرباب الكيميتية العتيقة.

قلت له:

- أنت تعرف الكثير.

- عشت وارتحلت وتعلمت يا سيدتي. وحيد مثلي يجب أن يعرف قدر ما يستطيع كي يحمي ظهره.

- أكمِل.

- عُرِف الأمر، ووصلت المشكلة لوالده الذي أمر بحبسه وتعذيبه كي لا يفضحه، حتى ظهر له أن الفتى قد ثاب لرشده. بعدها أبعده إلى المعبد الكبير داخل المعسكر -ولم يكن قد بُني الحصن حوله بعد- لكنه لم يمكث هناك طويلًا، وظل يهرب ليلًا ويسبح في فيارو بعد أن يطلي جسده بفياروة الزرقاء، ويزعم أنه حعبي. فيارو نفسه.

تذكرت ما قاله عن حعبي، فأغمضت عيناي وقد فقدت شهيتي للطعام. ناولت ما تبقى مني لمينريت، ثم أشرت لدانيال أن يكمل.

- أبلغوا أباه مرة أخرى، وكان هذا هو الإنذار السلمي الأخير،

لكن لينوس هرب، وظل يجوب بين المعابد، يتسلل إليها ويخربها، ثم يختفي. يبدو أنه قد عاد أمس أخيرًا إلى المعبد الكبير بعد أعوام من الفشل في القبض عليه.

جاءت ريجولا مُحملة بمؤونة الرحلة التي سنقطعها إلى كوبتوس مبكرًا لننتظر وصول السفينة التي سنستقلها. ظلّت تغمغم:

- هذا المتغطرس إنوسنت. سأخبر فيليكس بما فعل معنا.

- لا تفعلي يا ريجولا. رجاءً. هو لم يخطئ، وما كان لموريس أن يحمِّله هذا العبء. أنا المخطئة وقد جلبت العقاب عليكم جميعًا.

همَّت ريجولا أن تعترض، لكني قلت لدانيال:

- هل تعرف كيف قد تسلل لينوس إلى المعسكر؟

- لا أعرف تحديدًا، لكن بناء سور المعسكر لم يكتمل بعد. لقد مكث في المكان طويلًا كما تعرفين، وربما شهد بناءه بنفسه. لا بد أن هناك ثغرات.

- ولا يوجد سبيل لمعرفة هذه الثغرات؟ أنت أيضًا تعرف المكان جيدًا، أليس كذلك؟

لعق دانيال شفتيه، فقالت ريجولا وانعكاس الشمس على

عينيها العسليتين المتسعتين جعلهما كجمرتي نار:

- ماذا أفعل بك يا فيرينا؟ لا تقولي إنك تريدين تهريبه! هذا الرجل مخبول! هل تفهمين؟ ربما يكون خطرًا.

- لكنهم سيقتلونه يا ريجولا!

- هذا نصيبه! ما تفكرين فيه قد يؤدي إلى مقتلنا جميعًا! الرومان لا يمزحون، وإنوسنت هذا كان يود لو يحبسنا لولا موريس. أتمنى أن يعاملونا أفضل في المعسكر في كوبتوس.

قال دانيال:

- معي توصية من القائد أنوسنت. عمومًا لا يوجد الكثير من الجنود هناك، لكن.. أفكر في شيء آخر ربما يوفر علينا...

قاطعته ريجولا:

- لا يوجد ما يدعو للتفاؤل، خاصة مع وجود فيرينا.

كانت تمزح، فقد لكزتني في محاولة لتخفيف وطء كلماتها، لكنها ظلت خنجرًا يغوص في صدري. لا أريد أن أؤذهم، لكني بعد أشعر بدماء أهل القرية على قدمي، ولا أريد أن تزيد بدماء لينوس.

بتنا الليلة عند ماركوس، الذي أخلى متجره خصيصًا لنا طيلة اليوم، على أن ننتقل إلى الميناء وننتظر السفينة التي

ستقلنا إلى كوبتوس، حيث سنركب سفينة أخرى أكبر توصلنا إلى أوكسيرينخوس. عند الفجر، قمت، ولم أكن قد نمت كعادتي، لأجد دانيال وماركوس العجوز يتعاونان في تجهيز الحمارين للسفر.

حييتهما، وأشرت لدانيال كي يتبعني، وسألته:

- متى سنتحرك؟

- بعد الشروق بقليل. هذه هي أفضل مواعيد استطعت ترتيبها؛ لا أريد أن نصل إلى كوبتوس مبكرًا فتضطرون للإقامة في المعسكر أكثر من ليلة واحدة. المعسكر ليس بهذا الانضباط الذي رأيتموه هنا. القائد إنوسنت رغم قسوته لكن قبضته القوية وتديُّنه هما ما يسيطران على هؤلاء الجنود الاحتياطيين الذين بلا شاغل.

- دانيال.. سأمنحك كل المال الذي تطلبه حين نصل إلى أوكسيرينخوس، لكن ساعدني كي نُهرِّب لينوس.

اتسعت عيناه، وتراجع بضع خطوات وهو يحك رأسه ويسأل:

- فرضًا أننا نجحنا في ذلك، فماذا ستفعلين به؟

- سنأخذه معنا.

- إلى أين؟ أوكسيرينخوس؟ مستحيل أن يقبل القائد موريس إخفاءه.

- ولماذا نسلمه لموريس بالذات؟ سنطلق سراحه في أي مكان يريد.

- لكنه مختل يا سيدتي.

- وهل يُقتل المختل يا دانيال؟ لو الإعدام عقاب حقًّا لكان الأولى به أبوه. أخي دانيال.. دلّني فقط على المكان الذي أستطيع التسلل منه، ولا ترافقني بعد ذلك. لن أورطك في أي مشاكل. لو لم أعُد، أكمل طريقك مع ريجولا ومينريت.

جلس دانيال أرضًا وأسند رأسه على كفيه هنيهة، ثم التقط حجرًا صغيرًا ورسم شكلًا رباعيًا على الأرض وقال دون أن ينظر إليّ:

- في المنتصف هنا، المعبد الكبير. معبد آمِن. ما يحيط به هو سور المعسكر الحصين. يواجه طرفا المعبد الشمال والجنوب. هذا هو الشمال.

أشار لي في اتجاه ما، فحفظت ما قال. أضاف:

- باقي المعسكر يمتد على جانبي المعبد. شرقًا وغربًا. هذا هو الشرق بالطبع. اتجاه الشمال الشرقي تقع ضفاف فيارو،

وبينه وبين المعبد أربعة أعمدة ضخمة، أعتقد أنك رأيتها.

هززت رأسي إيجابًا. أردف:

- الطريق الموازي للمحور الشمالي الغربي، يؤدي إلى بوابة المعسكر الشمالية، أما الطريق العمودي الآخر هذا فيؤدي إلى المدخل الغربي لقاعة رعمسيس؛ الملك الكيميتي، ومنها إلى حائط المعسكر الغربي المطلة على فيارو. هذه هي القاعة التي قابلتِ فيها الشاب المخبول حسبما وصفتِ.

وضع الحجر فوق قاعة رعمسيس، ثم أشار بأصبعه إلى نقطة عن الحائط الغربي وقال:

- وهذه هي الثغرة التي عبر منها. لا بد أنها في مكان ما عند السور. لو أنه سبح في النهر كعادته، فيمكنه التسلل منها والدخول إلى القاعة دون أن يراه الحرس. أعرف أصدقاء كانوا يعلمون في بناء هذا الحصن، وعرفت منهم بعض التفاصيل، أما تفاصيل المعبد فأنا أذكرها جيدًا من زيارات قديمة إليه وأنا طفل.

قلت له وأنا أنظر حولي أراجع الاتجاهات:

- حسنًا.. وأين تعتقد أنهم قد حبسوه؟

- على الأرجح في واحدة من الحجرات التي أمضيتِ ليلتك

فيها؛ هي حجرات القادة والكهنة. أغلبها خالٍ.

هززتُ رأسي وحدقت إلى الرسم على الرمال. لمح دانيال ظل ماركوس يقترب، فقام ووقف فوق الرسم يمحوه. هتف ماركوس:

- هل أجلب لك طعامًا يا سيدتي؟

أجاب عني دانيال:

- شكرًا أيها الطيب. ستعود هي إلى النوم، وأنا سأوصل خطابًا سريعًا قبل رحيلي.

انتظرنا حتى رحل ماركوس ليجلب الخمور من المخزن، ثم هرعنا إلى المعسكر، أركب أنا على ظهر حمار دانيال، ويهرول هو جواري.

يقول لاهثًا:

- لا مانع من بعض التشتيت للحرس. دعي لي هذا الأمر.

- ألن يشكّل عليك هذا أي خطر؟

- لا تقلقي. أنا دائم الشجار معهم. سأكون عند البوابة الغربية.

قلت له دون تفكير:

- باركك الرب يا دانيال.

ابتسم وأكملنا الطريق القصير، فأنزلني قرب السور، وركب هو الحمار متجهًا إلى البوابة.

ألصقت جسدي بالجدار، وتكوَّرت على نفسي، وزحفت بحثًا عن الفجوة التي يتسلل منها لينوس، ولم تكن سوى حفرة أسفل الجدار، وحجرين مخلخلين يسمحان بمروره، يخفيها بروز في زاوية الجدار لا أعرف ماذا يطلق عليه البنَّائون. أزحت الحجرين، وخلعت التوجا كي لا أتعثَّر بها، وزحفت حتى خرجت من الجهة الأخرى. قاعة رعمسيس أمامي، والضوء الأزرق يخفي عني أي تفاصيل. أسمع صوت دانيال يحمله الهواء إلى مسمعي:

- أؤكد لكم أنها كانت ترتدي قلادة ذهبية، وقد كانت معها حتى وصلت إلى البوابة الشمالية. يجب أن تبحثوا هناك.

علا صوت الحارس يجادله أنه لم يكن هناك أي شيء قرب البوابة، فبادر دانيال باتهامه بالسرقة أو بالتستُّر على السارق. أتسلل في اتجاه الحجرات، فأرى حارسين يجلسان على الدَّرَج. ماذا كنت تتوقعين يا فيرينا؟

صوت لينوس يغني يصل إليَّ من هنا. لا زال يتحدث عن إيزه ونفتيس(19) وأشخاص لا أعرف عنهم شيئًا. ثم فجأة

صاح:

- أنا هنا يا فيرينا!

أجفلت! كيف رآني؟ عدوتُ إلى حيث دخلت، وكدت أفرُّ من المعسكر، حين فطنت إلى أن صوت لينوس لا يأتي من جهة الحجرات. تبعت ترانيمه الغريبة، وتسللت متخفِّية في ظلال ما قبل الشروق.

- هو ذا أوزير الإله!

ظل يكررها، وأنا أقترب حثيثًا من الصوت. كيف جروء على التسلل إلى هذا المعسكر وإلى المعابد الأخرى؟ لا يفعل ذلك إلا مخبول حقًّا، أو مَوْتور يبغي إثارة الحنق بجنونه.

رأيته يجول عند الساحة بين سور المعكسر وردهة أخرى موازية لقاعة رعمسيس، وكان شبه عارٍ قُيِّد بالحبال، فتقلَّص اتساع خطواته، لكنه كان مُصرًّا على التجوال والإنشاد. لم أرَ حوله أي جنود؛ لا بد أنهم قد اطمأنوا إلى أنه لن يهرب، فلا داعي لتضييع الوقت معه.

آلمني أن الجميع يقللون من شأنه، حتى أنهم لم يعبأوا لحبسه كما أمر القائد. كم أن هذا مُهين.

هممت أن أقترب، لكني رأيته يبول واقفًا، فنظرت إلى

الأرض ومكثت مكاني. صاح:

- إنه هو الذي يروي المراعي، هو المخلوق من رَع(20) ليغذي الماشية. ماؤه هو الذي يسقط من السماء...

رغم كل هذه الضوضاء، لم يظهر أحد. انتظرت حتى كف صوت الماء، فرفعت عيناي في حذر لأجده يتمتم وهو يسير في دوائر. اقتربت منه سريعًا وأنا أهمس:

- لينوس..

- أمي؟!

أشرت له أن يقترب مني، فتهلل وجهه وهو يقفز كالضفدع. همست:

- اتبعني.. سأخرجك.

- كيف سأخرج؟ فكي قيدي يا إيزه.. يا أمي..

- اصمت قليلًا.

جثوتُ محاولة أن أفك الحبال الخشنة التي تربط ساقيه ببعضهما، وتربطهما من الخلف إلى رسغيه، ثم إلى عنقه. الحبل قصير يمنعه من الانحناء وإلا اختنق. لا أعرف بداية تلك العقد أو نهايتها، وكلما أمسكت طرفًا ضاق الحبل على رقبته. ليت معي ما أقصه به. كفاي ترتجفان، وهو لا يكف عن

الثرثرة.

- رجاء يا لينوس، صمتًا! سيسمعوننا.

- أمي جاءت تخلصني! كنت أعرف! لم تتخلَّ عني، كما لم تتخلَّ عن أوزيرا!

- لست أمك! تعقَّل!

سمعت خطوات تقترب، ومعها صوت دانيال يتحدث عن ضرورة تفتيش الحجرات أيضًا بحثًا عن القلادة. توتَّر صوته حين سمع لينوس، فقال للجنود:

- ألم تتخلصوا من المجنون بعد؟

- لا أعرف. المشكلة أننا عاجزون عن حبسه في أي مكان، فهو يبول كقربة مقطوعة ويلوث الجدران عمدًا. منعنا عنه الماء ولا نعرف من أين يأتي به.

- هذا مقرف فعلًا.

- عمومًا لن يفر، هو عاجز أصلًا عن الحركة. دعه يروي الأحجار.

اقترح دانيال أن يبحث في الحجرات، فتململ الحارس لكنه لن يجد خلاصًا من دانيال ما لم يطعه.

- هذا هو المكان الأخير الذي ستبحث فيه يا دانيال. لو علم القائد إنوسنت...

- لا تقلق.

صعدوا إلى الحجرات، فقلت للينوس:

- حاول أن تسير إلى المخرج. أنت تعرفه، أليس كذلك؟

هز رأسه وقفز جواري لاهثًا، حتى وصلنا الفتحة، وكانت الشمس قد أنارت جنبات المكان، وراح الجنود يطفئون مصابيح الزيت. الوضع صار خطرًا. المشكلة أنه عاجز عن الانحناء، فكيف أخرجه؟ قلت له:

- سأوسّع الفتحة قليلًا، ثم أساعدك على التمدد على الأرض فأستطيع جذبك خارجًا. المهم أن تصمت.

هز رأسه، متسع العينين، ينظر حوله مراقبًا الممرات. شرعت أصلي وأنا أحاول خلع حجر إضافي: يا رب امنحني القوة.

لا أعرف ماذا يجري عند دانيال الآن. ليته معي. حين انتهيت من إزالة الحجر، طلبت من لينوس ألا يحرك جسده أو يحنيه ويترك ثقله نحوي كي أمدده على الأرض دون أن يختنق.

- أمي.. كنت أعرف أنك ستأتين.

سحبته من أسفل إبطيه نحو الفتحة وأنا ألهث. لم أعتد هذا المجهود، خاصة وقد تقرَّحت كفاي وتكسَّرت أظفاري.

دسست جسدي في الفتحة، ثم استدرت ومددت ذراعي أجذب لينوس الذي همس:

- هم يقتربون يا أمي. سريعًا!

جذبته، كتفاه عريضتان لا تخرجان من الفتحة، فاضررت إلى أن أقلبه على جانبه، وسمعت أنفاسه تختنق أكثر من مرة. لا أستطيع أن أجذبه أكثر؛ انحشر جسده وصارت رأسه خارج السور فقط. كان ينظر إليَّ في وله وتَّرني، ثم اتسعت عيناه وهو ينظر خلفي. صرخت رغمًا عني فإذا بدانيال يقترب مهرولًا ويكرر:

- لقد نجحتِ يا سيدتي!

جثا على ركبتيه جواري، وراح يفتش ملابسه بحثًا عن شيء، بينما الأصوات بالداخل تصيح:

- لينوس! الكاهن يهرب!

صوت الصنادل تقرع الأحجار مقتربةً. أخرج دانيال سكينًا، وبدأ يجز بها الحبل حول رقبة لينوس، وهو يقول:

- اجذبي يا سيدتي.. ادفع الأرض بقدميك يا لينوس.

جذبت، وجذب دانيال، وقبل أن يخرج جسد الشاب بالكامل، شعرنا بمن يجذب من الناحية الأخرى. همس لي دانيال:

- لا أريدهم أن يروكِ. اختبئي.

جذب مني التوجا، وغطى بها وجهه، ثم مد ذراعه يطعن بالسكين الأيدي التي تجذب من الناحية الأخرى. سرعان ما خرج جسد لينوس، فحمله دانيال على كتفه وهو ينظر حوله، وأحد الجنود الضخام يوسع الفتحة كي يعبر منها. قال لينوس:

- فكَّ قدماي!

كانت هذه فكرة أفضل بكثير من حمله. أنزله دانيال مرة أخرى وقص وثاق قدميه، فعدا نحو فيارو وهو يقول لنا:

- اتبعاني. لن يخونكما فيارو أبدًا.

دفعني بجسده إلى النهر، وتبعني وخلفه دانيال. لا أعرف لم تذكرت نفتالي وسباحتنا في ماء الفيضان. هو من علمنا السباحة...

لينوس يسبح كسمك الثعبان، يتجه إلى الأسفل فنحذوا

حذوه. مستحيل أن نثبت مكاننا والتيار يتحرك بهذه السرعة. أصلي ألا يفكر الجنود في أننا قد قفزنا في الماء بدلًا عن الهرب نحو البلدة. لا أستطيع أن أكتم أنفاسي أكثر. أصعد إلى الأعلى. أشهق. أغوص مرة أخرى.

لا أعرف إلى متى سننتظر. يخطر ببالي نهر ستيكس.. أكيليس.. فيارو الذي أعاد لنا أختنا.. حعبي الذي ينظر لي تحت الماء.

أصعد إلى الأعلى فأشهق. دانيال ولينوس جواري. ننظر حولنا فلا نجد أثرًا لجنود. يقول دانيال:

- لا تأمنا السير على الضفة. لنسبح في هذا الاتجاه.

فأطعنا، ورحنا نشق الماء ضد التيار.

(7)

القطيع الصغير

فقد دانيال حماره الأثير، وبه عرف الجنود أنه -دانيال- من هرَّب لينوس، وبالطبع أكد جرمه ادعاءاته عن قلادتي المفقودة.

حين عدنا إلى ماركوس ونحن نقطر ماءً، والناس تراقبنا بأعين متسعة، وجدناه قد طرد مينريت وريجولا، بعد أن عرف أن الجنود يبحثون عن دانيال، فأراد أن يبعد أي صلة له به.

لن أذكر لك يا فيكتور ما فعلته بي ريجولا، فهي ترى -ولديها حق- أنني أعقث سير العدالة. فحتى لو كان لينوس ضحية، فلا يعني هذا أننا نورِّط جنود المعسكر في مشكلة لا ذنب لهم فيها.

لكننا جميعًا صرنا في مركب واحد، نفر نحو كوبتوس على ظهر بغلة، وقد فقد دانيال مكتوب إنوسنت إلى معكسر كوبتوس بعد أن مسح الماء ما خُطّ عليه، إضافة إلى الطامة الكُبرى؛ فقدي -بنفس الطريقة- خطاب موريس الذي كنا سنعبر به نقاط التفتيش على الطرق دون وثيقة. البرديتان صارتا خاويتان بلا فائدة، تمامًا كعقلي.

أنا عاجزة عن التفكير. عاجزة عن النوم. عاجزة عن تهدئة مينريت التي انفجرت تبكي وقد فقدت قدرتها على التحمل أكثر.

قال دانيال:

- لا أظن أن الذهاب إلى المعسكر سيكون آمنًا الآن. ربما يصلهم خبر وجود لينوس معنا، فيلقوا القبض عليّ وعليه.

أعتذر لدانيال مرارًا، فيضحك كأن لم يحدث شيء. يقول إنه كان يعاني الملل، وتلك المغامرة قد جددت حياته. يقول إنه لم يكن يأمن معسكر كِفت(21) فلا شيء من خطته قد فسد.

يقول.. وأعرف أنه مثلي، لم يفطن بعد إلى أبعاد المصيبة.

أما لينوس، فكان يسير معنا وقد خبا وهج الجنون في عينيه، فأمسى مثل فيارو في وقت سكونه داكنًا مثله، غامضًا مثله.

المسافة طويلة، ونحن راجلون، نتبادل ركوب البغلة أنا ومينريت وريجولا، ويسير الرجلان حتى الليل، فنبيت مكاننا حتى الفجر، ثم نكمل المسير. القوارب في فيارو تشترط أن نترك ركوبتنا، والسفن الكبيرة لا تقف إلا في موانئها البعيدة.

الله يدبر أمرنا إذًا.

الصمت يخيم على مسيرتنا. صمت وكآبة لا يقطعها سوى سؤال مينريت عن ماهية ذلك الشيء أو ذاك. قريبًا سنعبر بالقرب من چراچوس مرة أخرى، وستعاودني الخواطر عن العودة، ومحاولة البدء من جديد مع الناس. لكن فيمَ كان رحيلي وعودتي؟ أي درس تعلمته وأي درس تعلموا؟

اقترب مني لينوس وقال:

- لا يعود المسافر أبدًا.

نظرت إليه متسائلة، فأضاف:

- لو عدتِ، لن تكوني أنتِ أنتِ، ولن يكونوا هم هم.

- -ماذا تقصد؟

- مقصد عام يا أمي.

- لماذا تناديني أمي يا لينوس؟

- أنت إيزه، وأنا ابنك حعبي.. ظننتك تذكرينني.

قالها كأنما يؤكد حقيقة واقعة، ثم سار أسرع ليتقدم الرَّكب، وينشد شيئًا عن رحلة إيزه ونفتيس بحثًا عن الأشلاء المقدسة. هذا الشاب قد جُنَّ بأساطير القدماء.

نحاول أن نتحرّى الطرق المقفرة، ودليلنا في هذا دانيال، الذي يحفظ الضفة الشرقية للنهر كظهر يده. نأوي إلى الكهوف أحيانًا، ونبيت في العراء أحيانًا. الجبال الموحشة تظللنا، والشمس تبلي أجسادنا. يوميًا نصلي أنا وريجولا ومينريت للرب كي يبعد عنا قطاع الطرق واللصوص والقتلة. لم يكن في يدنا شيء سوى الصلاة والأمل.

الأرق يا فيكتور يحيلني إلى ظلٍّ للينوس. هو يعيش في أوهام المعبودات القديمة، وأنا أهيم في بحار الأوديسة، وأجابه الوحوش والمخلوقات المرعبة. الكوابيس صارت الحقيقة التي تحيط بي، وعليّ ألا أُظهر أي ضعف أمامهم.

فأصلي..

وأصلي...

تعلَّمتُ أن الصلاة تُنجي دائمًا، لكن ليس بالضرورة أن تُنجي بالطريقة التي نظنها المُثلى. إن كان الطريق الآمن هو مطلبي، فالرب يختار لي الأفضل. طريق الرب هو الطريق الوحيد الذي نسير فيه مستسلمين، أما طريق الحياة فكل منا يحمل خياراته على كتفه، ورحلته مسؤوليته وحده.

أصلي كي أفهم الحكمة من رحلتي.

أصلي ليعينني الرب على معرفة الطريق.

بعد أن عبرنا مدينة كوس(22)، وصارت كوبتوس على مسافة مسيرة نصف يوم أو أقل، رأينا خيولًا تقترب في الاتجاة المعاكس، فهرعنا نبحث عن مخبأ خلف التلات أو في قلب الوِهاد. قال دانيال:

- طريق ليوكوس ليمن إلى كوبتوس يكثر عليه اللصوص وقطاع الطرق. طبيعي أن تنتشر فيه الحراسة. أغلب تلك البضائع تُنقل إلى روما في النهاية.

هززت رأسي وقد فهمت أن الحراسة لمال روما وبضاعة روما لا أكثر. درس آخر أتعلمه. سألته ريجولا في حنق وهي تلف ذراعها حول مينريت التي جف ريقها وأبيضّ وجهها فزعًا وتعبًا:

- إن كنت تعرف هذا من البداية، فلماذا أخذتنا إلى هذا الطريق؟ لماذا لم نعد إلى قريتنا؟ أنت شخص غير مسؤول، ولا أطيق الانتظار حتى نفترق.

نظرت لها بطرف عيني، فحدقت إليّ في تحدٍّ. هل نعود؟ ثم ماذا بعد؟ ماذا سيكون مصير دانيال ولينوس؟ هل أعرف حقًّا مصيرهما لو نجحنا بمعجزة سماوية في الوصول إلى موريس؟ قال لينوس وهو يشير إلى الغرب؛ نحو فيارو:

- لنعد قليلًا إلى الخلف، ثم نعبر النهر إلى الضفة الأخرى.

الجبال ستخفينا. الضفة الغربية هي وجهتك يا فيرينا.. حيث كل ما تخشين، أليس كذلك؟

رمشت غير مستعدة للإجابة. قالت ريجولا:

- وكيف سنركب السفينة وقتها أيها الحاذق؟ أليس مرساها عند الضفة الشرقية فقط؟

- لماذا نركبها؟ بل السؤال، كيف سنركبها؟

قال دانيال وهو يحك رأسه:

- يمكننا أن نغامر ونركبها، فبعض البحارة يعرفونني وسيصدقون أنكم أقارب القائد موريس. لكن المشكلة هي أن نصل إلى الميناء ونعبر الحراسة بأمان. تذكروا؛ ليس معنا وثائق تبخير، ومنظرنا مريب كفاية كي يرتابوا فينا.

صاحت ريجولا:

- وكل هذا لأجل من يا فيرينا؟ لأجل هذا المخبول الوثني الذي غامرتِ بسلامتك لأجل إنقاذه، وها نحن نغامر بحياتنا لأجله. هل يفهم أصلًا خطورة ما فعلتِ؟

- ريجولا! هل نسيت؟ تعلموا فعل الخير. اطلبوا الحق. أنصفوا المظلوم. اقضوا لليتيم. حاموا عن الأرملة.

زفرت ريجولا، وتراجعت مسندة ظهرها إلى الحجارة

خلفها، وظلت تمسد شعر مينريت في عصبية. سأل لينوس:

- ما قولك يا أمي؟

همس دانيال:

- العبور إلى الضفة الأخرى خطة تبدو حكيمة، لكنها تبعدنا عن هدفنا. ماذا سنركب من الضفة الأخرى إلى أوكسيرينخوس؟

أشاح لينوس بوجهه وهو يقول:

- الطرق كثيرة، الوجهات كثيرة، لكن هناك طريق واحد صحيح، طريق رع من الشرق إلى الغرب. وحده هو في السماء من يعرف غايته.

غمغمت ريجولا:

- لو عبرنا النهر في قارب فسنترك البغلة. كيف سنتنقل بعد ذلك؟ ما هذا التخبُّط؟!

- لن يخذلنا النهر.

زفرتُ مرة أخرى، ونظر لي الجميع رغم أنني لم أثبت جدارة في اتخاذ قرار صحيح -أو على الأقل لا يضر- من قبل، فهم ينتظرون قراري أنا، ويحملونني ذنب الفشل مرة أخرى.

- دانيال، هل سنستطيع عبور النهر دون أن يرانا الحرس؟

- لو ركبنا قوارب نقل بضائع بين الضفتين، يمكننا أن نركبها قبل الميناء بقليل، وهذه فرصة كي لا يلاحظنا أحد، خصوصًا لو تفرقنا.

- تفرَّقنا؟

- القوارب تحمل بضائع لسكان الضفة الأخرى يا سيدتي، ولا أظن سيكون هناك متسعًا لركوب خمسة أشخاص في قارب واحد.

قالت ريجولا:

- لكن هذا خطر! لن أركب مع لينوس هذا.

قلت:

- لا بأس. سأركب أنا معه. دانيال، هل يمكن أن تركب مع ريجولا ومينريت؟

- لا أعرف. حسب القوارب والأماكن المتاحة فيها. كم معنا من المال؟

أخرجت ريجولا المال الذي اقترضَته من القائد إنوسنت حين وصلت المعسكر، وأخرجت أنا ما تبقى من المال الذي

أعطانيه موريس. نظر دانيال إلى العملات المزينة برؤوس الأباطرة ثم قال:

- جيد. لا نريد أن ننفق كل ما معنا الآن. سأبحث عمن يرضون نقلنا بأقل أجرة. هناك من يهرِّبون البضائع ليلًا كي يهربوا من الضرائب. الأفضل أن نتحرك الآن لنصل عند الليل.

وتحرَّكنا، متحرِّين السير على المرتفعات حينًا، وفي الوديان حينًا. لم تكن الليلة مقمرة، فاطمأننت شيئًا، لكننا صرنا حذرين أكثر، نلاحظ أي شيء غريب عن المساحات الممتدة المألوفة. وكم كنا -أنا وريجولا ومينريت- مشدوهات إثر رؤيتنا لتلك الأجسام العملاقة التي أخبرنا دانيال أنها صهاريج لجمع ماء الأمطار.

ثم توقفنا جميعًا ننظر إلى الشرق في الظلام، وقد انكشف أمامنا طريق البضائع ونحن نقف على تبة عالية. ما رأيناه لم نكن قد رأينا له مثيلًا من قبل، حتى دانيال وقف معنا متسع العينين، مبتسمًا. كتمت مينريت صرخة مبحوحة وهي تشير إلى الأضواء الغامضة التي تدور في الصحراء. ربي! ما هذا؟!

قال دانيال:

- لم أرتحل من قبل على هذا الطريق العالي. لم يكن هناك داعٍ لتسلق الهضاب. كنت أسمع دائمًا عن أبراج الإشارة التي

وضعها الرومان لهداية القوافل في الطريق إلى كوبتوس من ليوكوس ليمن على البحر شرقًا.

سألت مينريت:

- أي شيء يضيئها هكذا؟

ضحك دانيال، فقلت لها:

- تبدو كمشاعل ومرايا أيتها الصغيرة. لا يوجد ما يخيف.

- دانيال، هل يوجد بهذه الأبراج حراسة؟

- بالطبع. على امتداد الطريق ستجدين أبراجًا للحراسة، وحصونًا لإقامة الحرس والقوافل خلال الرحلة. تعرفين أن سكان القرى يعانون الفاقة، ومنهم من اتجه لقطع الطريق والإغارة على القوافل.

غمغم لينوس شيئًا عن أن أربابهم لن تحميهم، لكن أحدًا لم يعلِّق. وجدنا أن استكمال الطريق فوق التلال لن يكون آمنًا على هذه المسافة بين الأبراج التي أرعبتني رغم أنني يا فيكتور أعرف ما هي. شيء ضايقني في شكلها رباعي الزوايا، وجهامة بنائها. شيء في الحرس الذين يقيمون في الصحراء لحماية القوافل بينما...

وتذكرت سينيكا إذ تحمل قرطاي، وتسير عبر طرقات

القرية، ليقابلها لص يسرق حياتها البريئة. عشت نيفًا وعشرين عامًا في القرية لم أرَ فيها شرطيًا ولا حارسًا إلا عندما يتعلق الأمر بجمع الضرائب أو القبض على الهاربين من الخدمات الإلزامية، وأخيرًا جاؤونا لقتلنا كي يغمضوا العيون التي تطاردهم بالفقر والظلم والقهر.

نزلنا، وأغلب طريق النزول كنا نترك أنفسنا لنهوي حتى القاع. لم يعد في سيقاننا قوة أكبر للسير والصعود والهبوط. كلّت البغلة وتقرّح فخذاها من الخلف من طول المسير وثقل الحمولة. لاحظت أن دانيال يعاني في التعامل معها، لكنه يقضي أغلب الوقت في الحديث إليها والحكي عن حماره الأثير المفقود، وكيف يتمنى لو صارت بديلًا له.

لكنه الآن لم يعد يتحدث إلى البغلة، وقد صار موقنًا أننا سنتخلى عنها قريبًا.

تصرفات صغيرة مثل هذه يا فيكتور تجعلني أؤمن أن نور الرب يسطع من قلوبنا مهما غطاه طين الدنيا وضلالها. أصلي لك كي ترده هو ولينوس إلى التوبة ليخلُص.

ركبت ريجولا ومينريت البغلة، وأبيت أنا أن أركبها أغلب الوقت. ربما هذه هي طريقتي في التكفير عما فعلته بهم، رغم أنني لم أقصد أي سوء. لكنى العُقبى بالنتائج لا بالنيات، أليس كذلك؟

قال دانيال إننا صرنا على مرمى حجر من الميناء، ونقطة التفتيش النهائية التي تعج بجنود الرومان، والحرس الكيميتيين من الخدمة الإلزامية. تاهت مني كلماته وأنا أحدق إلى السفن العملاقة التي تختلف كثيرًا عن السفن التي كنت أراها لمامًا في الجنوب: تزين مقدماتها تماثيل لرؤوس معبودات رومانية مهيبة. لم نتبين في الظلام أكثر من هذا، ومن المراكب الصغيرة المصنوعة من البردي، التي تحوِّم كاليعاسيب على سطح الماء. رأيت رجالًا يرتدون قمصانًا جلدية، أسفلها ملابس قماشية عادية؛ صيادون، مثل نفتالي العزيز.

طلب منا دانيال أن نقف في مكان آمن، حتى يتفق مع مَن سينقلنا. نزلت ريجولا ومينريت من فوق ظهر الحمار، وبدأنا نفك الحبال التي تربط مؤونتنا، ونقسمها لتحمل كل منا بعضها فوق رأسها.

- ألن يحمل هذا شيئًا معنا؟

تقصد ريجولا لينوس، الذي تكوَّر على نفسه وبدأ يميل أمامًا وخلفًا. هذا الشاب في حالة يرثى لها. لم أجب سؤال صديقتي، وشرعنا ننتظر عودة دانيال ونراقب الحركة عند الميناء، وشجار الرجال ومطاردة المهربين.

عاد دانيال إلينا بعد حين، وأخبرنا أنه اتفق على نقلنا على ظهر قوارب من البردي تُستخدم لنقل البضائع من التجار إلى البر الغربي، وسننزل منها لنسير إلى كوساي/ كوس التي تبعد عن كوبتوس -التي نحن فيها الآن- مسيرة يومين تقريبًا.

- من كوساي إلى أوكسيرينخوس مسافة يوم أو يوم ونصف. لقد اقتربنا حقًّا. أبشروا!

لا أعرف من أين يأتي دانيال بكل هذا البِشر. ربما نحن -أهل القرى الذين لم يخرجوا منها- قد ذُهلنا من تتالي الأحداث علينا، نحن الذين لا تتغير أيامنا ولا أعوامنا إلا لمامًا.

سحب دانيال البغلة، وسلَّمها إلى أحد البحارة، وعرفت أن أسمه أمونيوس.

- هذه البغلة ثمنها يفوق أجرة توصيلنا يا صديقي.

- ليس معي ولا معك مال، ولست صديقك. إما أن تدفع لي الدنانير التي طلبتها، أو تعطني البغلة وتنسى أي شيء عن باقي ثمنها.

كان يعرف أننا مضطرون لترك البغلة لا محالة. أومأت لدانيال أن يتركها له، ففعل. قرَّب أمونيوس قاربه المُحمَّل بلفافات جلدية ضخمة نحو الشاطئ ثم مدَّ يده نحوي

يعاونني على الصعود. قرَّبت مينريت مني كي تركب معي، فجذبتها ريجولا نحوها. لفَّت الصغيرة ذراعيها حول خصر ريجولا وهي تخفي نظراتها المذعورة عني.

لا بأس. ربما آمن لها أن تبتعد عني.

ركبت، فدفعني أمونيوس كي أرقد بين اللفائف، ثم ترك لينوس يعبر إلى القارب وحده، ويندس عند الطرف الآخر من القارب وسط البضائع التي تفوح بروائح عطرة لا أميز أيها.

ابتعدنا، ورأيت ريجولا ومينريت تركبان قاربًا آخر، ثم ركب دانيال وحده في قارب ثالث. الماء بارد. خريره يخفي أي صوت آخر. أتكور وأضم ركبتاي إلى صدري. أغض عيناي وأصلي. لا أعرف إن كان ما أسمع هو صوت بكاء مينريت أم لا.

المسافة كبيرة، والقوارب ضئيلة. البوص عند الضفاف يتراقص فيسكنه ألف خيال وخيال. أمونيوس قاسي الملامح، ينظر إلينا كل هنيهة كي يتأكد أننا مخفيين.

يسأله لينوس:

- من سيدك صاحب القوارب؟

يتجاهله. القوارب تسير على مسافات من بعضها البعض.

هذا بكاء مينريت ولا شك.

فجأة، سمعت شيئًا يُلقى في الماء، ومينريت تصرخ صراخًا يقطع نياط القلوب. قمت من مكاني لأرى لفافة من البضائع تطفو على السطح، ومينريت تلطم خديها وتصرخ.

- أريد العودة إلى أمي! أريد العودة إلى أمي! أريد العودة إلى أمي!

المراكبي في القارب الذي تستقله يلطم وجهها، ويدفعها للجلوس مكانها. صوت ريجولا يعلو وهي تدفعه في صدره وتخبئ مينريت خلف ظهرها وتصيح:

- هل جننتَ أيها الحقير!

تفوه الرجل بسُبَّة لن أذكرها، ولطم ريجولا. المراكبي الثالث الذي يحمل دانيال يحاول الاقتراب منه لينقذ الحمولة لا أكثر. أصيح:

- مينريت، حبيبتي.. اهدأي.. نحن معك. هذا فيارو صديقنا، ألا تذكريه؟

تصيح ريجولا:

- اصمتي يا فيرينا! اصمتي! لا أريد سماع صوتك مرة أخرى.

الرجال ينزلون لإنقاذ حزمة البضائع، يقفز لينوس بلا مقدمات، ويختفي تحت الماء. أناديه، فلا يجيب. لحظات، ويظهر بين الرجال، يطوق بذراعه عنق واحد منهم، ويغيب به تحت الماء.

- لينوس!

أمونيوس ينظر حوله في هلع، يحاول أن يفهم شيئًا من هذا الجنون. يصيح، يسُب. مينريت تصرخ. ثم يُسحب المراكبي الذي ضرب صديقتاي إلى الأسفل، ويختفي.

البوص على الضفة الأخرى لم يكن بوصًا عاديًّا، بل هو مخبأ لرجالٍ آخرين لا أعرف من هم. أصيح في دانيال:

- من هؤلاء؟!

- لا أعرف! قراصنة؟!

صوت امرأة خشن مرعب، يصيح من الضفة الغربية:

- البضائع! من معهم؟ من معك يا أمونيوس؟

- سيدتي؟!

تصرخ مينريت، أبصر المُتحدثة التي تعتلي صهوة حصان عند الضفة الأخرى. الظلام يلغي أية تفاصيل.

- معك نساء؟ كَم؟

- ثلاثة. ورجلان.

- أغبياء!

اقترب أمونيوس من القارب الذي يُقل مينريت وريجولا، وسحبه نحوه وأمرهما أن يركبا معي، ثم قال لدنيال:

- اجلب البضائع!

ضممت مينريت إلى صدري، فسكن صراخها، لكنها ظلت ترتجف كأنها ورقة شجر وسط الرياح. الرجال الذين نبتوا من خلف البوص غطسوا، ثم ظهروا، يحملون لينوس ورفيقهم فاقد الوعي، أما المراكبي الثالث فرأيته يزحف عند الضفة وفي يده شيء يلمع.. سكين؟

الشيء الذي يسيل من لينوس هو دم إذًا. لكنه واعٍ، يصرخ ويضحك ويتملص منهم كثعبان الماء.

صاحت المرأة في فخر:

- ماذا كنتم تظنون أيها التعساء؟ أن رجالي صيادون بؤساء غير مُسلحين؟! ومن هذا أيضًا، قرِّبوه مني.

اقتربنا في قارب أمنيوس من الضفة، بينما سبقنا الآخرون ومعهم لينوس. ترجَّلت المرأة التي تبينت ملامحها الخلابة

الخشنة. جلدها الأبيض جاف، تحيط عيناها الخضراوين تجاعيد مُبكرة، فملامحها تشي بأنها لم تتجاوز الخمس وثلاثين عامًا... ربما الأربعين.

جثت على ركبتيها جوار لينوس الذي ثبَّته رجل ضخم إلى الأرض، وأمسكت فكه بين أصابعها، وأدارت وجهه يُمنة ويُسرة. ثم سألته:

- ما اسمك؟

- حعبي.

- من أين؟

- الجنوب.

- ابن مَن أنت؟

أدار عينيه نحوي وضحك وهو يقول:

- ابن هذه. إيزه، أمي. وأبي حور. وجدي الأكبر رَع.

- حور؟ رَع؟

ضحكت ضحكة أقرب إلى نَخرة، ثم قامت واعتلت حصانها وهي تقول:

- مخبول آخر.

وصلنا الضفة، فصعد أمونيوس ليتلقى مينريت التي كانت أوهن من أن تقف على ساقيها، ثم صعدت أنا ودسستها مرة أخرى في صدري، وتبعتنا ريجولا. دانيال والآخرون ينقذون باقي البضائع. سألتني المرأة:

- أنت.. من أنت؟

- أنا.. فيرينا. من چراچوس.

- وهذا ابنك حقًّا؟

- أ.. أجل. وهاتان ابنتاي.

قصدت ريجولا ومينريت. سمعت دانيال يهتف:

- أنا حامل البريد يا سيدتي. دانيال.

وكأنه يظنني سأدّعي أنه أخي أو زوجي. سألت المرأة:

- هاربون، أليس كذلك؟ لا تكذبي. مسيحيون؟

صمتُّ. فأضافت:

- مخابيل. تهربون على مرمى حجر من ميناء يعج بالحرس والجنود. ثم تركبون مع غرباء ليلًا. عمومًا، لستم أول مخابيل نقابلهم. الكل يأتي إلى الموانئ راغبًا في الفرار شمالًا أو غربًا مع قوافل التجارة. لكن إلى أين تفرون؟ ماذا تظنون

أنكم ستجدوا في أي مكان آخر؟ الرومان يفترشون العالم بأسره.

تحرَّكت المرأة بحصانها مبتعدة، وهي تقول لأمونيوس:

- أحضر النساء. ولا تضعهن جميعًا فوق حصان واحد أيها الأخرق. كفانا خسارة. أما المجنون وحامل البريد دعهما يسيران خلفكم.

ركبنا يا فيكتور وتبعتنا المرأة التي كانت تتجه إلى حجرة واسعة مبينة بالطوب اللبن، مخفية بين سيقان الجبال التي كانت أطول بكثير من تلك التي اعتدناها عن ضفة فيارو الشرقية.

منظرها بث الرعب في قلبي. الظلام وصوت الضواري وغموض مصيرنا. تُرى من تكون، وماذا تريد منا! بدأت مينريت ترتجف وتئن وهي تنظر حولها متسعة العينان. ظلت تردد هامسة: «أريد أمي.. أريد أمي». لو أنها حية يا ابنتي لتركتك في حضنها. لو أن أيًّا من أهلك حي لتركتك في أمان القرية مهما كان مستقبلها المُظلم.

مينريت ظلت شجاعة، متماسكة أيامًا طوال، وهي الآن أشجع من أي واحد فينا. أخرجت الصرة الصغيرة المربوطة إلى صدري، وبحث وسط العملات عن شيء بعينه، حتى

وجدته؛ صليب أوريليا المسوَدّ.

مزَّقت قطعة من التوجا المبتلة التي تلف جسدي، وعلَّقت فيها الصليب، ثم لففتها حول عنق مينريت وربطتها من الخلف. قبَّلتها وهمست في أذنها، أطمئنها:

- على الله توكلت فلا أخاف. ماذا يصنع بي الإنسان؟

نظرت لي، ورمشت، فانحدرت دمعة من عينها اليسرى. ضممتها إليّ قليلًا قبل أن نترجَّل، ونتبع المرأة إلى حجرتها الواسعة المفروشة بالحصير والمُتكئات. أخذ أمونيوس الخيول لمربطها، ودخلنا نحن. جلسنا حيث أشارت، بعد أن تربعت هي وحسرت رداءها عن ساقيها الخشنتين كما يفعل الرجال الأفظاظ.

- قولي لي يا فيرينا. ما وجهتك؟ أراهن أنك تقصدين كنيسة العذراء في جبل قُسقام، أليس كذلك؟

لم أرد. تبادلت النظرات أنا وريجولا، ثم نظرنا إلى الأرض.

- لا تخافوا. أنا امرأة مر بها ما لم يمر برجال. لي نظرة في الناس، وأعرف يقينًا أنك لستِ أم أي من هؤلاء. المهم حقًّا ألا تمنحي أمومتك لمن لا يريدها، ولا أقول لمن لا يستحقها. فهمتِ؟

هززت رأسي. أردفت وهي تخرج بردية رفيعة من كيسها:

- تعرفين هذه بالتأكيد. مات زوجي الكيميتي وأنا في الرابعة عشر. كنت من المغضوب عليهن. هيلّينية تتزوج كيميتي؟ جريمة في عرفهم. رجلي كان تاجرًا، وغدر به شركاؤه، فقتلوه. ثم حاول الجميع إقصائي عن مال زوجي وتجارته، ولم يقف معي إلا... قرصان مُسن. يقولون إنه قرصان، لكنه كان تاجرًا، وضاق به الحال حتى اضطر إلى قرصنة سفن من حرموه من تجارته.

قالت ريجولا:

- سفن الرومان؟ أليس كذلك؟ لكنه لا زال لصًّا يا سيدتي، لن يجعله ما فعل معك رجلًا شريفًا.

صمتت المرأة، وحدّقت إلى ريجولا لحظات. ألا تصمتين أبدًا يا ريجولا؟! أعرف أنك مُحقة، لكن ليس هذا وقت الموعظة. المرأة تعرف يقينًا أنه لص، لكنه تحكي لنا ما حدث لا أكثر. عليها أن تُظهر جانبًا من التعاطف حتى. قالت المرأة:

- هل معكم نقود؟ يمكنني أن أوصلكم إلى هناك.

- لأي شيء تريدين النقود؟

- لا أطلب ثمن التوصيلة أيتها الـ.. الأخت. لن يمكنكم

التحرك أكثر نحو الشمال دون وثيقة. هذا ثمن الوثيقة وحراسة من تعتبرينهم لصوصًا، وهم من سيحمون أعراضكن، ولا أقول حيواتكن. فهذه الأخيرة لا تساوي شيئًا عندكن. أعرف نظرة اليأس هذه. أعرفها حتى أنني تخليت عن المرايا كي أحيا.

استأذنتها لأخرج فأتشاور مع رفاقي. أومأت موافقة، ثم اتكأت وخلعت غطاء رأسها، فرأيت شعرها المجهد البني المضفور، يحكي عنها أكثر ما حَكت.

قلت لريجولا التي تلف ذراعها حول كتفي مينريت:

- لننتظر وصول دانيال فنتشاور معه.

- لا داعي. القرار قرارنا. لنرحل إلى الكنيسة ثم يذهب دانيال إلى أوكسيرينخوس ليخبر موريس بمكاننا ويرسل من يحرسنا حتى نصل إليه. مينريت لن تتحمل المزيد.

مينريت متسعة العينان تنظر حولها وجسدها يرتجف. تتشبث بثياب ريجولا تارة، وبثيابي تارة، وبالصليب في عنقها تارة. هي بالفعل لن تتحمل.

جلسنا بالخارج ننتظر دانيال والرجال معه، ولم تدعُنا المرأة إلى الداخل مرة أخرى. لم يمر وقت طويل حتى وصل الرجال، وقد قيدوا دانيال وراحوا يدفعونه أمام الحمير

طيلة الطريق. لمحت بضع جروح في وجهه، وفطنت إلى أنهم قد ضربوه.

نزل أمونيوس من فوق حماره، وجذب الحبل الذي يربط كفي دانيال خلف ظهره. نظر لي وقال:

- ابنك المجنون قتل صديقنا. لن ننسى هذا أبدًا.

دفع دانيال أمامه إلى داخل حجرة سيدته، فهرعنا خلفه. طالب أمونيوس برأس دانيال أو لينوس مقابل ما حدث مع صديقه. نظرت لنا المرأة ونحن واقفات عند المدخل، ورأيتها تتحاشى النظر إلى أمونيوس وهي تقول:

- ادفنوه. كان رجلًا شجاعًا، وهذا موعد رحيله. في الصباح نوصِل هذه السيدة وأبناءها إلى الكنيسة في جبل قُسقام.

همَّ أمونيوس أن يعترض، فأشارت إليه في ضجر أن يرحل ويترك دانيال. ففككت وثاقه وسألته إن كان بخير، فابتسم في وهن كاشفًا عن سن مكسور، وهز رأسه أنه بخير. قلت للمرأة:

- أشكر لك جميلك وعفوك عن لينوس. هو يعاني مشكلة في عقله، ولم يقصد قط أن...

- لا داعي للحديث. رجالي هم سندي، وأنا أخاطر بهم

يوميًا، وأتقبل أن يُقتلوا لسبب أو لآخر. اتركوني قليلًا.

خرجنا، وجلسنا حول لينوس الذي ألقوه كالخرقة جوار البئر بالخارج. أمونيوس والرجال ينظرون إلينا في غِل وهم يحفرون مثوى لصاحبهم.

يضحك لينوس وهو ممد أمامنا، وينظر إليَّ مقلوب الوجه ويقول:

- لا تغفلي عن الانتقام يا أماه. هو الرادع الوحيد لهؤلاء الهمج.

- رجاء يا لينوس، رجاء.. لا تتدخل نيابة عنا في أي شيء.

أغمض عيناه، ونمنا في البرد بالخارج حتى الفجر وقتما أيقظونا كي يرحل الركب إلى جبل قُسقام مقابل ما معي وريجولا من مال. كنت آمل لو استطاعوا أن يوصلنا إلى أوكسيرينخوس، لكنهم لا يدخلون المدن الكبرى أبدًا.لا يوجد مخرج آخر سوى الوثوق بالمرأة، والصلاة لينجينا الرب.

(8)

لم تتركهم في البرية

تقول المرأة إننا في منطقة تدعى سيوط(23)، وبها تقع وجهتنا في كوس؛ جبل قُسقام.

أنظر إلى الأعلى وأرى المغارة التي عاشت فيها العذراء، وعند سفح الجبل أرى أعشابًا جافة محترقة، تطوق المكان كإكليل الشوك حول رأس يسوع.

نادى أمونيوس بصوت جهوري، فأطل علينا بعد لحظات رجل ذو لحية بيضاء. نزل سريعًا إلينا فقالت له المرأة:

- أكرمهم.

هز رأسه، ثم ساعدنا على الترجُّل عن ظهور الحمير. حمل دانيال لينوس الذي كان يفقد وعيه تارة ويستعيده تارة. جبينه حار وجرحه متورِّم. قال الرجل ذو اللحية للمرأة:

- الأعداد تقل، أليس كذلك؟

- تقل.. والجثث تزيد عند الضفة الشرقية. يبدو أنهم قد نقلوا المقابر إلى هناك.

- ليرحمنا الرب. ليرحمنا...

- آمين.

استدارت المرأة وتبعها رجالها، أشارت لي كي أقترب، ثم مالت تقول لي:

- فيرينا.. لو قابلت أي مشكلة، قولي لهم إنك تعرفين فاسيليا. الكل يعرف فاسيليا ويخشاها.

- شكرًا سيدتي فاسيليا.

- لا مزيد من المشاكل يا فيرينا. ولا تدَّعي قرابتك لهؤلاء، ولا لأي شخص آخر. قلبك هو موطن ضعفك، فلا تُعرِّفي أحدًا مكانه.

رحلت فاسيليا، وصعدنا الجبل برفقة خادم الكنيسة؛ لوكاس، إلى المغارة ذات العرض الذي يفوق عمقها بكثير، والتي كان يخفيها السور الحجري العالي عن الأبصار. قال لوكاس:

- هنا عاشت العذراء ويسوع المسيح مئة وخمسة وثمانين يومًا. والآن نحن نفر إليها لتحمينا. هنا يا سيدتي ظهر ملاك الرب ليوسف النجار ليُعلمه بموت هيرودس الملك الذي كان يسعى وراء يسوع، وبشَّره بالعودة إلى دياره. وها نحن في انتظار البشرى.

خلعنا نعالنا المهترئة، ودخلنا إلى حيث المذبح الحجري المستدير. أهمس لنفسي بأننا محميون. نحن في أطهر بقعة على هذه الأرض.

السقف الحجري فوقنا يظللنا. الحوائط محفورة على هيئة أنصاف دوائر، بداخل كل منها مصابيح زيت ورسم للسيدة العذراء تحمل يسوع المسيح. نصلي أنا وريجولا ومينريت. تسألني الأخيرة متى نعود إلى چراچوس. يبدو أنها ليست بخير أبدًا...

بعد أن انتهينا، أخبرنا دانيال بأنه سيرحل في الصباح التالي إلى أوكسيرينخوس ليُخبر موريس بما حدث، وسيُسلم نفسه إليه بصفته هو من هرَّب لينوس.

- لكن يا دانيال، أنت لم...

- فكري فيها يا سيدتي. هم رأوا وجهي وتيقَّنوا من أنني من هرَّبته، ولن تخفف عني الحقيقة في شيء. لا داعي لذكر دورك.

قال إنه قد سئم المتع التي يقتنصها من حياته الطويلة الخالية من أية غاية. يظل يبحث عن الرحلة تلو الأخرى، وينتشي بالتلصُّص على الرسائل والهرب من قطاع الطرق. يهتدي بالنجوم في طريقه، لكنه أبدًا لا يصل.

وقفت أنا وهو نرنو إلى شريط المزروعات الضيق بين الجبل والنهر. قال لي دون أن ينظر إليَّ:

- هل حقًّا مِن وصول؟

- ماذا؟

- هل هناك نهاية للرحلة؟ للتيه الطويل؟

- لا أعرف يا دانيال.. حقًّا لا أعرف.

ورحل دانيال ولم أره من يومها. لعله بخير. لعله قد وصل وارتاح تحت ظل شجرة وارفة، وتنشَّق نسمة تحمل رياح الوطن.

أخذنا لوكاس إلى الحجرات المبنية بالطوب اللَّبِن، حيث يعيش الفارِّين بدينهم في حضن الجبل وأمان الكنيسة الصغيرة. العدد كبير للغاية، أغلبهم من المُسنين والنساء والأطفال. تعارفنا والناس، وتآلفت الأرواح وتشابكت الحكايات، ووُزِّعت المهام. لم يناقش أحد أمر فرج قريب، والجميع قد بدأ حياته الجديدة هنا بلا أمل في العودة إلى الديار.

ومرت أيام، وذهبت للاطمئنان على لينوس الذي كان برفقة سيدة مُسنة للغاية تُدعى راعوث، وقد عرفت منها أنها قد

حضرت حروبًا قديمة وتدربت على تمريض الجرحى والعلاج بالأعشاب. تحسَّن لينوس على يديها، لكن اهتمامها الأكبر كان بمينريت، التي لاحظت راعوث أن جراح روحها أقرب لجراح نفس جُندي شهد أهوال الحرب حتى حُبس فيها للأبد.

سألتني يومًا وهي جالسة جواري تُعلمني غزل النسيج على النَّول الخشبي.

- أنت من چراچوس؟ أتعرفين سيدنا بارتلميوس؟

- بالطبع.

- رأيتِ بعينيكِ ما حدث يوم قتلوه؟ الحكايات تصلنا هنا مع كل وفد من الجنوب.

طلبت منها أن تحكي لي، وحاولت أن أرى ما حكته بعيني العزيز نفتالي. تصلَّبت يداي في الهواء وهي تحكي عن الهيلِّني الذي أطلق أسدًا على الرجل التقي المصلوب، وراح يشاهده ينهش في جسده حيًا. حكت عن الشاب الذي تلقى الطعنات في بسالة وهو يحاول إبعاد الأسد بيديه العاريتين، دون سلاح. حكت عما رآه أهل القرية ليلًا بعد استشهاد أسقفنا، والأنوار السماوية التي ظلت تطارد الأسد في الطرقات حتى انفلق شطرين أمام ناظري الشاب الجريح

الذي ظل يحرس جسد بارتلميوس من الضواري والجوارح.

أسد ورجل هيلِّني؟ أسد في قريتنا؟ من هو إيزوس حقًّا؟ وما الثأر العظيم بينه وبين سيدنا كي يُمثل به بهذه الطريقة؟ ما تحكيه يشبه حكايات القديسين والشهداء الأوائل. أصدق قطعًا تلك الحكايات، لكني لا أستوعب أن أعيش لأسمع إحداها بأذناي.

أي هول رأيته يا نفتالي؟! أي رعب تحمَّلتَه وحدك بعد أن هلع الجميع واختبأوا في البيوت؟!

ثم عادت الأحلام الشريرة تهاجم ليلي، فأصحو فزعة، أبحث عن مينريت وريجولا وأتحسس وجهيهما.. هما بخير.. هما بخير.

مر أسبوعان ولم يأتِ خبر عن دانيال، ولم يصل أحد من الفرقة ليصحبنا. بدأت ريجولا تتململ قليلًا، لكنها انخرطت بالتدريج في حياة النساء هي ومينريت. الحياة شاقة جافة هنا، وعلى كل شخص أن يكسب قوته أو يصنعه أو يزرعه وإلا صار عالة على المجتمع الصغير الذي يحمل فوق طاقته.

صار النول الخشبي هو نافذتي المصمتة على الحياة. أشاهد على صفحته أيام حياتي تُغزل، أصنع منها أغطية للأطفال وملابس للرفاق. هم رفاق يا فيكتور. مجرد رفاق.

لن أبحث عن أهل ولن أطارد حلمًا. سأجلس أمام الخيوط أغزل حتى ألحق بأبي وأمي. هذا هو كل شيء.

جاءتني راعوث العزيزة في يوم، وأشارت لي نحو منبَسط يجلس فيه الناس ويقضون أوقات راحتهم، فرأيت مينريت تجلس على مسافة من شاب لم يجاوز عمر الخامسة عشر، وهو حفيد راعوث. رأيتها لأول مرة منذ دهر تضحك وتغطي شفتيها بكفها. رأيت نظراتها الخجلى وهي تسمع حديث الشاب، فابتسمت.

- فيرينا.. ما قولك أن تزوِّجي ابنتك هذه لحفيدي؟ لن تقف الحياة لأننا فارُّون. سنحيا ونثمر، وسننجب بدل من رحلوا آلافًا يجهرون بعبادة الرب. هذه فتاة قوية حكيمة، وحفيدي شاب جاد تقي.

- لا بأس يا سيدتي.. دعيني أعرض عليها الأمر.

- وابنتك الأكبر، ريجولا.. ألن تتزوج؟ سأختار لها زوجًا صالحًا. أنا أعرف كل الشباب هنا.

- سأسألها يا سيدتي. شكرًا لكرمك.

شعرت بقلبي مثل شفتاي يبتسم. ها أنا أخيرًا أقوم بأمر طبيعي تقوم به النساء؛ أزوِّج بناتي. وجدت نفسي أتخيل كيف سأغزل لهما ملابس عرسهما. كيف سأمشط جدائلهما

بمشطي الخشبي الأثير. كيف سأحمل أبناءهما هنا... فوق الجبل.

أنِسَت نفسي فجأة بالفكرة، كأنها سحابة فاجأت حر أيامي وحالت بيني وبين الاحتراق ألمًا. تسألني راعوث عن عائلتي وأبي الفتاتين -أجل يا فيكتور، لم أستطع سوى أن أخبر الناس أن الفتاتين ولينوس أبنائي- واضطررت أن أخبرها أن الجميع قد ماتوا في أوقات متفرقة سابقة.

رَفَقت راعوث بحالي، ولم تستجوبني أكثر. في المساء دخلت على مينريت وريجولا وعرضت عليهما ما قالته السيدة الطيبة. احمرَّ وجه مينريت وصمتت. لمحت ابتسامة خافتة على شفتيها فعرفت أنها ترضى بالشاب زوجًا لها. أما ريجولا فقالت لي -ولم يكن غضبها مني قد خبا بعد:

- أنا لن أعيش هاربة هنا يا فيرينا. لقد اتفقنا على أنها حياة مؤقتة حتى يأتي من يصحبنا إلى أوكسيرينخوس.

- لم يعُد دانيال، ولم يأتِ أحد.

- لا بد أن يأتي أحد. لن يعتبروننا مفقودين ببساطة وينسون عنا كل شيء. سنتدبر الأمر حتى لو اضطررنا للسير إليهم وحدنا. لن أمكث هنا يا فيرينا، ولا أوافق أن تتزوج مينريت في وضع كهذا! لماذا نضيع عليها فرصة أفضل في

أوكسيرينخوس؟ سيجد لها فيليكس زوجًا من الجنود، وستعيش حياة آمنة. فكري يا فيرينا. لا داعي للعجلة. نحن لم نمضِ هنا سوى أسبوعين.

هززت رأسي؛ لديها حق. وانتظرنا أيامًا أخرى بلا جديد. كنت قد هدأت بالًا على أية حال، وصار نومي أفضل قليلًا. لا زالت الأحلام العجيبة تطاردني، لكنها صارت مجرد أحلام تخيفني حتى استيقظ، ولا تطاردني طوال اليوم.

نمت يومًا، وقد كنت متوعكة قليلًا وقتها. حلمت لأول مرة حلمًا بهيجًا، أحمل فيه أطفال مينريت وينادونني «أمي» بلا انقطاع. يهزونني فأضحك. يدفعونني بأكفهم ويعلو صوتهم وهم يهتفون: «أمي.. أمي استيقظي!» لكني لست نائمة...

أفتح عيناي على اتساعهما فأرى وجه لينوس يحدق في وجهي، وذراعه تهز جسدي وهو يكرر:

- أمي.. استيقظي...

لا أعرف ماذا يعني تعبير وجهه هذا، لكنه مرتاع، غاضب. ماذا حدث؟ لقد كان الجميع يعاملونه برفق على أساس أنه فاقد الأهلية ولا تثريب عليه فيما يفعل.

- ماذا حدث يا لينوس؟ كيف تدخل عليَّ هكذا؟

- مينريت يا أمي!

وألقى على صدري صليب أوريليا.. صليب مينريت الذي تخضِّب الدماء رباطه القماشي.

(9)

لي النقمة والجزاء

لم نجد مينريت في أي مكان.

قال لينوس إنه كان يتعبَّد إلى أبيه رَع -هكذا قال يا فيكتور- قرب سفح الجبل حيث يهيم كل يوم، ثم غلبه النعاس فنام. استيقظ على ركلة في بطنه فتحت جرحها الذي كاد يندمل، ورأى مُهاجمه المُلثَّم وتعرَّف عليه من عينيه وصوته؛ أمونيوس.

ألقى أمونيوس صليب أوريليا -الذي كانت ترتديه مينريت- فضرب وجه لينوس ثم وقع على الأرض. قال له:

- أختك مقابل صديقي. هكذا تتألم حتى نهاية العمر.

لم يستطيع لينوس أن يطارده، وقد راح الدم يتدفق من جرحه مرة أخرى. ظل يصرخ حتى سمعه الرجال بالأعلى، وحين وصلوا إليه، لكن يكن هناك أثر له ولا للفتاة.

ظل الرجال -ومن بينهم الفتى حفيد راعوث- يبحثون في كل مكان، ويحاولون تقفِّي أثر الحمير التي يستقلها رجال فاسيليا، حتى انتهت عند النهر. يقول الرجال إنهم لا بد وقد ركبوا سفينة أكبر، وإلا فكيف سيحملون الحمير على مراكبهم

الصغيرة؟

يقولون... وما الجدوى يا فيكتور؟ ما الجدوى؟ ضاعت مينريت والسبب أنا. عرفوا موطن قلبي وطعنوني فيه، وليتني متُّ. فاسيليا كانت مُحقة، لكن نصيحتها جاءت متأخرة للغاية.

لم أتحمل أن أنظر إلى وجه ريجولا أو أسمع منها كلمة. لزمت الكهف الصغير وجاورت المذبح الحجري أيامًا، لا آكل ولا أشرب ولا أكلم أحدًا.

هنا ينتهي الطريق. هنا ينتهي الألم.

لم يكف لينوس عن زيارتي، والجلوس جواري صامتًا. كان يترنَّم أحيانًا ويذكرني أن الطريق مريع، وأن جمع أشلاء أوزير ليست كافية للثأر من سِت المغتصب.

لم يكن لينوس ينام. فقط يتكوَّم في ركن الكهف بحيث يراني، فيتركه الناس رأفة به وبعقله، وظنًّا منهم أنه ابني ومؤنسي. يحدق إليَّ، ثم يزحف نحوي من حين لآخر ويتمتم بصلواته الغريبة التي كثيرًا ما أجهل معانيها. ثم -للمرة الأولى- يتوسَّد ذراعه جواري وينظر إليَّ فأرى ملامحه مقلوبة وهو يتحدث في وِد:

- كان أبي يحبسني في غرفة الخزين لليالٍ طويلة. كنت...

في العاشرة؟ ربما... حين اكتشفت أنني لا أشبه الصبية جيراني. لم يكن لدي أصدقاء. لكني كنت أحب السباحة في فيارو، وكنت أخجل من السباحة عاريًا كأقراني. وقتما أدركت أنني لست مثلهم، ضربتني الحيرة يا أماه. هل تفهمينني؟

أهز رأسي. يكمل:

- كنت أريد أن أعرف أكثر عن جسدي هذا، ولم أجد من أسأله. رآني أبي يومًا أستكشف نفسي، وهاله ما رآى. أمي كانت تعرف الحقيقة ولم تخبره. ظلت فقط تدفعني أكثر لمصادقة الصبية والمواظبة على حلق رأسي لأن شعري كان يكشف حقيقة ملامحي. أتذكر الظلام في المخزن. الفئران. جرار الجعة. هذا جزء من منزلي، لكن قلبي يقول لي إنني مكروه، منبوذ، منفي في عقر داري. ظل أبي يُخرجني من سجن إلى سجن أكبر يا أماه. صرت أغضب، أغضب على جسدي.. على أبي.. على بيتي.. على شارعي ودنياي وسمائي وأرضي. ثم قرر ذلك الرجل الذي أنجبني أن يحوِّل.. عاري.. إلى منفعة وفخر. لندفع بالذهب كي يصير لينوس كاهن المعبد. ثم.. رأيتك. لا أعرف أين رأيتك من قبل، لكن تلك الملامح الدقيقة والعينين الواسعتين والشعر الأجعد الملفوف حول الرأس في ضفيرة، وغطاء شعرك الذي يخفي

بعض قسماتك. ملابسك غالية نظيفة، ويداكِ خشنتان... أين رأيتك؟ لم أكن أعرف يومها.

وهربت.. هربت وأردت إنهاء حياتي التعسة. وقفت عند ضفاف فيارو وتخيلتني أموت، وأرحل إلى... إلى أين؟

دمعت عيناه وشرع يقهقه، فانخلع قلبي شفقة عليه وهو يقول:

- لا يوجد مفرا تخيلي أن تموتي لتجدي نفسك أمام آلهة كاملة الجسد، خشنة الصوت، تلتهم الخنازير المشوية وتجرع الخمر وتضاجع النساء. أي اختلاف بين العالمين؟ أي اختلاف؟!

لكني هويت إلى قاع النهر. تركت نفسي أنغرس في الطمي، ونظرت إلى أعلى فوجدت يده تمتد إليّ؛ رع. شعاع مضيء يخترق عيناي إلى قلبي مباشرة، وأخبرني أنه ينتظرني، وأنه لن يتركني. أخبرني أنه يقبلني كما أنا، وأقبله كما هو. أخبرني أنني من فيارو أقوم لأصير حعبي الذي يبث الحياة في الأرض البور.

قلت له وأنا أجفف دموعي:

- لكن يا لينوس، لا يوجد آلهة أخرى غير الله، والله يقبلك كما أنت، ويحبك كما أنت، ويسمعك حتى لو لم تتكلم.

- آه.. تتحدثين عن الله ويسوع الناصري. أعرف كل هذا، ولم أسمع من ربكم شيئًا. هل سمعتِ أنتِ؟

تربَّع أمامي ناظرًا إلى عيناي في تحدٍّ. قلت له:

- تكلم الرب إلى ابراهيم النبي مباشرة. تكلم من خلال الأحلام كما حدث مع دانيال النبي. تكلم من خلال كلمته المكتوبة كما فعل مع موسى النبي. تكلم إلينا من خلال أنبيائه يا لينوس، ويتكلم إلينا من خلال الرسائل التي تضعها أمامنا ظروف الحياة. تتوق أرواحنا إلى الكلام معه، وهو يرد علينا أحيانًا من خلال الآخرين، كما أتحدث أنا معك الآن. أليس حديثنا هو رسالة منه لك؟

ابتسم لينوس ابتسامة غريبة، واقترب مني وهو يهمس:

- عندما أسمع صوت الله، كيف أعرف إن كان هو الذي يتحدث إليَّ أم صوت آخر؟ كيف أميز إن كان الله هو من أسمع أم الشيطان، أم أنني فقط أتكلم إلى نفسي؟

- وكيف عرفتَ أن من تحدث إليكَ هو رع؟ ما دلائل وجوده يا لينوس؟

- وما دلائل وجود الله؟ أنت تطلبين منه دومًا أن يهديكِ الطريق، لكن ما تنفكِّين تخطئين طريقك وتضلي، وتُضلي مَن

معكِ. هل يريد الله إضلالك، أم أنه غير موجود، وقراراتك هي قراراتك أنت؟

- دعني أسألك سؤالًا مختلفًا، ما هدف الله من التواصل معنا؟

أسترجع ما تعلمت من سيدنا بارتلميوس، فلطالما كنت أسأل عما يسأل عنه لينوس الآن، وكان يجيبني، فأحبه، وأحب يسوع من محبته له. قال لي يومًا ونحن في الكنيسة الصغيرة في الجبل: «علينا أن نصغي لكي نفهم أيتها الثمرة الطيبة. وعلينا أن نفهم لكي نتطابق مع الحق. الله يتكلم لكي نصير مشابهين ليسوع. يتكلم كي نخبر الآخرين بحقه، فهو لا يهبنا شيئًا كي نحتفظ به لأنفسنا سواء كان مالًا أو بصيرة أو حقًّا».

قلت له ما أعرف وما أؤمن به. ظلت ابتسامته الساخرة على شفتيه، ثم قال وهو ينسحب إلى الركن المظلم:

- ولهذا يتكلم رع. ولهذا أتكلم معكِ.

أدار ظهره لي، وتكوّر على نفسه. دخلت راعوث وتنتحنحت، فاستدرت لها. قالت لي:

- تبدين بخير يا ابنتي.

- نشكر الله. ما أخبار ريجولا؟

- ذهب الرجال إلى السيدة التي يعمل لديها من... أنت تعرفين. لكنهم لم يجدوها؛ هي قطعًا لا تعيش في المكان الذي قابلتكم فيه. لم يستطع أحد أن يبحث أكثر من ذلك، أنت تعرفين أن الطريق خطر، والسؤال عنهم في الميناء قد يؤدي إلى ما لا يحمد عقباه.

- أتفهَّم هذا يا سيدتي. أمونيوس يعرف أننا عاجزون عن مطاردته أو البحث عنه. نحن عاجزون عن فعل أي شيء، لكني أؤمن بما قال الرب: لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء، بل أعطوا مكانًا للغضب، لأنه مكتوب «لي النقمة أنا أجازي» يقول الرب».

أتذكر قاتل سينيكا، وكيف عرفه أبي، وكيف عفا عنه وهو يقول بينما يتمزق قلبه: واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا. يتمزق قلبي مثله الآن وأنا أردد الآية مرارًا أتضرع بها إلى الله. تركتني راعوث لحظات، ثم حجب ضوء الشمس عني ظلان، نظرت خلفي فرأيتها قد عادت ومعها ريجولا.

قمت من جلستي فخذلتني ساقاي ضعفًا. تلقَّتني ذراعي ريجولا وأجلستني على الأرض وجلست جواري، تحيط كتفاي بذراعها. قالت راعوث:

- لا يصح أن تخذلي أمك يا ريجولا. هي حكيمة وقد جعل الله لها بصيرة ترى بها حكمته في الشدائد. لا نملك شيئًا سوى أن نحمل صلباننا على ظهورنا ونتحمل.. تحملي يا ابنتي وأطيعي أمك، فليس لديها سواك وأخيكِ.

تركتنا راعوث. لمحت ريجولا صليب أوريليا يتدلى على صدري، فقبَّلته، ثم قبَّلت جبيني وقالت:

- لن أتركك يا فيرينا. لوهلة شعرت بغضب عجيب، غضب لن يطفئه سوى ري سفح الجبل بدم أمونيوس ومن عاونه. صببت سخطي عليكِ طيلة حياتي بدلًا عن أن أصبه على مَن أرغمنا على قلة الحيلة والهوان. لن أتركك، ولن تتركيني يا فيرينا، اتفقنا؟

هززت رأسي، فأكملت:

- ماذا تريدين أن نفعل؟

- افعلي ما ترينه صحيحًا يا ريجولا، وسأباركه. أنا لن أبرح هذا المكان حتى أموت. سأخدم هنا حتى نهاية أيامي. أنا متعبة يا ريجولا. مُثقلة. مُكبَّلة...

ولم تتركني ريجولا يا فيكتور، وإن كنت تظن أنني تحسنت حين سامحتني، فأنت مخطئ. وإن كنت تظن أن القط البري

داخلها قد هدأ، فأنت أيضًا مخطئ. رفضت ريجولا الزواج، ولازمتني وأعادت لي تدريجيًا شغفي بالتعليم، فبدأت أفكر كيف سأفيد أهل الجبل المبارك. كان هذا حين راح جنون لينوس يتزايد باضطراد، وصار يلاحقني في كل خلوة، يذكرني بمينريت الغالية، ويحكي لي حكايات المسيحيات التي اختطفهن الرومان وباعوهن للبغاء.

- في مرة استأجر أبي راقصات، وكن مسيحيات مثلك، باعهن خاطفهن، وجمع المال من عرض أجسادهن. أتعرفين، أغلبهن كن في عمر مينريت. أنا متأكد أنهم باعوها، فلم قد يقتلونها إن كانت حياتها تساوي ذهبًا؟

- كفى يا لينوس!

- بل كفى أنت يا إيزه.. كفاك خنوعًا. كيف ستعيشين ودم مينريت حول عنقك؟ خائفة أنت من الرومان؟ خائفة من اللصوص؟ وهل حماكِ خوفك من شرهم؟ أنت تستطيعين كتابة وثيقة تبخير بصيغة صحيحة، لقد تعلمتِ من الأفضل، هه؟ يمكننا النزول والبحث عن أمونيوس والسؤال عنه في أي مكان نشاء. أنت خائفة يا أمي وتقنعين نفسك أن الرب هو من اختار لك طريق الهوان والمذلة. أنت لا تنصتين سوى إلى صوتك، هذا لم يكن أبدًا صوت الرب... ألم يقل من قبل: ولي الدم يقتل القاتل حين يصادفه؟

(10)

اغضبوا ولا تخطئوا

أجلس أمام النول أنسج، وأنظر إلى السماء أمامي..

تُرى أين موريس؟ بل أين دانيال؟

سينيكا، وقاتلها. مينريت وخاطفها. ولي الدم يقتل القاتل حين يصادفه...

باب الانتقام ما هو إلا باب للدماء، ولن يتوقف سجال الثأر أبدًا. لكني قلبي محترق يا فيكتور. أنا أتألم، أتعذب، لا يُسمح لي إلا بقبول ما يؤمن به قلبي، لكن عقلي يرفض، يميل نحو لينوس كل الميل بعدما فقدت ريجولا شطرًا من غضبها الذي -رغم كل شيء- كانت خلفيته نابعة من محاولة فهم الحق والعدل، والامتثال لأوامر الرب.

والآن لا يروي سخطي سوى كلمات لينوس.

تأتي ريجولا حاملة بعض قطع الطين لأكتب عليها وتقول:

- أعتقد أن الوقت قد حان لتعلمي الأطفال هنا شيئًا مما كنت تعلميه لنا في الماضي.

كنت أعرف أنها تريد أن تقول شيئًا آخر، فسألتها عن

لينوس، فقالت وقد انفجر في وجهي ما كانت تجاهد لتخفيه:

- لا يكف أبدًا عن إثارة المشاكل يا فيرينا. قلت لك إنه شخص مختل عنيف، والجميع هنا يتحملونه لأجلك، ولأجل راعوث الطيبة. أرى أن نحاول الخلاص منه قريبًا. لا ينقصنا وجوده.

- أين أتخلص منه يا ريجولا؟ الجميع لديه اقتراحات عظيمة، ولا يملك أحد طريقة واحدة لتنفيذها. لو استطعنا إرسال رسالة لموريس، أعدك أن أسلمه له. أنت تعرفين أن أي رسالة منا إليه مع شخص لا نعرفه، قد يكشف مكان اختبائنا جميعًا. لو لديك فكرة أفضل، أخبريني.

صمتت ريجولا لكنها ظلت ممتعضة. قلبي يحدثني أن كارثة ستحدث بسبب لينوس وعدوانيته التي لا تُطوَّع، لكن ماذا سيفعل؟ هل أتركه يبحث عن خاطف مينريت وليقابل مصيره أيًا كان؟ قلبي لن يقبل أن أخدع رجلًا قد فقد عقله، فقط كي أتخلص من خطره المزعوم.

لكن أيام قليلة مرَّت، حتى حاول لينوس ذبحي.

كنت يومها مريضة -وما أكثر عِلَّاتي- راقدة عند المذبح، أهذي بسبب الحمى. جاء لينوس ووضع رأسي على فخذه.

لم أستطع أن أرفعها أو أبتعد عن ملامسته؛ كنت واهنة محمومة لا أفرِّق بين يدي وساقي. قال لي وقد ألصق شفتيه بأذني:

- أمي.. إيزه... أنت مريضة، تغرقين كما غرقت يومًا في ماء النهر، وامتدت لي يد رع لتنقذني. ها هو ابنك يمد يده لينقذك، فتتخلي عن اسمك القديم، وتولدي من جديد.

- لينوس.. اتركني.

رأيت نصلًا لامعًا في يده، سكين دانيال... هل سرقه قبل رحيله؟ جذب رأسي للخلف ومسَّ حلقي بالنصل وهو يهمس:

- الآن يا إيزه يقتلك ابنك، يقطع رأسك، فتقومين من موتك وتُتوَّجي برأس حتحور، سيدة شجرة الجميز...

شجرة الجميز؟ كيف عرفها؟ أنا أهلوس. لينوس ليس هنا، ولا سكين دانيال، ولا شجرة الجميز. فلأنام.. يجب أن أنام.

- هكذا كان يعبدك أهل ديسبوليس ماجنا، معبودة الموتى، أمي حتحور..التي تسمح للأرواح بالغروب من مغرب الشمس. اليوم تتوجين فوق الجبل غرب فيارو.. وغدًا، يأمرك رع بأن تصيري سخمت، وتقتلي البشر الذين استهزؤوا به...

عمَّن يتكلم؟ يلهث لينوس جوار عنقي، يحرك النصل ببطء.

رأسي ثقيل والصداع يعميني. صوت شيء معدني ثقيل سقط أرضًا، وصوت ماء يُسكب. يقول أحدهم:

- لينوس! أيها المخبول!

هذا صوت لوكاس، خادم الكنيسة. السكين يبتعد عن عنقي. لا أستطيع أن أدير رأسي لأرى ما يحدث. الهرج يتزايد، صوت رجال. كفا ريجولا الباردان يوضعان على عنقي وهي تصرخ وتنادي.

المهم يا فيكتور، هل سأصير حتحور سيدة شجرة الجميز، التي تقود الموتى إلى العالم الآخر؟ هل سأصير سخمت وأقتل البشر انتقامًا؟ والأهم، هل سأحارب دايوقلشيانوس بمشطي الخشبي؟!

بالطبع لم يذبحني لينوس، لكنه أحدث في عنقي جرحًا عريضًا احتاج لأيام حتى شفي، ومن رحمة الرب أنني لم أكن واعية كيف مرّت تلك الفترة.

حين استطعت الوقوف على قدمي، اتّكأت على ذراع إحدى الشابات المراهقات وذهبت إلى حيث قيّدوا لينوس داخل خُص من جريد النخل. كان في حالة يرثى لها، وقد انخرط في ابتهالات لرع، علّه يغفر له فشله في تحويلي إلى... لا أتذكر هذه الأسماء حقًا. حين رآني، اندفع نحوي،

فمنعه الحبل الذي يربطه من الوصول إليَّ. كان غاضبًا محتقن الوجه، عروقه النافرة تغطي عنقه وجبهته.

- أنت السبب! لن يرفعني رع إلى جواره! أنت تقاومينه، ترفضينه.. أنت حمقاء!

ثم هوى أرضًا وراح ينهنه.

- أماه.. لا مخرج لي إلا جوار رع.. أرجوكِ، استسلمي لإرادته. هو قد وعدني أنه سيمنحك القدرة على الانتقام من كل من آذى قلبك في أبنائك. أنت الأم، إيزه، وأنت حتحور، وأنت سخمت.

خطوت نحوه، وربّت على ظهره. دموعي تهطل على رأسه فتنزلق وتختلط بدموعه. كيف يكون إنسان بهذه التعاسة؟ كيف يتمكّن الضلال من الروح فيذوِّب الطريق تحت أقدامنا، ويصير هو والهاوية واحد؟ أستطيع أن أرى ما يراه، والظلام يمتد أمامي كما يمتد أمامه.

يا رب ارحم هذا الشقي ورُدَّه للتوبة ليخلص.

جاء لوكاس، خادم الكنيسة، وقال لي إن بيتروس كبير هذه المجموعة من المؤمنين يطلب مني أن أتخذ أنا قرارًا بشأن لينوس.

- لن يمكننا الإبقاء عليه هكذا، وهو ابنك رغم كل شيء، ويسوؤنا أن نطلقه في الصحراء فيؤذى ويؤذي. فكري يا سيدتي، وأرجو أن يضيء لك الرب درب القرار الصائب.

جلست أرتكن على الحائط جوار محبس لينوس وأبكي. ماذا أفعل في هذا البائس؟ نحن عاجزون عن الخروج إلى أي مكان آخر، ولا نعرف إلى متى سنظل هنا. يقول لي قلبي إننا لن نرحل قبل أن يجدنا الرومان ويقتلوننا، وتتكرر مأساة قريتي مرة تلو الأخرى في كل ملجأ نذهب إليه.

أنا آكيليس الذي يتمنى ضربة سيف تقطع عقبه، فيرتاح، لكن الجميع يصوبون إلى القلب ويظنون أنه هو المَقتل الوحيد.

(11)

وأرُدَّك وأقودك

أنتظر أنا وريجولا أيامًا، بعدما اقترحتُ أن أكتب خطابًا بلغتنا إليك يا فيكتور، لا إلى موريس أو فيليكس، خوفًا من أن تكون الخطابات إلى القادة مُراقبة. كتبت فيه:

«من الثمرة الطيبة إلى فيكتور.

هجرنا شجرة الجميز إلى أحضان الجبل الغربي. كلنا هناك. لو سألت ستعرف أننا جميعًا نؤم هذا المكان. نرسل إليك تحياتنا، ونتمنى أن ترسل إلينا تحياتك أقرب وقت».

لم أكتب أي تفاصيل أخرى، ولم أكتب تحيات مسيحية أو وثنية أو أي شيء. ثم لففت البردية الرفيعة داخل رغيف خبز، ووضعته مع بضع سمكات مملحة. أرفقت هذا الطعام برسالة كتبت لك فيها أننا -نحن أهلك- بخير ونعاني فقط ضيق الحال، ونتمنى أن تروق لك أول خَبزة نخبزها في بيتنا الجديد، وأن ينتبه خلال أكل الخبز، فقد يكون القمح المطحون قد اختلط بشيء من الزلط.

حين نزل الرجال للصيد من النهر، أخذوا معهم الهدية والرسالة، وأسلموها مع خطابات أخرى إلى سفينة صغيرة

تتجه إلى الشمال، وأوصوا بتوصيل الخطابات والطعام إلى الفرقة في أوكسيرينخوس.

مألوف أن يتلقَّى الجنود رسائل وطعام من أسرهم. نصلي أن تصل الرسالة إلى يدك يا فيكتور مباشرة، وألا يُعطى الطعام لجنود آخرين. قالت لي ريجولا إن الرسالة العلنية ستثير ريبتك، فالعائلات لا ترسل رسائل بهذا الأسلوب الغريب.

وطفقنا ننتظر. نمضي النهار قرب لينوس الذي رفض الطعام، وأصيب بتشنجات من وقت لآخر جعلت بعض العجائز يظنونه ممسوسًا. ريجولا صارت ترافقه أغلب الوقت، وتتلو عليه من الكتاب المقدس ما تظنه سيخفف عنه. هذا وجه آخر من ريجولا لا تريد إبداءه لكيلا يستضعفها الناس في غياب أخيها فيليكس. هكذا تربَّت ريجولا وهكذا صارت العكاز القاسي المتين الذي أتكئ عليه.

ثم بعد ستة أيام، صعد إلينا طفل ينادينا مُبشرًا بأن هناك جنديًا يسأل عنا. هرعنا إلى السور الضخم الذي يحيط بالكنيسة، فرأينا حصانًا متوسط الحجم، وشابًا يرتدي زيًا عسكريًا يتحدث إلى بيتروس ولوكاس. نادت ريجولا:

- فيكتورا!

التفتَّ إلينا وابتسمت. دمعت عيناي فورًا، وللحظات ظننت أنني أنظر إليك من نافذة منزلنا. نظراتك الخجلى المعتادة تتخفى وراء أخرى صارمة عسكرية. لحيتك وشاربك القصيران يلمعان بالعرق، عيناك كثيفتا الرموش تنظران إلى وجهي في فزع. أعرف أنني قد تغيرت كثيرًا، وأن ملامحي تتوافق تمامًا الآن مع كوني والدة ريجولا ولينوس الذي يكبرني بعام أو اثنين.

كان عمري حين تلاقت عينانا يا فيكتور ستة وعشرين عامًا. قبلها كنت تنظر لي فأشيح أنا بنظري، وأنظر أنا لك وبيننا الحُجب والسواتر. هل تعرف أنني كنت أعلم أنك كنتَ أوّل خُطّابي وقت انشغالي بفكرة التعلم في راكوتيه؟ لم أرفضك لشخصك طبعًا، فلم أكن أعرف عنك سوى أنك الفتى من القرية المجاورة، الذي التحق بالجيش مع موريس.

مددتَ يدك لي بالرسالة التي كانت في رغيف الخبز، وقلت:

- أنتِ من كتبت هذه، أليس كذلك؟ يقول موريس إنك الوحيدة القادرة على التوصُّل إلى خطة كهذه أيتها الثمرة الطيبة.

هززت رأسي في خجل لم أشعر به من قبل تجاه أي إطراء، فأردفت أنت:

- هل تسمحين لي أن أحتفظ بالرسالة؟

لم أرُد، وإن ظهر من احمرار وجهي أنني لا أمانع. ربي.. ألا زال قلبي قادرًا على أن ينبض بغير الأسى؟ أضفت أنت:

- اجمعوا حاجيَّاتكما ولنشكر هؤلاء الذين استضافوكما وحافظوا عليكما.

قالت ريجولا:

- هناك بعض الأمور التي نود توضيحها قبل أي شيء. لتجلس هنا بعيدًا عن الناس.

حكت لك ريجولا ملخصًا لما حدث في الطريق، وحكت لك عن لينوس وما فعلنا معه وما فعل بنا. بين الفينة والفينة، كنت تنظر لي يا فيكتور كأنما تتأكد أن هذه الجالسة أمامك بهذا الخرق وانعدام المسؤولية. انقبض قلبي، واستعددت للوم، وفكرت في استعادة رسالتي التي طلبت الاحتفاظ بها معك.

لا بأس. أنا أذنبت كثيرًا، ولا تحقُّ لي راحة القلب أو البدن.

صعدنا معك إلى حيث محبس لينوس، وكان الأخير كان صار عظامًا داخل صُرة جلدية. قلت أنت:

- لا أظنه سيكمل رحلته إلى أوكسيرينخوس، لكن لأجلك يا

فيرينا، سنأخذه معنا، وإن وصل حيًّا، سأتحدث مع فيكتور بشأنه وأرجو منه التوسُّط للعفو عنه ومحاولة علاجه. هل أنت راضية الآن؟

- ومينريت؟

- لن نكف عن البحث عنها، ومعرفة مصيرها. هذه ابنتنا جميعًا.

كنت تبتسم مُطمئنًّا، وكنت أنا واجمة. هززت رأسي، وفككت وثاق لينوس، فحمله الشباب إلى العربة التي يجرها الخيل، والتي كانت تنظرنا عند سفح الجبل. ودَّعت النساء وظللت في حضن راعوث كثيرًا، وتمنيت لو أصحبها معي. تمنيت لو أصطحب كل هؤلاء الأعزاء معي، لكني يا فيكتور كففت عن محاولة إنقاذ الجميع. أنا بالكاد أحيا مُثقلة بذنب من رحلوا.

الطريق لم يكن طويلًا، فقد قطعنا المسافة بين الجبل وأوكسيرنخوس في أقل من نصف يوم، خلالها لم نتوقف، ولم نتبادل الحديث أنا وريجولا التي شغلتها المناظر الخلابة عند ضفاف فيارو. أما لينوس، فقد سألني مرة حين فتح عينيه:

- إلى أين؟

- إلى أوكسيرنخوس.

- بر مجدت.. مدينة اللقاء.

ثم أغمض عينيه فلم أفهم ماذا يريد قوله. وصلنا قرب الليل، وتبدَّت أمامنا أسوار المدينة الهائلة ذت الأبراج والشرفات. عبرنا البوابة دون لحظة توقف، ووجدت ريجولا تُخرج رأسها وكتفيها من بين فرجات ستائر العربة. مددت عنقي أنظر في فضول إلى ما استرعى انتباهها.

اتسعت عيناي وأنا أرى المنازل الصغيرة والكبيرة، والساحات والأشجار ومبانٍ أخرى لم أعرف كُنهها، ثم نظرت إلى ما تنظر إليه ريجولا؛ معبد روماني مفتوح، حوائطه منقوشة بالصلبان ورسوم القديسين التي حاول أحدهم طمسها وإحراق أجزاء منها.

اخترقنا شوارع المدينة المعبَّدة بالأحجار، وظللنا ندير رأسينا في كل اتجاه، في محاولة لاستيعاب كل هذه التفاصيل البراقة. الحال هنا أفضل بكثير من الجنوب، بل من تاوياس نفسها، لكن الكنائس هنا أكثر، والتدمير الذي حدث فيها واضح فَج. لا أعرف كيف يعيش الناس هنا، لكن يبدو أن الجميع بخير... أو هذا ما أرجو.

وعند نهاية سور المدينة الأبعد، دخلنا معكسر الجيش،

فأمسكت كف ريجولا دون أن أفهم سر خوفي. لا أريد أن أرى وجوه الأباطرة وأردية الجنود مرة أخرى. ربي، اجعل زيارتنا سريعة فلن نحتمل المبيت هنا ليلة واحدة.

نزلنا من العربة، لنجد فيليكس أخا ريجولا يسير نحونا بخطا سريعة، ويفرد ذراعيه ليستقبل أخته التي أجهشت بالبكاء وتشبثت بملابسه. ظل يربت عليها ويقبل رأسها وهو يرحب بي، وينظر في ريبة إلى لينوس في العربة. حدَّثه فيكتور همسًا، ثم طلب من جندي أن ينقل لينوس إلى حجرة آمنة ويراقبه.

قال فيليكس بصوته الخشن العميق:

- فيرينا! أختاه.. مضى وقت طويل منذ التقينا. لا تحملي هم أي شيء. القائد موريس في مهمة عاجلة، وسيعود في الصباح بمشيئة الرب.

نقلنا فيليكس إلى حجرة صغيرة وأمر لنا بماء للاستحمام وأردية جديدة. يبدو أنهم كانوا مستعدين لوصولنا. جلسنا نأكل، فرأيت ريجولا تنظر إلى السمك الغريب ذي الخطم الملوي وتضحك، ثم تُخليه من الشوك وتضعه جانبًا. حين سألتها عمَّ تفعل، قالت لي إن أحدًا لن يعبأ بتقطيع السمك للينوس. قبل أن نأكل، ذهبنا إليه في محبسه، وأطعمناه. سألنا وهو بين اليقظة والنوم:

- لماذا تفعلان هذا؟ أنت بالذات يا ريجولا، لماذا تفعلين هذا معي؟ أنت لا تؤمنين بي.

- أؤمن بالرب الذي خلقنا، وأرسلنا في طريقك لسبب يعلمه هو.

بعدما تناولنا الطعام، أرسلنا فيلكيس إلى سيدة مُسنة تسكن بالقرب من المعسكر، وهي تتولى شراء الطعام من الفلاحات لتجهيزه للكتيبة، وما تفعل لم يكن بصفة رسمية، بل محبة منها للرجال خلف الأسوار، الذين يشبهون جميعًا ابنها الشهيد نيكولاس.

بتنا في منزلها الصغير الدافئ، ولم تبرح سينيكا أحلامي يا فيكتور. صحوت معتلة الجسد والمزاج، فطلبت منا مضيفتنا أن نسير معها إلى حيث الصيادين الذين يصطادون من فيارو، وكانت قد رأت الكرب على ملامحي.

قالت لي مُصححة:

- هذا ليس فيارو، إنما فرع منه. لا يفيض ولا يجرف ما أمامه. هذا نهرنا المُستأنس يا ابنتي.

وأحببت الجلوس أمام هذا الماء الوادع الرقراق، أفكر في سينيكا، وفي مينريت. حين وصل موريس، أخبروه بأنني

وريجولا جالستان تحت ظلال الأشجار هنا، فجاءنا متهلل الوجه، لكني لمحت همًّا تحت ملامحه حين جلس جوارنا وحاول التملص من إجابة سؤالي.

- ماذا سنفعل؟ أين سنقيم هنا؟

- أرجئي هذا الأمر الآن. هناك مكان سترغبين في زيارته، وسيغير هذا الوجوم على وجهيكما.

اصطحبنا بنفسه في عربة أكثر فخامة من تلك التي أتينا بها، ولم تحتج رحلتنا إلا وقتًا قصيرًا للغاية، حتى وصلنا إلى ساحة مخضرة تتوسطها شجرة مائلة جوارها بئر صغيرة. تعرَّفتها على الفور، فقد حكى لنا موريس عنها كثيرًا، وعن معجزات ماء البئر في شفاء الأمراض وعن بركة الشجرة التي استظلت تحتها العذراء مريم البتول.

شربنا من البئر حتى ارتوينا، وتركنا موريس نصلي للرب ونتطهَّر من حملنا. ركبتي اليسرى تلامس ركبة ريجولا اليمنى إذ ركعنا تحت الشجرة، نشعر بحركة السيدة العذراء حولنا، ونكاد نسمع بكاء يسوع، ورفرفة أجنحة الملائكة.

سألت ريجولا:

- ما الذي تغيَّر فيكِ يا ابنتي؟

- أنت.. إيمانك.. أمومتك.. لطالما كنت أعتبر كلام الآخرين مجرد نصائح جوفاء، يحاولون الاختباء خلفها من فشلهم. أما أنت... أنت لم تدَّعي لحظة أنك عظيمة، لم تحاولي شيئًا لا تؤمنين به ولا ينبع من قلبك. أنت أحببتنا جميعًا، الصالح كالطالح. أجاد أجزم أنك قد غفرتِ ما فعله الرومان في أهلك.. أنت غير قادرة على الكره يا فيرينا.. أنت محبة خالصة تفيض فتغرقنا رغمًا عنا.

- أنا لم أغفر للرومان... أتعرفين؟ أنا لم أحلم بأمي أبدًا منذ رحيلها. هناك ركن في نفسي لا أقوى على النظر إليه مباشرة، فتشغلني أحلامي عنه، وتفزعني من ذكريات أستطيع تحملها. في هذا الركن يا ريجولا يقبع السخط والكره والإدانة. لسنا قديسين يا ابنتي، وكل ما نستطيع عمله هو الاستعانة بقوة الرب على ظلام النفس.

أتعرف يا فيكتور؟ لقد أطلَّ إيزوس على هذا الركن، وراح ينكز الوحوش الساكنة فيه. أزعجت صرخات لينوس المجنونة الأفاعي الغاضبة في عتمة نفسي. هذا صراع آخر يجب أن أخوضه يوميًا. الشيطان هناك، ينتظر أن تتلاقى عينانا، وأنا خائفة يا فيكتور. خائفة من نفسي. خائفة من الطريق. خائفة من التيه ومن الضلال واليأس.

التفتُّ لموريس، وناديته، فاقترب مني. قلت له:

- موريس، ابن عمي العزيز. هل ترى فيَّ فيرينا القديمة العفيَّة؟ لقد ضربت الأوجاع جسدي، ووهنت عظامي. هل لك أن تساعدني في الالتحاق بخدمة أي كنيسة هنا؟ رجاء يا موريس، هذا منتهى أملي.

- لكني لا زلت أرى فيرينا. ألا ترينها يا ريجولا؟ كلنا نراها، وحين وهن جسدك أشرقت روحك بنعمة الروح القدس أيتها الثمرة الطيبة. لك ما تريدين وتختارين، فأنت ابنتي التي لم أنجبها.

قالت ريجولا:

- لا تتركينا يا فيرينا. أخبرها يا موريس أن هنا كتبًا ومخطوطات من التي كانت تحبها وهي صغيرة. يمكنك يا فيرينا أن تصيري.. طبيبة! أو معلمة! كل هذا خدمة للكنيسة، لكن لا تختبئي ولا تخافي ولا تحجبي عنك الشمس فتذبلي.

صمتُّ، فقد كنت أكثر إرهاقًا من مجادلتهما. سألت عن دانيال، فقال فيكتور إنه لم يصل إليهم قط، ويبدو أنه مفقود في مكان ما في الطريق. وعدني أن يرسل من يبحث عنه ويبحث عن مينريت أو يعرف مصيرهما. ها أنا ذا مرة أخرى أنتقل من التركيز على نفسي إلى حمل هَم الناس. لا يوجد راحة لي في العُزلة.

بعدما عُدنا إلى المدينة، انفرد بي موريس للحظات، وسألني:

- ابنتي.. هل توافقين على فيكتور زوجًا لك؟

- ماذا؟!

- فيكتور.. طلب مني أن أزوِّجك له، وهذه هي المرة الثانية التي يطلب فيها هذا الطلب. أعرف أن الوقت غير مناسب، لكن لطالما رغب فيكتور في أن تكوني والدة أطفاله، وحارسة بيته. ظل يُرجئ طلبه هذا سنوات حتى يتحسن وضعه ويستطيع أن يوفر لك حياة آمنة في أوكسيرنخوس أو فيلادلفيا أو حتى في راكوتيه. لطالما كنتِ حلمه الغالي، ولم يشأ قَط أن يثقلك بزواج لا تُقدَّرين في حق قدرك.

- وما الذي استجدَّ ليطلب يدي مرة أخرى؟

نظر فيكتور إلى السماء الزرقاء خلفي، وقال:

- سأخبرك بكل شيء، لكن يجب أن أعود إلى المعسكر. فيرينا، هل تقلبين الزواج من فيكتور؟

أطرقت برأسي، فهذا آخر ما توقعت أن أسمع. هل أتزوج؟ هل أنجب الأطفال وأعلمهم وأزوجهم وأحمل أحفادهم؟ هل يمكن لمثلي أن ينسى كل الهول الذي خضته وينطلق في

حياة كحياة الآخرين؟

تركني موريس لنفسي وتفكيري، فجلست أمام الماء وقررت أن أكتب لك. هل يعني هذا أنني قد قبلت خطبتك؟ أجل.. لقد قبلت. هل أرفض النور لأنه يؤلم عيناي؟ أنت من أرسله الله لي لينير حياتي بعدما أيقنت أن لا خلاص.

أنت شراع مركبي، من دونك سأظل في مكاني وسط الماء الهائج، يسحبني ويدفعني كريشة حيثما يشاء. أنا أقبل الزواج بك يا فيكتور. لكن هل تعرفني حقًّا؟ أم تظنني تلك الفتاة القروية التي طلبت يدها منذ أكثر من عشرة أعوام؟

يوميًا أكتب لك، وتأتي ريجولا بكتب لا أعرف من أين تأتي بها، وتطلب مني نسخها لأنها تعرف أنني أحب قراءتها والاحتفاظ بها. لم نتواصل معكم لمدة أسبوعين تقريبًا، لكني كنت أواظب يوميًّا على الكتابة لك، فأنت تحب كتاباتي، أليس كذلك؟ وكانت ريجولا تكتب لفيليكس أيضًا، لكنها كانت ترسل ما تكتب، ولا أجرؤ أنا على إرسال شيء.

يوم يجمعنا الرب، سأسلمك كل تلك الرسائل، ولسوف نقرأها معًا، ولسوف نقرأها لأبنائنا وأحفادنا.

عرفت من خطاب فيليكس أنهم قد نقلوا لينوس بأمر منه إلى المشفى الكبير، حيث سيحاول الأطباء تهدئته، وإن

فشلوا، فسيقضي حياته هناك آمنًا، مأمونًا. هذا حل أمثل قد أراحني وأراح ريجولا. الحق يا فيكتور أنني كنت أتوق لغلق أي باب من أبواب حياتي المفتوحة، والتي تدخل منها الظلال لتزيد خوفي من نفسي أكثر من أي شيء آخر.

اليوم، وبعدما أمضينا أكثر من أسبوعين في أوكسيرنخوس، أغلبها عند شجرة السيدة العذراء، أو أمام الثُّهير الهادئ، جاء موريس وجلس معي أنا وريجولا، وقال في جدية:

- فيرينا، ريجولا. أعرف أنه ليس لكم سوانا الآن، أنا وفيليكس وفيكتور، وفي وسط هذه القلاقل لن نأمن عليكم هنا خلال غيابنا.

- ماذا تعني خلال غيابكم؟

تذكرت ما قال دانيال عن المشاكل في روما. أردف موريس:

- ستنتقل الفرق الكيميتية إلى روما خلال أسابيع. أريدك أنت وريجولا أن تسافرا معنا.

- ماذا سنفعل في الحرب؟! فيكتور، لن أتحمل...

- لن تتحملي شيئًا، وهي ليست حربًا بالمعنى المخيف.

سنقمع بعض الثوار على الإمبراطور، وسنعود بمشيئة الرب. هذه معارك مألوفة متكررة. سترافقاننا إلى روما، وتمكثان في كنيسة مخفية آمنة هناك حتى تنتهي مهمتنا. لن أعرضك إلى أي أهوال أخرى؛ كفاكِ ما عانيتِ.

سألته: إن كانت الأوضاع هنا بهذا السوء، فما المختلف في روما، تحت نظر الإمبراطور نفسه، فقال إن خطر المسيحيين الأبعد أعظم من الأقرب، وهذا من وجهة نظر دايقولشيانوس وماكسيميانوس بالطبع. هبط قلبي إلى أحشائي، وأمسكت كف ريجولا التي راحت ترتعد وشحب وجهها.

- فيرينا.. هل سيموت فيليكس؟! هل سيموت فيليكس في الحرب؟ هل سيموت أخي؟!

كنا عاجزين عن تهدئتها، عاجزين عن فهم ما حدث لتلك الشابة القوية المتماسكة. ثم فطنت إلى أن ريجولا لم تبكِ لحظة على غرق والديها وأخوتها. لم تتحدث قط عن ذلك اليوم كأنه لم يكن. ونسيت أنا يا فيكتور في غمار ما مررت به أن أبصر هشاشتها. كانت كالعود المحترق، ينتظر هبة ريح تبعثر رماده في الهواء. ريجولا ليست عكازًا، بل سوطًا لينًا يضرب غاضبًا ثم يتداعى غارقًا في الدماء.

قضينا ليلة حالكة، لم ينفع مع ريجولا أي شيء سوى استدعاء فيلكيس نفسه. رغم مسؤولياته العظيمة وضيق

الوقت، ظل جوارها يهدهدها كطفلة حتى نامت. قال لي بصوت هامس:

- أختاه.. ريجولا ابنتك سواء كانت هذه حقيقة أم محض عاطفة. لا أريد أن أقول لك إنني مثلها، لم أشعر بأي شيء حين وصلني خبر غرق عائلتنا. لأعوام كنت أتجنب زيارة القرية كي.. كي ينسوني، وكي أنساهم. كنت أخشى أن أموت فيقهر رحيلي قلوبهم، وكنت أخشى أن أزورهم فيتعلق قلبي بهم وأهاب الموت. لكني الآن نادم يا أختاه. نادم لأنني لم أغترف من لذة النظر إلى وجوههم والإنصات إلى أصواتهم. أنا خاوٍ يا فيرينا، لا يحركني إلا حياة ريجولا نفسها. ها أنا أستسلم أمام ضعفها وقوتك.

أغمض فيليكس عينيه، فتركته وأخته، وخرجت أكتب إليك يا فيكتور. نحن مآسٍ تسير على قدمين...

(12)

حينما نتوارى بعضنا عن بعض

مرَّ نحو شهر، وأمام المشفى، وقفت وريجولا وفيليكس ننتظر أن يخرج جنود الرومان حاملين جسد لينوس الواهن. لم يستطع موريس أو فيليكس أن يفعلا شيئًا لإنقاذه، فهو حتى وإن كان مجنونًا، هو مُجرم مُدان بقتل عدد من حرس المعابد والكهنة، وتخريب المنشآت العامة والتسلل إلى معسكر للجيش. نعرف أن المحاكمة ستكون صورية، وأن والده سيتدخل في النهاية. ربما يعجز نفوذ ومال أبيه عن إنقاذه، ويعدم. ربما يفر.. ربما يموت قبل كل هذا.

لا يوجد ما نفعل لأجله سوى الصلاة.

حين مرَّ أمامنا محمولًا، ظل يبتسم متسع العينين، ناظرًا نحوي. طلب فيليكس من الجنود أن يتوقفوا ريثما نودعه.

- أمي.. أهذا هو الفراق؟

حاولت أن أبتسم، لكن عيناي خانتني.

- الحياة كالنهار، والموت كالليل، وما الحياة الأخرى إلا خروجٍ إلى نهار دائم. تذكَّريني في صلاتك، واذكريني لربك.

غطّت ريجولا وجهها بغطاء شعرها، وأدارت لنا ظهرها. أغمض لينوس عينيه وابتعد مع الجنود في العربة. سأصلي لأجلك يا ولدي، سأصلي لأجلك ولأجل كل من فارقنا ولا نعرف إلى أين.

ودّعنا الأهل في المدينة الباسلة، وركبنا العربة أنا وريجولا خلف ركب الجنود، ولم نكن الوحيدتين المرافقتين للجيش، بل خرج معنا عشرات النساء، تعرفنا عليهن خلال فترة تدريبنا على التمريض في المشفى طيلة الشهر الماضي.

ودّعت المعابد التي صارت كنائس، ثم أُحرِقت، وها هي تعود سرًّا ليُذكر فيها اسم الرب. هذه مدينة شجاعة، دُفن شهداؤها على أطلال كنائسها، يمر عليهم الناس كل يوم كأنهم أحياء، يلقون عليهم السلام ويطلبون منهم أن يذكروهم أمام عرش النعمة.

في كل قرية يا فيكتور كنيسة، وفي كل بيت شهيد، ولا زالت البطولات تخرج منا مهما حلكت الدنيا. نحن نعيش في الرب، ونموت فيه. البر الغربي يا فيكتور لم يكن سوى بعث مستمر وركض نحو السماوات بقلوب جزلة. الموت هو البداية حقًّا، هو الأمل، هو الرسالة التي تصلنا دون مرسل ولا حامل بريد.

أحمل في حقيبتي القماشية الصغيرة التي ألفها حول كتفي

مشطي الخشبي، وجرة ماء صغيرة صنعتها طفلة عزيزة لي من أهل القرية، ولفائف البردي التي نسختها من الكتب الطبية في المشفى التي تدربنا فيها أنا وريجولا، وبالطبع أحمل خطاباتي لك.

أنت تعرف أنني كنت قد اتفقت مع موريس على أن أمكث في تلك الكنيسة في روما حتى تنتهي الحرب، لكن ريجولا قررت أنها سترافق أخيها، وتمرِّض الجرحى، وستعود معه.. أو تموت معه. أكان من المُفترض أن أثنيها عن هذا القرار؟ هل ستنقذها النجاة من الموت من ألم فراق أخيها لو فارقنا إلى السماء؟

المشكلة يا فيكتور أنني ما عدت قادرة على تحديد معنى للنجاة. كيف أنقذ الآخرين وأنا لا أعرف مصلحتهم؟ خطط الرب لا تنكشف لأحد، وقد عاهدت نفسي أن أعود إلى نصيحة سيدنا بارتلميوس؛ أن أشير إلى الطريق فقط، ولا أرافق أحدًا في طريقه، ولا أبكِّت أحدًا على اختياراته.

وصلنا الميناء على النهر، وكان الليل قد حلَّ. عرفت من موريس أن السفن لا تتحرك إلا نهارًا، وترسو ليلًا في مرفئها، فتُنزل الحمولات وتُركب المسافرين، كل سفينة حسب سعتها ومهمتها.

صعدت وريجولا مع موريس إلى ظهر السفينة الكبيرة،

وأمسك هو بكفي يقودني نحو آرخيس، قبطان السفينة ومالكها. هو رجل ربما جاوز الخمسين أو الستين، أتلفت الشمس لونه وبقَّعت صلعته. يبدو أنه كان أشقر من لون ما تبقى من شعره، ولون عينيه الفاتحتين الحمراوين. قال لي موريس وهو يقدمني للرجل غريب النظرات:

- هذا هو القبطان آرخيس بن أبوللونيوس وبطليما. وهذه ابنتي أيها القبطان، وخطيبة أحد ضباط كتيبتي، وتلك ابنة خالتها.

- مرحبًا بأقارب القائد موريس. ستذهبن إلى روما مع الجيش؟

أومأت وريجولا، فأردف:

- رائع. ليتني أستطيع الفرار إلى روما، لكني راضٍ أنني نجوت من الخدمة في حامية ديديموي ومن هجمات البدو اللعناء.

ضحك، وهو ضحك في غير محلِّه. لكزني موريس كي لا أظهر توتري، ثم صحبنا مع آرخيس ليرينا مقصورتنا. ظل أرخيس يسب البحارة ويلكز العمال، ويطلق ضحكاته وهو يربت على ظهر موريس، ما أنبأني بأنهما يعرفان بعضهما البعض.

المقصورة في بطن السفينة بسيطة، أرضيتها متسخة بحبوب غلة. بالداخل وجدت شابات في عمر ريجولا أو أكبر، يفترشن قطعًا صوفية نظيفة، ويتّكئن على وسائد. قال موريس:

- الرحلة قصيرة إلى الإسكندرية، وأعدكما أن تكون الرحلة إلى روما أفضل بكثير.

قال آرخيس وفي عينيه نظرة صادقة:

- لو احتجتما أي شيء، أنا هنا. لا تخشيا شيئًا.

ربّت موريس على كتفه، وودعنا بعد أن أعطانا طعامًا وشرابًا وبعض المال ثم قال:

- لأجل شراء ما تشتهيان من راكوتيه.

لطالما كان موريس كريمًا شهمًا. سرت قشعريرة في جسدي وأنا أراقبه يبتعد، وينزل عن السفينة ليلحق بكتيبته. ظلت ريجولا تنظر إلى مئات الجنود إذ يركبون سفنًا أخرى، تحاول أن تحدد مكان فيليكس، لكنها لم تستطيع. أنا أيضًا لم أستطيع أن أحدد مكانك يا فيكتور، لكني صليت لك أن تكون بخير.

وقفنا عند السور نتسامر أنا وريجولا، نسترجع أيام تدريبنا

في المشفى في أوكسيرنخوس، ونراجع ما تعلمنا هناك. لم نصرح لبعضنا بأننا لا نريد الاحتكاك بباقي النساء معنا، فلا نقوى على التعلق بآخرين قد تجرفهم أمواج الحياة بعيدًا عنا في أي لحظة.

شعرت بوجود شخص خلفي، التفتُّ لأجد آرخيس يسمعنا وهو يعقد ذراعيه خلف ظهره، فتبرز بطنه الكبيرة.

- أتعرفان، لقد عشت خمسة عشر عامًا في الحامية دون أن يزورنا طبيب واحد. التهاب العيون كان يلتهم نظرنا. الجروح التي تتسبب لنا فيها عصيّ البدو تنتن ولا شيء بأيدينا نفعله. حتى أطباء الحاميات الأخرى لم يكن معهم ما يداوون به الرجال. مهنة التمريض عظيمة يا سيدتي.. لكني لا أنصح أبدًا بوجود ممرضة أو طبيبة وسط جنود الحاميات.

يضحك مرة أخرى. يبصق. يمسح فمه بظهر يده. يجلس على صندوق خشبي ويدق بحذائه على الأرض وهو يغني أغنية بذيئة لم أسمعها من قبل. يقطع الغناء فجأة ويقول:

- أتعرفان؟ الجميع يعرف الضغط الذي كنا نعانيه.. قلة الطعام.. قلة النساء. لم يكونوا يرسلون لنا طعامًا، لكنهم كانوا يرسلوا إلينا الفتيات. منهن بغايا محترفات، ومنهن سبايا. بعضهن لم يترك طور الطفولة بعد. هذا هو الشيء الوحيد المميز في تلك الحامية الحقيرة. أتعرفان؟ لقد أتوا بنا من

بلادنا فقط ليلقوا بنا في الصحراء.

تذكرت قلق دانيال من إرسالنا إلى المعسكر في كِفت، وهو قريب من طرق قوافل التجارة التي يتحدث عنها آرخيس. سألته ريجولا:

- من أين أنت يا سيدي؟ لا تبدو هيلّنيًا.

- داشيا إنفريور(24).

وأشار إلى التمثال الذي يزين مقدمة السفينة، والذي كنت أظنه تمثال سمكة عملاقة، وقال:

- هذا تنين داشيا. آخر ما يمكنني البوح به عن وطني هنا. أتعرفان؟ كنا قبائل حرة عظيمة، والآن نحن عساكر الإمبراطور الأشداء. كلابه الشرسة. هو حتى لا يأتمننا على الانضمام إلى كتائبه مثلكم، ولا يأتمننا على حراسته كالجرمان.

مال علينا فجأة وهو يهمس:

- هذا سر، هه.

ثم بصوت عال صاح:

- فليحيا إمبراطورنا العظيم، وليحيا حاكم أوكسيرنخوس!

سبَّ البحارة وقام يسوقهم حتى يُنهوا نقل البضائع سريعًا قبل الفجر. أمسك صليب أوريليا المتدلي بين جسدي وملابسي، وأتساءل، تُرى أين مينريت؟ أعرف أن ريجولا تفكر فيما قال القبطان عن البغايا، وعن الأطفال منهن.

يبدو أن الجميع هنا يعاني يا فيكتور. يهربون من مذلّة إلى أخرى. تُرى هل هروبنا إلى روما وجه آخر من فرار الجميع من نار إلى سعير؟

قبيل الإبحار عند الفجر، صعد جنود رومان إلى ظهر السفينة، فكانت ردود أفعالنا -نحن النساء المسيحيات- واحدة. نفس الرجفة ونفس الأنين المكتوم والصرخات التي تخبئها الأكُف الشاحبة. أمرنا الجنود أن نصعد إلى ظهر السفينة، ففعلنا، وبالأعلى رأيت آرخيس وبحارته لا يبدو عليهم أي ذعر. أشار لي أن أهدأ. لم تحملنا سيقاننا فجلسنا على الأرض. نظرات ريجولا الغاضبة النارية تُقلقني أكثر مما يقلقني خوف الخائفات. لو اقترب منها أحد هؤلاء الجنود ستمزقه.

بعد قليل، سمعنا صيحات وركلات وضربات، أنين وبصاق واستجداء، ثم ظهر الجنود يسحبون أربعة كيميتيين من باطن السفينة، ثم يرحلون.

بعد أن هدأ كل شيء، وبدأت السفينة في الحركة، اقترب

منا آرخيس وقال:

- فلاحون فارُّون إلى الشمال. كل رحلة يُخرجون عددًا من المتسللين من باطن السفن. في مرة وجدت صندوقًا خشبيًا يحوي إمرأة وطفليها، شحنه أحدهم على ظهر السفينة، وكان يظن أنها طريقة مأمونة لتهريبهم دون أن تلاحظ الشرطة النهرية.

تسأله ريجولا:

- وكيف اكتشفتهم؟

- لم أكتشفهم. حين أفرغنا الحمولة بعد وصولنا، وجدنا هذا الصندوق، وفيه جثة المرأة والطفلين. كان في يد الأم سكين مكسور، يبدو أنها كانت تحاول فتح الصندوق به، لكنها فشلت.

ليتكِ ما سألتِ يا ريجولا.. ليتكِ ما سألت.

تدثَّرنا بغطاء ومكثت وريجولا على ظهر السفينة، نخشى أن ننزل إلى المقصورة فيفوتنا هجوم ما، أو تباغتنا كارثة. ظللت أطمئن نفسي وريجولا أن الحرس يرافقون السفن في قوارب صغيرة.

حين رآنا آرخيس على هذا الحال، جلس قبالتنا عند الطرف

الآخر من السفينة، يضع ذراعه على ذيل الكائن (تنين داشيا) هذا. أهو كائن حقيقي؟

ظل يحكي عن أيامه في الحامية التي التحق بها وهو في سن الرابعة عشر، وكيف اكتشف تدريجيًا الفخ الذي سقط فيها ورفاقه. غُربة، مرض، موت، هجمات بدو، ولا شيء ينبئ بالنجاة إلا حين تنتهي خدمته. عمِل فترة «مصارعًا» وهي تعني حامل البريد بالنسبة لحاميات الصحراء. جزء من أخطار هذه الوظيفة مصارعة المهاجمين من بشر وضواري الصحراء، كانت هذه هي وظيفته وأخوه التوأم، حتى أصيب هو في ظهره، وصار عاجزًا عن أداء وظيفته، فظل في الحامية يعاني ما يعانيه الآخرون، ويجرف من الشهوات ما استطاع، حتى قتل أخاه واحد من المهاجمين، ووجده في الصحراء قد جفف الحر جثته.

- كان توأمي، ونصف روحي. أتعرفان؟ بل كان روحي، وكنت أنا الجسد. المهم، ضربني الهياج ورحت أضرب وأقتل أي شخص أجده أمامي، حتى كدت أبقر بطن قائد الحامية نفسه. كبّلوني بالأغلال. حبسوني. ثم رأيت قائد الحامية يدخل ومعه شاب كيميتي لا تُخطئه العين. كنت يائسًا تمامًا، حتى جلس بيني وبين القائد على الأرض مُتبسّطًا. سمع مني ما حدث لأخي، وما شعرت به طيلة فترة هياجي، بل وتركني

أحكي له رحلة مجيئي من دياري إلى هنا، وطموحاتي الحمقاء أنا وأخي في العودة كضباط منتصرين أو قادة كتائب.

نسيت وريجولا كل شيء حولنا، ورحنا نتابع حكاية آرخيس، وكيف وصل إلى أن يكون صاحب سفينة.

- توسَّط هذا الشاب إلى القائد كي يعفو عني، وأن ينقلني إلى كتيبة هذا الضابط في أوكسيرنخوس. وافق القائد؛ أنا عبء عليه وفم يطعمه دون فائدة، إضافة إلى أن ضميره لم يسمح له أن يرسلني إلى السجن العام. فكوا وثاقي، ورحلت مع الكيميتي. سألته عمن يكون، قال إن اسمه موريس، قائد الفرقة الكيميتية في أوكسيرنخوس.

شهقنا. موريس؟! هو لم يحكِ لنا قط حكايات كهذه. أردف آرخيس:

- تفاجأتما؟ أجل. هذا هو موريس يا سيدتي. يطوف على سجناء الفرق، يواسهم، يحل مشاكلهم. يمنحهم ماله إن استطاع أن يُخرجهم من كربهم. أعرف أنك لست ابنته قطعًا، فالجميع يعلم أن موريس لم يتزوج لأنه لم يجمع مالًا لنفسه، ولا كان يرى نفسه من الأساس. هو من ساعدني على العمل على سفن الشحن، وبفضله صارت لدي سفينتي التي تحمل هويتي. أرى أخي معي كل لحظة، ننعم بالحرية في سجن

أوسع.. أجل. أعرف هذا. لكننا حُران.

أغمضت عيناي ورفعت رأسي إلى أعلى. موريس؟ أبتسم ابتسامة مريرة. موريس ابن عمي له حياة سرية؟ وتذكرت المشهد الخالد في ذاكرتي؛ موريس يحمل سينيكا والشمس خلف رأسه كهالة الملائكة.

« كثيرون هم الرجال الذين التقى، والذين منهم استقى المعرفة والعقل». أتذكَّر هذه الأبيات يا فيكتور؟ لا أعرف لماذا تدور في عقلي الآن وأنا أرمق الجبال تسير أمامي، وأودِّع تلك الأرض التي أحببتها ولو أنني لم أمكث فيها كثيرًا. أودع شجرة العذراء المباركة والكنائس والطرقات. لا زال في الوطن قلب يجاهد كي يبقينا أحياء.

(13)

ولكل أمر تحت السماوات وقت

اقتربنا من بولبتين، والواقعة على البحر العظيم، الذي أخبرني آرخيس أن الرومان يسمونه «ماري نوستروم»، أي بحرنا. بحرهم هم بالطبع لا بحر الكيميتيين. ويسميه الهيلّنيون «ميزوجيوس»؛ البحر الأوسط.

عرفنا في الطريق الكثير عن حياة السفن في الأنهار، وعن التجارة، وعن صيد النعام في الصحراء. الآن فهمت لماذا كنت أرى نظرات آرخيس غريبة في البداية. هو متألم، والألم يحرقه مهما بدا صاخبًا غير مبالٍ. وكان يحمل على ظهره ما يعتبره جَميل موريس، فظل يحكي لنا ويخفف عنا كل حين، ويبدأ حكاياته بسؤاله الشهير: «أتعرفان؟» فنعرف أنه سيفتح لنا نافذة على الدنيا تهيئنا لما سنراه عبر البحار.

عرفنا منه أن بعض البضائع معه ستُرسل لاحتفالات هائلة في راكوتيه.

- كلما اهتز العرش هناك، أقيمت احتفالات هنا! هذا سر، هه؟

نادانا كي نشاهد منظرًا بديعًا، خطف أنفاسنا حقًا. النهر

والبحر يلتقيان ولا يمتزجان. كل من على السفينة من ركاب وقفوا مشدوهين لمهابة ما نرى. نهرنا وبحرهم لا يمتزجان حقًّا.. أم تراه بحرنا ونسيناه فتبرأ منا؟

نزلنا عند الميناء المزدحم. رائحة الهواء غريبة للغاية، بل هو مبلل كأنه مُحمل برذاذ ماء. هذا غريب! وجدنا أحد جنود الفرقة ينتظرنا، فركبنا والنساء العربات التي ستنقلنا برًّا إلى راكوتيه.

كل شيء هنا مختلف، كل شيء يُذكرني بأنني كنت مخطئة حين وافقت على ترك أوكسيرنخوس وظل الشجرة المباركة. ألم يكن هذا حلمي يا فيكتور؟ أن أذهب إلى راكوتيه؟ أجل. لكن وقتها كان لدي وطن أعود إليه. أنا كمن يحرق الطريق خلفه، ولا شيء يطمئنني إلى أنني إن عدت إلى كيمي بعد الحرب سأجدها مكانها. ربما تكون الأرض والسماء هنا، لكن كيمي ليست أرضًا وسماء. هي ضحكات وبكاء وتنهيدات عشق ونواح ألم. هي أنا وأنت والكيميتيون الذين يهال عليهم الرماد كل يوم. فهل سأجد كيمي حين أعود يا فيكتور؟

الخيول تنهب الطريق. أشرد في البحر عن يميني وريجولا تنام على كتفي وتمسك -دون أن تشعر- صليب أوريليا تحت ملابسي. البحر يبتعد حين يبتعد الطريق عنه. أتذكر سؤالي

عن فاسيليا، وإجابة آرخيس:

- فاسيليا.. من لا يعرف فاسيليا على امتداد النهر العظيم؟ هذه أسطورة أخرى. أتعرفان؟ كل شخص على وجه الأرض هو أسطورة تُحكى، لكن أين الحكّائون؟

سألني عن سبب معرفتي بها، فحكيت له. هزَّ رأسه في حزن حقيقي، ثم قال:

- حكايات كهذه تدفعني للندم على كل مرة ضاجعتُ فيها امرأة مسبيَّة. أتعرفان؟ لفاسيليا ابنتان فرَّتا منها لتعملا في راكوتيه. لم تحتملا أبدًا صعوبة العيش معها وغلظتها في التعامل مع الجميع؛ هي رجل في جسد امرأة، ولا ألومها. لا يغيب عن ذكائكما ما تفعله ابنتاها في راكوتيه. يقال إن رجلًا أغواهما. يقال إنها كانت تدفعهما لتكونا رجلين مثلها، ففرَّتا. أيًّا كان السبب، ففاسيليا لن يرضيها أبدًا ما فعله رجالها برفيقتكما.

- هل تعرف كيف نصل إليها؟

- لا يعرف أحد مكان إقامتها. هي كالشبح. لكنها تُشاهد كثيرًا في راكوتيه. تحوم حول دور الترفيه والمسارح وبيوت البغاء.

- تبحث عن بناتها؟

- لا أعرف. هي صلبة ذكية، لا أظنها تهيم على وجهها دون سبب. من خبرتي أستطيع أن أقول إنها تعرف مكانهما، وتراقبها من بعيد لتحرسهما. فتيات الليل والراقصات حيواتهن أخطر من حيوات الجنود في المعارك. لترفق بهم الآلهة، فهم يعلمون ما دفعهن لهذه الحياة.

صوت آرخيس يتردد في أذناي، وجه مينريت وهي تصرخ وسط النهر ليلًا لا يفارق عقلي، ولا يريد أن يتراجع إلى حيث الركن المظلم الذي يحوي أبشع مخاوفي.

أنا السبب يا فيكتور.

أنام وتصحو ريجولا، ثم أشعر بها تربِّت على كتفي برفق. شهقت وفتحت عيناي، ونظرت إلى حيث تشير. العربة قد توقفت أمام سور حجري. أخرجنا رأسينا ونظرنا إلى أعلى تحت سماء المغرب الحمراء. السور المرتفع يقطعه برج عظيم وبوابة هائلة من الخشب والنصال الحديدية، عن اليمين واليسار يمتد السور إلى ما لا نهاية. ربي!

انفتحت البوابة لنسمع صوت سلاسل ثم طرقة قوية. تحركت بعدها العربات إلى الأمام لتلج من السور عابرة جسرًا فوق خندقٍ جاف، حتى نصل إلى سور آخر أطول وأكثر سمكًا من الأول. أستطيع أن أرى يا فيكتور أثر ترميم للسور

في أكثر من موضع. يبدو أن المدينة عانت هجمات قوية طيلة عمرها.

لدهشتي، أعجز عن وصف ما رأيت يا فيكتور. كل شيء يختلف عن قرانا ومدننا التي مررت بها. أميز بالطبع الطابع الهيلِّني، لكني لا أعرف ما هذه المباني وفي أي شيء تستخدم. الطرقات نفسها واسعة، ممهدة. ملابس الناس مختلفة. كل شيء هنا يغرقني بالتفاصيل فتؤلمني رأسي. تسألني ريجولا:

- إن كانت هذه هي راكوتيه، فما شكل روما إذًا؟!

هززت رأسي أنني لا أعرف. حتى الكنائس هنا أكثر فخامة وضخامة. الناس صاخبون أكثر. الهواء أثقل. لا أعرف إن كان ما أرى يُبهرني أم يخيفني. أشتاق لرائحة ماء فيارو وطينه. أنا أعاني الغُربة من الآن يا فيكتور ولا أريد أن أخيف ريجولا. يجب أن أتماسك.

وصلنا المعسكر، وأسكنوا المرافقات في حجرات خاصة بهن، بعيدًا عن مناطق التدريب. ظلت ريجولا تبحث عن فيليكس وسط الجنود لكن الأمر لم يكن سهلًا أبدًا. عرفنا أننا سننتقل في الصباح إلى الميناء. هوى قلبي بين قدماي؛ هكذا على الفور؟!

في المساء أرسل فيليكس إلينا رجلًا مدنيًا يعمل مع الجيش، وقال أنه مُرسل لمرافقة النساء إن أردن أن يشترين شيئًا من المدينة.

صحبنا مع حارسين في ثلاث عربات إلى السوق الذي كان يتوسطه احتفال ما، قال لنا مرافقنا المدعو أوكتافيوس إنه احتفال أقامه أحد وجهاء المدينة بمناسبة فوز ابنه الشاب في مباريات الشبيبة الرياضية، ما سيؤهله للسفر إلى روما ودخول مباريات الفروسية هناك.

حكى لنا موريس سابقًا عن الجيمانيزوم والرياضيين ومكافآتهم الكبيرة. اخترقنا مع أوكتافيوس الجماهير المحتشدة حول عرضٍ ما، لمحت وسطه شابين وامرأة يقدمان فقرة تمثيلية من إحدى مسرحيات يوريبيدس، نسيت اسمها، لكني أتذكر جيدًا صوت إيزوس وهو يقرأها لي. ثم حانت مني نظرة بين الزحام، إذ اقتحمت أذناي ضحكات خليعة مُصطنعة. المرأة في وسط التجمع لها لون القمح الذهبي، شعرها مموج ناعم مرفوع في عُقصة مُعقدة مضفورة، ملابسها الشفافة تكشف أكثر مما تستر. حادت المسرحية التي كانوا يلقونها عن مسارها، فراح الشابان يغيران في كلمات النص المُبدع ويحيلونها إلى كلمات بذيئة تثير ضحكات الحضور. احمرَّ وجهي، وغطَّت ريجولا

رأسها بالكامل. ابتعدنا قليلًا ولم نجرؤ على النظر إلى وجه أوكتافيوس.

تشاغلنا في رؤية البضائع مع الباعة، فاشتريت حقيبة أكبر من حقيبتي، وأعجب ريجولا صندوق صغير منقوش بزهور اللوتس وماء النهر والسمكة معقوفة الخطم التي ألفناها في أوكسيرنخوس، والتي يقدسها البعض هناك، وينقشونها بتاج قرص الشمس فوق رأسها، وإليها يُنسب اسم المدينة.

وقفنا لا نفعل شيئًا فترة طويلة، بينما النسوة الأخريات يشترين حاجياتهن. الموسيقى تعلو، وكذا الضحكات. صوت قرع أقدامٍ راقصة فوق حجارة الأرضية. رائحة النبيذ والفطائر بالعسل.

كان إيزوس يكره أهل راكوتيه و يردد في كل مناسبة أنهم أهل خلاعة ومجون. الحقيقة يا فيكتور فقد رأيت وسمعت عما يحدث في عواصم أقاليم الجنوب، وهو ليس ببعيد عما أرى هنا. الفارق الوحيد هو الثراء الذي يجعل احتفالًا بشاب رياضي يقارب احتفالات الأقاليم بعيد ديني.

من بين الحشود أرى فتيات يرقصن رقصًا مُهينًا. أنظر إلى ريجولا وأعرف نظرتها النارية التي تُنبئ بأن عقلها يسترجع ذكرى مؤلمة؛ ذكرى مينريت وغموض مصيرها. تذكرت أنا ابنتي فاسيليا، وما قال يوريبيدس على لسان شخصية

ميديا: «لم أرَ بين كل المخلوقات التي تنمو ويسيل منها الدم ما يمكن أن يتحطم كما يتحطم قلب المرأة. إن علينا أن نقدم ما جمعناه من الذهب وادخرناه لهذا اليوم الوحيد، لنبتاع به حب رجل، ولكننا نبتاع به سيدًا ليتصرف في أجسامنا، وهذا لعمري أشد ما يؤلمنا في هذا العمل المشين».

ما لبثنا أن سمعنا صوت شيء يسقط من علٍ خلفنا. ساد الصمت المفاجئ لحظة، ثم انفجرت صرخات النساء. رجل سقط من فوق واحد من البيوت، ويبدو أنه قد مات في الحال. هرعنا إليه -أنا وريجولا والنساء- على أمل أن ننقذه بما تعلمنا، لكن منظر الدماء التي راحت تتسع خلف رأسه أنبأنا بأن كل شيء قد انتهى. لم يرَ أغلبنا منظرًا كهذا من قبل، فصرخت من صرخت، وأشاحت بوجهها من أشاحت. يبدو أننا بعيدات للغاية عن تحمل أهوال الحرب. ما الذي جاء بنا إلى هنا، وإلى أي هاوية نلقي بأنفسنا؟

ومن ناحية الراقصات، سمعنا واحدة منهن تلطم أخرى، وتصيح بها وصوتها يختنق من الدموع:

- أذا ما وعدتني به؟! لقد مات يوناس! مات! وأنت وسحرك السبب!

اندفعت الراقصة بين الناس تهرب بلوعتها، ووقفت الراقصة المُتهمة تضع قبضتها في خصرها وتهز ساقها كأنها

تشعر بالملل. حين أدركت أن العرض قد فسد، لفَّت جسدها بقطعة قماش شفافة، وتحركت نحونا؛ نحو الشاب الغارق في دمائه. وقفت جوار ريجولا وسألتها وهي تنظر إلى أصابعها الملوثة بالدماء من محاولتها لرفع رأسه لتبيُّن الجرح:

- ما أنت؟ طبيبة؟

- كلا. من ممرضات الفرقة الكيميتية.

رفعت المرأة حاجبًا وابتسمت وهي تسأل:

- ستسافرن إلى روما، أليس كذلك؟ يا لحظكن. تبدين غنية أنت وصديقتك هذه، من أين أنتن؟

جذبت ريجولا نحوي كي لا تتمادى في الحديث معها، لكنها اقترب منا وألحَّت في السؤال:

- من كروكودوبوليس؟ أوكسيرنخوس؟ مسيحيات أليس كذلك؟ هكذا رجال الكتيبة. أعرف جنديًّا من نكراتيس وعدني أنني سأرافقه إلى المعركة، لكنه كعادة الرجال اختفى.

نظرت حولها إلى الرجال الذين يحملون المتوفى، وتابعت دخوله إلى المنزل وهي تقول:

- طبعًا لم أكن لأذهب إلى الحرب. كنت سأفر. راقصة هناك

سيكون حظها أوفر من راقصة هنا. الجميع ينظر لنا في الدراخمات التي نأخذها أجرًا ويقارنونها بدراخمة أو اثنين أجرة الفلاح. وهل يتعرض الفلاح إلى ما نتعرض له هنا؟

سحبت ريجولا وابتعدنا، نبحث عن أوكتافيوس الذي اختفى فجأة. سمعنا صوت الصلاصل المعلقة في حزام المرأة، وارتطام الحُلي التي تزين ذراعيها، فعرفنا أنها تسير خلفنا.

- أنتن زوجات قادة، أليس كذلك؟ هذه الملابس الفاخرة ليست ملابس زوجات جنود. متى سترحلون؟

التفت نحوها وقلت وأنا أتحاشى النظر إلى ملابسها الفاضحة:

- سيدتي، هلا تركتنا فضلًا؟ لن نستطيع مساعدتك.

- وهل طلبت المساعدة؟! أسألكما سؤالًا بسيطًا. لن أعضكما ولن أوسِّخ ثيابكما.

استدارت مبتعدة، فابتعدنا بدورنا حتى وصلنا إلى العربات وجلسنا بداخلها، وصوت الصلاصل ونبرة الحَرج وتصنُّع الاستعلاء في صوت المرأة يلاحقانني.

في الفجر، خرجنا من الأسوار إلى جسر هيبتاستاديوم

-كما أخبرنا سائق العربة قبل ركوبنا- والذي سيوصلنا إلى الميناء الكبير على جزيرة فاروس. بالطبع لم أتخيل شكل أي شيء مما قال إلا عندما نزلنا، ورأينا الفنار الضخم والنوارس تحوِّم عند الشاطئ. لولا سائقو العربات الذين مهدوا لنا ما سنرى لفقدت الوعي من فرط ما رأيت. الوجوه والألسنة حولنا من كل أنحاء العالم، البضائع تُحمل إلى المخازن، التجار يصخبون ويجادلون بعض الجنود. أرى مبانٍ كالقصور، وأسمع طرقات صُناع السفن على الألواح والمسامير. عالم آخر لم أتخيل وجوده. سيكون هذا آخر ما أرى من كيمي الحية. فلأملأ عقلي وقلبي بما يساعدني على تحمل عناء الاغتراب حتى أعود.

الفصل الثالث

الحصاد

«بالأمس أنجزت حياتي، والآن أعود في النهار».

الخروج في النهار- كتاب الموتى

(1)

موسومة بعلامة الجوزاء

من فيرينا إلى فيكتور...

من منتصف دائرتي الأسوار الحجرية والطرق الدائرية التي تحيط بمدينة ميديولانوم، أكتب إليك. من داخل حوائط الكنيسة المتخفية في هيئة بيت، كقلب مسيحي ينبض من عصر كان الرب يُعبد هنا في سلام. من عاصمة الإمبراطورية التي حولها ماكسيميانوس إلى عاصمته هو، أكتب إليك.

يُحكى في الأساطير التي يتداولها البعض سرًّا هنا، أن ملك غال -الذين يقمعون ثورتهم الآن بكتائبنا الكيميتية- قد أرسل أحد أقاربه بقيادة رجال يمثلون أغلب قبائل الغال ليقيموا مدينة ميديولانوم(25)، وقد اغتصبها الرومان منهم قبل مئتي عام من ميلاد المسيح.

أكتب إليك للمرة الأولى منذ وصلنا، وافترقنا. مرضت حين كنا في البحر، ولم أكن وحدي من هاجمته الأسقام الجسدية والروحية. كلنا -من النساء على الأقل- باغتتنا صدمة أننا وسط البحر، لا حدود من أرض حولنا. نحن ذاهبات إلى المجهول، إلى ذراعي ماكسيميانوس القاسيتين. بعضنا كان

سيذهب للمكوث في الكنيسة هنا مثلي -وهذا ما عرفته بعدما وصلنا- وبعضنا كان سيذهب لرعاية رجال الفرقة في المعركة.

حين وصلنا الميناء الكبير، كانت حالتي الجسدية أفضل، وإن ظلت عظامي تؤلمني وتمنعني من الحركة بشكل طبيعي. وقفت وريجولا ننظر إلى بعضنا طويلًا. أريد أن أرجوها أن تأتي معي إلى الكنيسة، لكني أخشى يا فيكتور أن يكون في رجائي هذا هلاكها. تعانقنا حتى تدخلت النساء كي تفرق بيننا؛ الجيش متجه إلى الشمال حيث المعسكر، وعليها أن تتحرك معهم. قالت لي:

- لطالما أعود يا أختي. سأجلب لك تذكارات من الطريق وأحفظها لك في صندوقي الجديد.

- ريجولا، لماذا نفترق كلما التقينا؟

- في النهاية، سنلتقي هنا، أو في الملكوت...

وأشارت بإصبعها إلى السماء.

كنت أتمنى لو سنحت لي فرصة توديعكم -أنت وفيكتور وفيليكس- لكن كل شيء كان يجري بسرعة.

ارتفعت درجة حرارتي وأنا في العربة التي تقلني إلى

ميديولانوم، فاختلط منظر الطرق الغريبة مع برودة الجو، ولم أميز شيئًا أكتبه لك. أصلي إلى الله أن يتيح لنا الزواج قبل أن نغادر هذه الأرض، فنطوف معًا ونشاهد ما فاتني من مناظر الجبال الخلابة التي لفتت نظري رغم كل شيء.

لن تصدق ما سأحكي لك تاليًا، فأنا نفسي ظللت أردد ما قال هوميروس في أوديسته، وما اعتبرته أنا نبوءة وقتها، وصدق حدسي.

بعدما سكنّا في حجرات الكنيسة، وصرت رغمًا عني قائدة للمجموعة الصغيرة بحُكم معرفتي بالهيلّنية وشيئًا من الرومانية، قاطع صلاتنا في أول أيامنا صوت شجار خارج الكنيسة، ثم جاءت أخت لنا تناديني لأنها لا تفهم شيئًا من المرأة الكيميتية التي جاءت معنا.

ما إن خرجت، حتى رأيت خدم الكنيسة يعدون خلف امرأة تجري وقد رفعت زيَّها إلى ارتفاع غير محمود. ناديتها بالكيميتية، فالتفتت لحظة، ثم أكملت طريقها. أتعرف من كانت؟ الراقصة التي قابلناها في راكوتيه! يبدو أنها تبعتنا وتسللت إلى السفينة. هي قادرة على رشوة البحارة بأكثر من طريقة ليخبؤها، لكن تلك المجنونة، إلى أين تظن نفسها ذاهبة؟! ماذا ستفعل هنا وكيف ستتصرف وهي حتى عاجزة عن التواصل مع الآخرين؟

منعتني آلامي من العدو خلفها، فناديت بصوت أعلى:

- أختاه، لا تخافي! ما تفعلينه جنون!

لكنها لم تعبأ بي، واختفت وسط صخب الطرقات وزحامها حتى كادت الخيول تدهمها مرتين.

تشتت تمامًا، وعجزت عن التفكير في شيء سوى مصيرها. سينتهكونها ويقتلونها في غضون أيام. يستبدل وجه مينريت وجهها الذي نظر لي ثم اختفى. يا رب، يا من سمع لصلاة يونان من وسط الضيق وهو مُبتلع من الحوت في وسط البحر، وخلّصه ونجّاه. إن إخوة لنا يعانون وسط أمواج بحر هذا العالم، نجّهم وأغثهم. آمين.

ظللت أخرج كل يوم، أجوّل حول الكنيسة بحثًا عنها، أحاول السؤال عمن قد رأى امرأة بمواصفاتها دون طائل. مع الأيام أنشغل بالصلاة والقراءة في الكتب هنا، ومحاولة نسخها، وهي محاولة صعبة مرهقة، لكنها تشغل تفكيري وتصرفه عن آلام نفسي وجسدي، وترهقني حتى أتفادى كوابيس منامي.

أيام تجمعت في عناقيد الأسابيع، ولا خبر منكم حتى الآن. الأمور هنا هادئة رغم ضيق معيشة المسيحيين والتضييق عليهم في إعلان دينهم، لكنني أصبّر نفسي بأنها

فترة وستنتهي، وسأعود منها بثمار تنفعنا جميعًا. الأغرب يا فيكتور أن صلة لطيفة قامت بيننا نحن الكيميتيات، وبين فتيات وثنيات من المدينة، أثارت فضولهن ملابسنا وتصرفاتنا وبالطبع لون جلودنا ولغتنا. أمضيت وقتًا طويلًا أحدثهن عن كيمي، وكدت مع الأيام أستعيد لحظات صفاء الجميزة، بلا منغصات سوى انقطاع أخباركم. تعلمت منهن الكثير، لكن أكثر ما أحببنه -وياللعجب- فكرة العفة والنظافة، بل إن تمشيطي لشعور الصغيرات منهن كان يجلب استحسانهن. هن فقراء تعيسات مثل أهلي في چراچوس، ويبدو أن ظلال الإمبراطور تحجب أي نور عن الجميع.

الصدور تغلي هنا يا فيكتور منذ زمن، ولا زال الكثير ممن انضموا غصبًا إلى الإمبراطورية يعتزُّون بأصولهم، ويتحدثون بلغاتهم القديمة، ويسعون أحيانًا للفرار خارج الحدود.

الضرائب ترهق الناس، وقوافل المزروعات والبضائع التي كانت تُجبى من أراضينا، تمر أمامهم إلى قصور الحُكام والأغنياء. لكم يتشابه الناس يا فيكتور عند ضفتي البحر -بحرهم- رغم اختلاف الألسن والألوان. القهر واحد، والظلم واحد.

(2)

الخبر السار

اليوم خفَّت أوجاع جسدي، فقمت مستبشرة، أخذت بعض الفتيات في جولة يعرِّفنني بالمدينة أكثر، ويحكين لي أسرارها وأسرارهن. أسرار ثقيلة هي لن أكتب لك عنها، لكني رأيت في أعينهن وهجًا غريبًا، حتى انتهت الجولة بسيدة وزوجها وأبنائها يسألونني عن الطريقة التي بها يتبعون دين الرب.

عدنا بهم إلى الكنيسة الصغيرة، فعمَّدوهم جميعًا بسكب الماء على الرأس ثلاثًا، وكان هذا خشية أن يعمدوهم في ماء جار فينكشف أمرهم لحاكم المدينة. بالطبع كان يعرف أن في المدينة مسيحيين، وكان يتركهم لشأنهم لفترات ما لم يشكلوا خطرًا على الوثنيين أو يثيروا قلاقل بإيمانهم. قال لنا الكاهن ماكسيموس إن هذه العائلة هي أول عائلة يعمِّدها من الوثنيين، وقد استبشر خيرًا بقدومنا بعد ذلك، وزاد من إحسانه إلينا إلى حد لا يصدق.

***

وصلني اليوم أخيرًا خطاب من ريجولا، تخبرني فيه أن المعركة انتهت، وأننا انتصرنا -انتصر الإمبراطور- على

الثوار المتمردين. قالت ريجولا إنها وكل الرجال والنساء بخير، وإنهم سيعودون إلى المعسكر في أجاونوم(26)، وبعضهم سيُرسل إلى معسكرات أخرى قريبة، حتى يأتي موعد الاحتفال في مقر الإمبراطور ماكسيميانوس في العاصمة أجوستا تريفيروروم(27)، إحدى العواصم الأربع للإمبراطورية. سيحضر البعض هذا التكريم، ثم يعودون جميعًا ونلتقي. سألت الكاهن عن مكان هذه المدينة، فقال إنها في شمال الإمبراطورية، حيث أرض قبائل الجرمان القديمة.

يقول إن جبالًا تفصلنا عنها، ومسيرة يومين تقريبًا بالخيول.

قفز قلبي في صدري كالعصفور الحبيس، لو فتحت له الباب لطار إليها يعانقها ويلثم كفيها. ظللت أحلم باليوم الذي أراها فيه تدخل علينا، اليوم الذي نجتمع حول موريس وهو يحكي لنا ما رأى في بلاد الشمال، ونحتفل جميعًا بسلامة العودة، وبالأسرة الصغيرة الحبيبة التي انضمت إلينا في عبادة الرب.

فيكتور، هل أنهيت أخيرًا نصيبي من العذاب الدنيوي؟ هل غفر الرب ذنوبي؟ أكاد أسمع صوت سيدنا بارتلميوس يسألني عن ذنوبي وهو يبتسم في شك. لو حكيت لك يا

سيدنا لبكيت كما ظل قلبي يبكي أعوام، ولا أظنه سينسى أبدًا أو يغفر.

تزيد كل يوم تساؤلات البنات الصغيرة عن المسيحية، ثم أرى أمهاتهن يحضرن لسؤالي، ثم أرى أرباب الأسر يجولون حول الكنيسة في فضول ورهبة. في النهاية، يخبرنا الكاهن ماكسيموس بأن فلان يفكر في الانضمام إلينا. لكني ألمح الخوف في عينيه. الكاهن ماكسيموس لا يخشى الموت، لكنه يخشى تأثير ما يحدث على المؤمنين الجدد. لقد عاش أعوامًا ومن معه في الكنيسة في أمان وفي السر، لا يختلطون بأحد، رغم توق كل منهم إلى الحديث عن الخلاص وعن الملكوت. قال لي:

- لا أعرف ما سر الشجاعة التي لديكِ كي تتحدثي بهذه الحرية للفتيات عن ديننا، لكنك تذكرينني بالرسل والمبشرين. أنت لا تدركين صعوبة ما تفعلين، لكن قلبك يقودك، وهو كالدرع يحميكي من لحظات الخوف.

هو لا يعرف شيئًا عما رأيت، ولا يعرف الأحلام التي تطاردني، ولا يعرف سر أوجاعي وأسقامي، ولا عدد الشهداء الذين أنبتتنا أجسادهم المدفونة في أرض كيمي. نحن يا سيدي على وفاق على الموت، لنا موعد مكتوب معه. أبتسم، وأكمل صلاتي وتضرُّعي أن تمر الأيام على خير ونعود إلى

أرضنا.

(3)

في ديار إلهنا يُزهرون

فيكتور...

ماذا يحدث؟ يقولون إن جنديًا رومانيًا مسيحيًا يُدعى أليساندروس قد فرَّ من الفرق التي أرسِلت إلى الشمال لقمع الثوار، وهو مختبئ هنا في ميديولانوم. يقلب جنود الحاكم الوثنيون كل حجر في المدينة الكبيرة بحثًا عنه. أسأل أحد الرجال الذين آمنوا بالرب من سكان المدينة، ويخفي دينه، فيقول:

- لا أعرف يا سيدتي.. أخشى أن ما يقال صحيح... لكم نخشى جميعًا ذلك.

- ماذا تخشون؟ تكلم! ماذا تخفون عني؟ ألم يفر الرجل من الجيش؟

- لقد فرَّ، لكن.. يقولون إنهم يقتلون جنود الفرق المسيحيين بعد عودتهم من المعركة.

اتسعت عيناي، وارتكنت إلى السور جواري. ماذا يقول يا فيكتور؟ كيف يكون هذا منطقيًا؟ ألم يكونوا يعرفون أنكم مسيحيون؟ ألم تنتصروا؟ ألم يُرسَل إليكم للحضور إلى قصر

الإمبراطور لتكريمكم؟!

تهاويت على الأرض أمسك رأسي، فأسندني المارة وحملوني إلى الكنيسة، لكني لم أقدر على المكوث داخلها، وجلست على الطريق أسأل الناس إن كانوا يعرفون ماذا يحدث، لكن الأقوال تضاربت. في المساء عرفت أنهم قد وجدوا الرجل الفار ونقلوه إلى السجن، وتأكد للجميع أنهم لن يطلقوا سراحه حتى يرتد عن المسيحية...

***

فيكتور..

هم يعذبون الرجل على الملأ في الساحة العمومية. يجلدونه، فلا يرتد. يربطونه إلى حصان ويجرونه على شظايا أوان فخارية، فلا يرتد.

الناس تتساءل كيف يتحمل تعذيبًا متواصلًا بلا طعام أو شراب؟ لماذا يتحمل؟ لماذا لا يرتد عن إيمانه ولو بالكذب؟ وبدلًا من أن يخاف أهل المدينة، زادت تساؤلاتهم عن ماهية هذا الدين السري. يقول الكاهن ماكسيموس أنه يشعر بأن هناك تغيرًا عظيمًا يقترب، وعلينا بالصلاة والصمود. نحن الآن نشهد بداية عصر معجزات جديد.

تقشعرُّ أجسادنا ونحن نسمع ما يتلو الكاهن على الرجال،

ونحن جالسات في حجرة واحدة، لا نقوى على التفرُّق:

- لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل، لكنتم تقولون لهذا الجبل: انتقل من هنا إلى هناك فينتقل، ولا يكون شيء غير ممكن لديكم.

ولم نكن نحن فقط من نسمع هذا الحديث، ولم تكن كنيستنا هي الوحيدة التي ألهمها ثبات الجندي المسيحي. هناك أمر جلل قادم، وعلينا التجلُّد.

***

لقد فر أليساندروس!

لا يعرف أحد بأي معجزة فر، لكنه اختفى.

هل أخشى الموت؟ هل تخشونه يا فيكتور؟ أنا على يقين أنه إن كان ما يُشاع أنه يحدث هو الحقيقة، فأنتم صامدون، ثابتون. أكاد أرى عيني ريجولا المضيئتين تُلهم النساء الثبات. أكاد أسمع صوت موريس القوي يأمركم أن تتمسكوا بالإيمان، أكاد أرى ذراعي فيليكس تحمي الضعفاء، أكاد... أكاد أشم رائحة دمائك يا فيكتور... لماذا أشمها؟ لماذا لا يريد قلبي أن يطمئنني أنك بخير؟ لماذا؟!

قُبيل الغروب، وقفت أبحث في الرسائل عن خبر منكم،

فوجدت من يضع يده على كتفي. التفت خلفي لأرى الراقصة الهاربة. كانت تغطي جسدها بالكامل، وعلى رقبتها آثار زرقاء.

- اسمك فيرينا. أعرف. هل لي بكلمة؟ لن أضايقك.

لا أرى ثقتها القديمة في نفسها، ولا أتعرف صوتها الذي صار مهتزًّا مرتبكًا. انتحيت بها جانبًا ووقفنا في حديقة الكنيسة خلف السور.

- قولي ما تشائين يا أختاه. سأسمعك.

- أسمعكم كل ليلة هنا تصلون، ولا أفهم شيئًا إلا من صلاتك أنت والنساء معكِ. إلى من تصلون؟

- إلى الرب الواحد. هل تريدين أن تحضري معنا الصلاة وتسمعي وتسألي عما تريدين؟

- لكني.. لست مسيحية.

- لا بأس.. تعالي.

حين دخلنا الحجرة البسيطة التي أقيم فيها مع ستة أخريات، تخففت من ملابسها قليلًا، ورأيت أثار الضرب على جسدها. كانت تعلّق في صدرها تمائم رأيتها كثيرًا من قبل، مع تمثال صغير لأحد المعبودات القديمة، ووشم لمعبود على شكل رجل ملتحٍ. ظلت معنا تتابع ولا تسأل، ثم سألتني إن

كنت سأسمح لها بالمبيت معنا، فوافقت على الفور.

كانت تجيب بالصمت كل سؤال من أسئلتي عن دينها أو أصلها أو عما كانت تفعله بعدما فرَّت. أعرف أنها جاءت لبيت الرب هاربة من شيء، ولست أنا من يطرد هاربًا أويرُد محتاجًا.

***

ثم زادت الأخبار عن الفارِّين من نساء ورجال الفرق، وصار يقينًا أن الفرق المسيحية تُباد... لكن لماذا؟!

لم أستطع سوى أن أحمل حقيبتي على كتفي، وأعلن رحيلي.

سألني الكاهن ماكسيموس:

- إلى أين؟! الوضع خطر يا ابنتي.

ألقيت إليه بخطاب أعطتنيه سيدة ممن أعرفهن في المدينة، خطاب من زوجها الجندي الوثني يخبرها أن الفرقة الكيميتية وغيرها من الفرق المسيحية تُقتل. كتب لها أن النهر صار بلون الدم، وأنه مضطر للاستمرار في مطاردة الفارين.

- وماذا ستفعلين لهم يا فيرينا؟ مكانك هنا أهم. أنت تقوين

الناس وتبشرين بالإيمان. امكثي مع النساء، هن في حاجة إليكِ. ألم تقولي إن كاتب الرسالة يقول إنهم قد أطلقوا نساء الفرق؟

- لو فعلوا، فسيأتين إلى ميديولانوم. ساعدهن على العودة إلى كيمي. الرب معكم جميعًا، أما أنا، فأهلي هناك.

- لكن...

- لكنهم ماتوا؟ أنا ذاهبة إليهم. سأصلي على الشهداء، وسألزم جوار الأحياء حتى نلقى الرب. أنا سئمت هذه الدنيا، وسأكشف كعب آكيليس للجميع علّهم يطعنونه ويكفُّون عن طعن قلبي.

لم أنتظر مرافقين، ولن أطلب. هذه رحلتي أنا، همي أنا، طريقي أنا. نفسي لن تتحمل أرواحًا أخرى تتعلق بها لأنهم يتبعونني. سأضرم النار خلفي فلا يتبعني أحد.

أتوكأ على عصاي مغادرة، فتعدو خلفي الراقصة هيلينا، تناديني، ثم تقول لي:

- سآتي معك.

- لن أصحب أحد معي.

- تعرفين أنني قادرة على الذهاب إلى أي مكان وقتما أشاء.

سآتي معكِ.

تركتها، وركبت العربة التي يقودها واحد من الأدلَّة المهرة. دفعت له كي يصحبني في رحلتي بشرط ألا تكون بيننا أي صلة أو حديث. اسمه فلافيوس، من سكان الجبال، وقد عرَّفني عليه أحد أبناء الكنيسة الجدد.

أرتجف، فأكور قبضتاي كي أثبت جسدي.

لم تنزل دمعة واحدة من عيناي. لا أشعر هلعًا أو حزنًا. كل ما مضى من عمري قد انهار، وذهب هباء.

الموت مهما قسا فهو نهاية لا تحتمل التأويل، أليس كذلك؟ هو طمأنينة من نوع خاص.

تهتز العربة، تهدهني. أغمض عيناي. أنجرف بعيدًا، إلى الماضي.

يقول لينوس:

- حلمت أنك هنا. تحت تماثيل الأباطرة تلك. واحد منهم قام خلفك، يعدو، يريد اللحاق بك. رأيتك تخوضين في الدماء والأشلاء، وهو خلفك. رائحة البخور تزكم أنفي في الحلم. كائنات غريبة تطير في السماء، تمد يدها إليك. ثم رأيتك تُخرجين مشطًا خشبيًا من صدرك، وتذبحينه به.

- مَن؟ أذبح من؟

- تمثال دايوقلشيانوس.

فتحت عيناي، وشهقت. الظلام بالخارج، العربة تتحرك. أنا هنا. أنا ذاهبة لأخوض في الدماء والأشلاء يا لينوس. نحن كالقمر في أطواره، من أنا الآن، ومن كنت؟ من يعرف؟

أنا آتية يا ريجولا. أعرف أنك لن تفارقي أخاكِ حتى لو أطلقوا سراحك. أعرف أنك ستكونين آخر العائدات، إن عدتِ...

***

نعبر الممر العظيم بين جبال بوينينوس مونس(28)، متجهين إلى الشمال الغربي، حيث قيل إن سفك الدماء قد بدأ.

ما عرفت من الخطابات التي نقلها أهل ميديولانوم وشاركوها معنا أن شيئًا ما قد حدث واستفز الإمبراطور فأمر بقتل الجميع، ومطاردة الفرق الأصغر التي كانت تقيم في معسكرات أخرى. قادة الكيميتيين هم موريس، فيليكس، كانديدوس، إكسوبيرنيس. عدد جنود الفرقة ستة آلاف وستمئة وست ستين جنديًا وضابطًا، كلهم مفقودون.

من فرَّ مبكرًا مثل أليساندروس، لاحقوه وعذبوه وقتلوه. يقال إنهم وجود أليساندروس في مسقط رأسه، فأعادوه إلى ميديولانوم ليعدموه.

كل هذا غير منطقي. كل هذا من تخاريف كوابيسي. كيف فر؟ لماذا يقتلون المنتصرين؟ كيف أتيت إلى هنا وحدي؟ هذه الجبال ذات القمم البيضاء ليست حقيقية.

كل هذا ليس حقيقيًّا.

(4)

وأما الروح فحياة بسبب البر

وصلنا سالودوروم(29).

ثمة حصن هناك، مخصص للفيالق الرومانية. شيء متجهم كئيب يشبه تلك الأشياء المتجهمة الكئيبة التي تتناثر على ضفتي فيارو. أشياء خبيثة على أراضٍ مغتصبة.

ينزل فلافيوس عند مقعده خلف الحصان ويطل عليّ في العربة ويقول:

- هذا هو الحصن. ماذا تريدين من هنا؟

- سأنزل. شكرًا لصنيعك.

- هل أعود لك في وقت محدد؟

- لو عبرتَ من هذه المنطقة في أي وقت اسأل عني. لا أعرف أين سأكون.

بصق فلافيوس، وكما اتفقنا لم يسألني عن شيء. ركب عربته وابتعد بعدما نقدته ماله. المال معي شارف على النفاد، ولا أظنني سأستطيع الدفع لأدلّة قبل أن أعمل وأبيع صنعة يدي.

ألتفُّ بالدثار، وأسير في السهل الذي تطل عليه قرية ذات بيوت حجرية رمادية حزينة. أنظر إلى النهر الواسع منخفض الضفاف عن يميني. الهواء بارد يمزق صدري. أمد عكازي إلى تيار الماء ليعلق فيها شيء لفت نظري. هذا جزء من حرملة جندي.

لا بأس.

أسير إلى القرية فأدخلها. ينظر لي أهلها كأنهم يتوقعون قدومي. لا بد أنهم قد رأوا من يشبهني هنا، فلوني وملامحي تختلف تمامًا عن تلك الوجوه الباهتة والأعين الملونة.

تقدَّم نحوي فلاح، سألني عن شيء بلغة لم أفهمها، فأجبته بالرومانية أنني أسأل إن كان أحدهم يعرف شيئًا عن جنود ونساء الفرقة الكيميتية المسيحيين.

كرر كلمة المسيحيين وهو يهز رأسه في حماس، وأشار لي أن أتبعه. هل كنت خائفة؟ كلا. ليحدث ما يحدث. سرنا في أزقة رطبة لا تصلها الشمس. الرطوبة كريهة تتسلل إلى عظامي التي تؤلمني وتُعجزني عن التنفس.

الروائح كذلك خانقة. رائحة الفلاح وملابسه، رائحة الخمور، رائحة الفضلات البشرية. ربي، كيف يعيشون هنا؟

وصلنا منزلًا أقرب لحجرة واحدة، ذا باب خشبي، طرقه

الرجل، ونادى أحدًا، ففتح له صبي متسخ الملابس. تحدَّثا، ثم أشار لي بالدخول، فدخلت.

فوق موقد حجري رأيت رجلًا مُغطى بفراء حيوان ما. أيقظه الصبي، فنظر خلفه ورآني.

- أنت كيميتية!

- أجل يا سيدي. من أنت؟

- أحد جنود الفرقة. اسمي فيليبوس.

اعتدل في جلسته بصعوبة، ولمحت ساقيه المبتورتين من تحت الركبتين. يبدو أنهم قد كووا الجرح بالنار ليغلقوه. سألته:

- سيدي، هلا أخبرتني بما حدث؟

- الحق أنني لا أعرف. لم أكن ممن حضروا حفل الإمبراطور، لكن وصل إلينا الخبر أن الكتيبة الأولى بقيادة القائد موريس تُباد.

موريس؟!

- وكيف لم تكن معهم؟

- قُسِّمت الفرقة الجبيتة إلى كتائب، كل كتيبة حوالي

خمسمئة جندي، وتفرقت على طول خط الدفاع من ليجوريا حتى أوكتودوروم. لذا لم أكن معهم.

- هل كان في كتيبتك ضابطًا يدعى فيكتور؟

صمت الرجل. فأطرقت.

- ماذا حدث يا سيدي.

- الضابط فيكتور وصديقه الضابط أوروسوس كانا في كتيبة سالودوروم. قدَّس الله أرواحهم.

- هل تعرف من يصحبني إلى مكانهم؟

أرسل معي الصبي، وسرنا بمحاذاة النهر مسافة طويلة، وكلما اقتربنا من المكان الذي نريد، رأيت الفوضى، والصلبان المهشَّمة، وآثار الحريق. فطنت إلى أن المذبحة لم يمر عليها وقتًا طويلًا، أو أن برودة الجو قد حفظت الأجساد المكومة في الحفر الكبيرة، والتي لم يُهِل عليها أحد التراب حتى.

ارتجفت ساقاي وأنا أقترب من عامود غليظ، معلق عليه جثة شخص، أظنه امرأة عارية مربوطة من ساق واحدة، وقد احترقت جثتها وأكلت الطيور بعضها.

بماذا أشعر يا فيكتور؟ لا شيء مطلقًا. تذكَّر أن هذا لا يحدث، وأنني أحلم، ويجب أن أجاري الحلم حتى أستيقظ.

خلعت عني دثاري، وبدأت أنزل الجثة لأكرم مثواها. بعد تردد، ساعدني الصبي، وكلما رآني أفعل شيئًا، أكمله بدلًا عني. سرعان ما توقَّف بعض القرويين يشاهدون ما أفعل، فتحمس بعض الرجال لمعاونتي.

كنت أصلي بصوت مسموع، ولم يكونوا يفهمون ما أقول، لكنهم يشعرون به، حتى أن امرأة أو اثنين اقتربتا مني، وفتحتا أذرعهما ليضماني.

لم أكن قد انتهت من تكريم الأهل حين حلَّ المساء، فجلست جوار أحد الآبار أحدق في الفراغ. كيف سأنام وأنا لم أستيقظ بعد؟

عاد الصبي لي وجذبني من يدي وهو يشير إلى القرية التي يسكن فيها، لكنني ابتسمت له في وهن، ومكثت مكاني. البرد يجمدني، لكني لن أترك مؤانسة أهلي طالما وجدتهم، لكن... أيهم أنت يا فيكتور؟ هل حُرمت رؤيتك لمرة أخيرة؟

الحلم يطول بي، وينبلج النهار، ويعود القرويون بآخرين لم يروني، ويتناوبون على مساعدتي في دفن الرجال والنساء على طول النهر، حتى عدت أخيرًا إلى الجندي فيليبوس، وشرعت أطبِّبه وأصلي له.

- أختاه، لماذا لا تُحدثينني؟ هل تحتقرينني لأنني هربت

بحياتي؟ لقد عاقبني الرب وحرمني ساقاي حين سقطت في فخ صيد. ليغفر لي الله.

- من أنا حتى أحكم على أحد يا سيدي؟!

- قولي لي، كم وجدتِ؟

- نحو أربعين رجلًا وامرأة.

- كنا ثمانية وستين جنديًا. أنا متأكد.

- وأين الباقون؟

- ربما فرُّوا يا سيدتي. ربما فر الضابط فيكتور معهم، أليس كذلك؟ هل هو أخوك أم زوجك؟

لم أرد. والحق أن ندرة المتحدثين بلغة أفهمها أراحتني. ليس بي طاقة لفعل أي شيء سوى الصلاة، والكتابة...

أكتب إليك يا فيكتور، ولا أقوى على الكتابة لأي شخص آخر، فقد أفضيت إليك بما لا يعرفه أحد عني. هل تقرأ هذا؟ لا أظن، لكنه سيصلك. أكتب إليك وأكتب إلى من قد يقرأ ما كتبت. الكتابة سجل لحياة نظنها اختفت في غياهب الماضي. حين أقرأ كل تلك اللفافات الآن، أراكم جميعًا، وأرى نفسي. كلا يا فيرينا، حياتك لم تذهب هباء.

في كل يوم، أحدد مكانًا مما حول القرية، أبحث فيه عن

أثر لرجال ونساء كتيبة سولودوروم. القرويون يشفقون عليَّ، ويحاولون تقديم المساعدات لي، لكني لا أطلب منهم سوى العمل مقابل الطعام أو المرافقة في الطرق المجهولة، أو السماح بالمبيت قرب بيوتهم.

لم أر غضاضة في نسج ملابس للناس، أو الطبخ لهم، أو تطبيب جراحهم. قال لي إيزوس يومًا إن الطبيب يحتاج أجرًا ليعيش، ورفض عقلي وقتها ما قال كليةً. اليوم تتوازن كفتي الميزان وأفهم أن الأجر ليس لعنة، بل استغلال الحاجة والبُخل بالمساعدة. اليوم أجد سلامًا في نفسي لم أشعر به من قبل، سلام من ترك الحمل جواره ليستريح. ووقف يفرد ظهره للمرة الأولى منذ سنوات.

اعتبرت فترة مكوثي في هذه القرية فترة تعافٍ روحي، وقبول لما حدث كما حدث.

عرف الناس من أهل البيت الذي يقيم عنده الجندي المُصاب أنني أطبِّبه، فأرسلوا لي أبناءهم الذين يعانون من أنواع غريبة من الأمراض لم أسمع بها. بعضهم لا يقوى على السير وتقوّست ساقيه. بعضهم يعاني حالات متقدمة من غزو القمل لشعر الرأس والجسد. الجو بارد هنا، وفطنت إلى أن أغلب تلك الأمراض ذو علاقة بقلة التعرض للشمس وقلة النظافة.

كل يوم أخرج والنساء إلى النهر، نجلب الماء ونسخنه، ونحمم الأطفال وأمشط شعورهم بمشطي الخشبي، الذي صنعنا مثله عشرات، واشتهر في القرية باسم مشط الكيميتية.

بعد شهر ونصف من إقامتي هناك، أخبرتني سيدة كريمة كنت أعمل عندها في رعاية حيواناتها المنزلية، بأنهم قد وجدوا سيدة من بلدي.

تركت ما في يدي وهرعت إلى المقبرة المرتجلة قرب ضفة نهر آر الهادي، المُتفرع من النهر الأكبر راينوس(30). ووجدتها هنا؛ هيلينا، تحفر أحد القبور. ناديتها، فالتفتت نحوي.

- ماذا تفعلين هنا؟ لماذا تتبعينني؟

كنت مندهشة. لست غاضبة منها. قامت ونفضت كفيها المُتربين في ملابسها وقالت:

- لست وصية عليّ. طلبت منك مرتين مرافقتك ورددتِني.

- طبعًا لست وصية على أحد. أعتذر. لكن، لماذا تنبشين هذا القبر بالذات؟ كيف عرفتِ من فيه؟

- لم أعرف، ولا أريد أن أعرف.

تركتني ورحلت، فركعت أعيد للقبر هندامه. لمحت حبلًا مدفونًا فيه، جذبته لأجد في نهايته تمثالًا فخاريًّا لرجل منقوش عليه حروف. سحر؟ هذه أمور مألوفة في كيمي، وبعض العجائز كن يرسمن صورًا للأشرار على قطع من البردي ويرشقنها بالإبر للانتقام منهم. تخاريف بالطبع، لكن جسدي يقشعر من هذه الأمور المحرمة.

أقامت هيلينا في نفس القرية التي أقيم فيها، وظلت تقدم خدمات مشينة للبعض، فكرهتها النساء، وطلبن مني إبعادها عن رجالهن؛ لا أحد يتكلم لغتنا سوانا. كن يعانين البغايا على أية حال، ولا ينقصهن كيميتية قليلة الكلام، ترتدي التمائم وتشم جسدها برسوم معبودات وثنية.

مشيت إليها وتعمَّدت أن أتخيَّر موعدًا تكون فيه وحدها. كانت جالسة تأكل فاكهة من فواكه هذه البلدة. لمحتني فتوقفت عن المضغ، ومدت يدها لي بالثمرة.

- لا أريد أن ينظر أحدًا في طعامي.

- عفوًا. لا أشتهي ثمار هذه البلاد. أختاه، هل تحتاجين إلى عمل؟

- أنا بالفعل أكسب قوتي.

- ما تفعلينه يا ابنتي رجس، وفساد بين الناس.

- وما الفارق بيني وبين الأخريات؟ لا يهم. لا تتدخلي فيما لا يخصك، ولا تعظيني.. سئمتكم جميعًا.

تركتها.. مع الأيام، توازَن كره النساء لها وغضبهم من فشلي في هدايتها، مع امتنانهم لي. لكن هذا التوازن آلم شيئًا في قلبي. لقد تركت امرأة تتخبط في طريق الضلال وقَنَعت برضا الناس عني. هل هكذا تعمل الحياة؟ هل ضعفت واستسلمت إلى هذا الحد؟

أجَّلت رحيلي عن القرية لتتبُّع مسار الكتائب حتى بداية الصيف، فلم أعد أتحمل هذا البرد. وحتى يأتي الصيف، قابلت وسمعت من الكثيرين عما حدث للكتيبة في سولودورم، حتى وصلنا كاهن مسيحي كان يُبشر بالدين سرًّا، ويسير مع قوافل التجارة ينتقل معها وفي أمانها.

تجمعنا حول الموقد الحجري الذي يرقد فوقه فيليبوس، وقد صار فراشه الأبدي. وجلس معنا أهل البيت الكرماء، يسمعون حكايات الكاهن دسيوس عن الشهداء، تلك السير التي كرَّس حياته لجمعها.

- أول حكايات الشهود، كانت في قرية روسجانيوم، في أوجونوم. لم يكن أهل القرية يعرفون شيئًا عما يحدث، لكن وقت الغروب، وجدوا ماء النهر قد تحوَّل للأحمر، وسرعان ما

جرف الماء الأجساد الطاهرة لرجال ونساء تحمل وجوههم ملامح غريبة عنهم. أغلبهم قد قطعت رأسه، فكان المنظر مما تشيب له الرؤوس. النهر هادئ، لكن الأجساد تكومت عند الضفتين ولم تتحرك أو تنجرف، وهذا غريب حتى مع هدوء الماء.

أرى وهو يحكي نظرات الهلع في عيون سكان القرية وكيف يغطون أعين أطفالهم كي لا يروا هذا الهول. يحكي، فأرى كما قيل، أن الأجساد خرجت من النهر، تقطر ماءً، تسير منتصبة بضع خطوات، تركع، تضم أكفها في صلاة صامتة طيلة الليل، ثم تسكن للأبد.

قال فيليبوس:

- لقد صار المسيح كمال الذين يشهدون للحق بالإيمان، فسدُّوا أفواه الأسود ورُجِموا ونُشِروا.

أكمل الكاهن:

- دفن القرويون الأجساد، وبعد أيام قليلة، وصل وفد آخر من الجنود والنساء الفارين، ومعهم جسد أحد قادتهم الذي عُذِّب واستشهد على يد حرس الإمبراطور بأنفسهم.

- هل تعرف اسمه يا سيدي؟

- القائد موريس.

(5)

وأن نقاوم حتى الدم.. مجاهدين ضد الخطية

قطعت الطريق مع الكاهن ديسيوس إلى أوجونوم في يومين، بعدما أعطيته كل ما جمعت من رفات الشهداء في سولودوروم. هو أقدر مني على حفظها. حين وصلت إلى مكان دفن موريس، أبي الثاني، سقط مني عكازي، وهويت على ركبتاي. وضعت رأسي على التراب الرطب وفردت ذراعاي أعانق الثرى.

أبي الثاني، بابي إلى العالم، مُفرج هم المكروبين، شمسي بعد الغروب.

تركوني ألهج بالصلاة جواره، وسط من أحبهم وأحبوه. جاءني وفد من الجنود والنساء الذين حملوا رفات الشهداء لتُدفن بعيدًا، وعزُّوني، ثم أعطاني واحد من الجنود بردية مبقعة بالدماء.

- أنت قريبة قائدنا موريس. لقد استطعنا بقوة الرب ومعونته أن ننجوا بجسده، كما كان يحاول هو النجاة بأرواحنا طيلة حياته. هذا آخر خطاب كتبه لماكسيميانوس،

ومعه خطاب آخر لم نفتحه، وكان قد أوصانا أن نُسلمه إليكِ في ميديولانوم.

ترجمت ما قال لديسيوس، فسأل:

- كيف عثرتم على خطابه لماكسيميانوس؟

- لقد تخلَّص منه، وكنا نعرف أنه يحوي آخر أوامر قائدنا، فحافظنا عليه، ونسخناه، لكن هذه النسخة معي هي التي كتبها بنفسه.

قال الجندي إنه قد عاش اثنين وعشرين عامًا، يُعِدَّه الله لهذه اللحظة، والآن هو يعرف أن الغرض من حياته قد تحقق، وهو مُستعد لملاقاه الرب؛ ما كان فراره إلا لإيصال الخطاب إلى من يحفظه، ولحماية النساء.

فتحت الختم الشمعي الذي يغلق خطابي، وقرأت:

«من موريس إلى الثمرة الطيبة؛ فيرينا.

(لا أريد أن تجهلوا أيها الإخوة من جهة الراقدين، لكي لا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم، لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع قد مات وقام، فكذلك الراقدون بيسوع، سيحضرهم الله أيضًا معه).

ابنتي، لا تحزني ولا تجزعي. أرجو أن يكون الله قد قبلني

في الملكوت، فقد حاولت طيلة عمري أن أسير على الطريق، وأملي أن أصل اليوم إلى بداية حياتي الثانية. مولودون ثانية لا من زرع يفنى، بل مما لا يفنى، بكلمة الله الحية الباقية إلى الأبد.

أما بعد، فيا ابنتي فيرينا، لقد حاربنا، وانتصرنا، وعدنا إلى معسكراتنا فرحين بالنصر، آملين في العودة إلى أرضنا. أمضينا ليلتين في الصلاة والشكر للرب، حتى تعجَّب أهل القرى المجاورة للمعسكرات من صلواتنا التي لم يشهدوا مثلها من قبل. أجل يا فيرينا، فالمسيحية لم تصل إلى هذه البقاع الشمالية كما فعلت في الجنوب. طُلِب منا أن نحضر احتفالًا في قصر الإمبراطور، فذهبت كتيبة من الكتائب وأنا معها؛ نحو ستمئة رجل. توقعنا كالعادة أن يكون هناك احتفالات وثنية، وكنا -كعادتنا- لا نشارك بها؛ هذه ليست المرة الأولى التي نحارب فيها لأجل الإمبراطورية، لكنها المرة الأولى التي نرى فيها واحدًا من الأباطرة الأربع؛ ماكسيميانوس.

انقبضت قلوبنا من هذا الوجه العبوس المستدير، وإن عرفنا بعدها أنه غاضب لسبب ما. ولما كنا نجهل الرومانية، أخبرنا مترجم من جهته أن علينا السجود والانبطاح ثلاثًا أمام الإمبراطور، والتبخير للأوثان. قلنا له إننا مسيحيون،

ولن نفعل أي من هذا، مع احترامنا الكامل لمنصبه.

سَرَت بين الجنود أخبار أن ضباطًا مسيحيين من الرومان قد حاولوا الانقلاب على حكم دايوقلشيانوس، وأن البلاط يرى المسيحية بوضعها الحالي جماعة سرية تسعى للإضرار بالإمبراطورية بعدما اكتسبت أرضية وشعبية. لا أعرف مدى صحة هذه الأخبار، لكننا رفضنا مرة أخرى. كرر الإمبراطور أمره، وشعرت أن المُترجم لن ينقل كل ما نريد قوله كلمة بكلمة، فطلبت ما أكتب به خطابًا يُترجم نصه إلى الإمبراطور.

أرسلونا للمعسكر حينًا، ثم استدعونا وصفُّونا ثم طُلب منا السجود للإمبراطور الآن، صمتنا. مشى أحد ضباط الرومان أمام الصف الأول وراح يعد الجنود ويختار من كل تسع عاشرهم، ثم ذبحهم.

عقاب الرجل العاشر الذي كان قد انقرض من تقاليد الجيش الروماني منذ زمن. وعرفت يا ابنتي أنهم سيكررون الأمر، وكلما رفضنا، قتلوا عُشر الجنود.

طُلب منا السجود، وأخذ العهد على أنفسنا أننا سنعاون جيش الإمبراطور في التخلص من مسيحيي الغال.

هل تذكرين ما علّمنا إياه سيدنا بارتلميوس؟ كيف يعرف

الشيطان أن الخطيَّة من شأنها إفشال العمل الإلهي؟ هل تذكرين الآية التي قال فيها الشيطان ليسوع: فإن سجدت أمامي يكون لك الجميع. فأجابه يسوع أنه مكتوب للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد. أعرف أننا لن ننجو. لدينا فرصة للصباح لننصاع لهم. سأطلب من فيكتور أن ينتقي عددًا من الرجال معه للذهاب وتحذير الكتائب الأخرى. سأرسل رجالًا آخرين لمساعدة النساء.

سنصمد وسندافع عن إيماننا، المجد لله في الأعالي.

سنرسل لك النساء، فلا تتخلي عنهم، وعودي بهم إلى كيمي.

صلي لأجلنا».

موريس.. موريس... رجاء يا أبي، لست أنا من يقدر على تحمل هذه المسؤولية. لن أتحمل شيئًا سوى مسؤولية نفسي البائسة الكئيبة.

نهضت ثم ناوت خطاب موريس إلى الكاهن، ففتحه، ولم يعرف كيف يقرؤه، فأعاده إليِّ، وجلس يكتب ترجمتي للنص وأنا أقرأ بصوت عالٍ:

- أيها الإمبراطور العظيم، نحن جنودك، لكننا في نفس الوقت عبيد الله. نحن ندين لك بالخدمة العسكرية، أما الله

فندين له بولاء قلوبنا. نحن نأخذ منك الأجر اليومي، أما الله فسننال منه الجزاء الأبدي. لا يمكننا بحال من الأحوال أن نطيع الأوامر المخالفة لله. إذا اتفقت أحكامك مع أحكامه، فنحن ننفذها، وأما إذا تعارضت، فلن نقبلها إذ ينبغي أن يُطاع الله أكثر من الناس.

لسنًا ثوّارًا، فالأسلحة لدينا وبها نستطيع أن ندافع عن أنفسنا ونعصاك، لكننا نفضل أن نموت أبرياء على أنعيش ملوّثين، ونحن على استعداد لتحمُّل ما تصبه علينا من أنواع التعذيب لأننا مسيحيون ونعلن مسيحيتنا جهارًا.

الكتيبة الكيميتية.

قلت للجندي الذي سلمني الرسالة:

- أوصل النساء إلى ميديولانوم. لن أستطيع العودة قبل أن أعرف مكان ريجولا.

لكن الخطر كان على أشدّه في العاصمة، والأسلم أن تختبئ النساء في مكان آمن حتى يهدأ الوضع. لم أجد مفرًّا من العودة بهن إلى القرية جوار حصن سالودوروم، حيث لا يتوقع الرومان أن يختبئ مسيحيون جوار حصن عسكري.

ظل الكاهن معنا، لما فينا من رغبة في أن تقام شعائرنا فتقوينا على خوفنا وغربتنا، وعرفت أن ديسيوس سيكون

رفيق رحلاتي لا محالة، فإن كنت سأغادر بحثًا عن ريجولا وفليكيس وجسد فيكتور، فطريقه هو طريقي، والارتحال مع القوافل سيحمينا إلى حد كبير.

مكثنا في القرية خمسة أشهر، كلما حاولنا الخروج، جاءتنا أنباء عن معجزات الفارِّين بدينهم، وكيف يهربون كلما حُبسوا، وكيف يتحملون كشط الأجساد وشدها وسلخها أمام الجميع، فيخرج الوثنيون من ساحة التعذيب وفي أنفسهم شيء من المسيحية، وتساؤلات عن الإيمان تؤدي إلى زيادة أعداد المسيحيين، وزيادة حنق الرومان.

أسمع هذا وأبتسم رغم مرارتي وحزني وآلامي. نحن نحيا من رمادنا مثل فينيكس الأساطير، أو كالهايدرا، كلما قُطع له رأس، نما بدلًا منه رأسان.

أقام الكاهن ديسيوس قدَّاساتنا، وكتب عن كل من النساء سِيَر الأهل الذين استشهدوا من خلال ترجمتي ما يقولون إلى الرومانية. كان هذا في منتصف شهر توت بتقويمنا، والشهر التاسع بالتقويم الروماني. كانت النساء تحكي وهن يخزنَّ المحاصيل ويجففن اللحوم وينظفن الحظائر قبل دخل الشهور الأبرد، أشهر الزرع عندنا في كيمي.

أتساءل عن الفيضان في بلدنا الآن، هل عم الخير البلاد وواسى الفقراء، أم أهلكهم غرقًا أو جفافًا؟

بحلول الشهر العاشر بتقويمهم، كان البرد على أشدِّه، وكذا الخوف من الجوع والأعاصير والعواصف. اقترحت أن نتحرك إلى الجنوب، لكن الكاهن دسيوس أنذرنا من هذا، فإن كانت هجمات الرومان ستقل بسبب مخاطر البرد، فلهذا السبب علينا الانتظار حتى ذوبان الجليد وجفاف الوحل المتخلف عنه.

***

قبل القدّاس في يوم عاصف، سألني الكاهن:

- وأنت يا أختاه؟

- ماذا؟

- حكيتِ لي عن الشهداء الذين تعرفينهم، ولم تحكِ لي عن نفسك.

- لستُ شهيدة... بعد.

- لكني أود أن أسمع منكِ. لست ككل النساء هنا. من أين لك بعلوم الطب واللغات والأساطير الهيلّنية؟ من أين لك هذا الجَلَد العجيب؟

- من عند الرب.

- ماذا تخشين؟ احكِ لي. لن أكتب ما تقولين.

زفرت، ثم قلت:

- عِدني أنك لن تكتب ما سأحكي حتى ألقى الرب، وعِدني ألا تكتب عن أي شخص في حياتي سوى الشهداء الذين حكيت لك عنهم، بداية من سيدنا بارتلميوس، ونهاية بسيرة موريس.

وعدني، فحكيت. وأنا أحكي، اجتمع أهل القرية حولنا كعادتنا، بل إن بعضهم استدعى آخرين ليسمعوا. لغتنا مختلفة، لكن منهم من يألف الرومانية، وينقل عني ما أحكي، فتشهق سيدة هنا، أو يمسك رجل دمعة فرَّت من عينيه.

قمنا للقداس، وكان الحضور أكبر من قدرة الكنيسة المرتجلة التي أقمناها بالحجارة في منتصف القرية. الشموع تنير قلب تجمع البسطاء هذا. ثم قام الكاهن ديسيوس، وخطب فينا بالرومانية وأنا أترجم بصوت خاشع للنساء حولي:

- بعد أن حكيث لكم كيف خدع الملك هيرودوس المجوس كي يعرف إن كان يسوع قد ولد بعد، فلم يعودوا له بإجابة سؤاله، سأحكي لكم ما حدث بعدها. حينئذ لما رأى هيرودوس أن المجوس سخروا به غضب جدًّا، فأرسل وقتل

جميع الصبيان الذين في بيت لحم وفي كل تخومها، من ابن سنتين فما دون، بحسب الزمان الذي تحققه من المجوس. حينئذ تم ما قيل بإرميا القائل: صوت سمع في الرامة، نوح وبكاء وعويل كثير. راحيل تبكي على أولادها ولا تريد أن تتعزى، لأنهم ليسوا بموجودين.

ثم في القداسات التالية، بدأ بعض القرويين يسألون إن كان ما يحدث هو أول اضطهاد للمسيحيين، فأجابهم الكاهن ديسيوس بحكايات الاضطهادات الأولى، بداية من اضطهاد اليهود والفريسيين وسجن بعض تلاميذ يسوع الاثنى عشر.

- واحد من أولئك التلاميذ هو القديس بيتروس، الذي أسس كنيستنا هنا، وظل بيننا حتى قتل خلال الحريق الكبير واضطهاد الإمبراطور نيرو.

ثم أسهب في سرد قصص الشهداء، ما أرجف بعض الذين قد اعتنقوا المسيحية سرًّا من أهل القرية، وبعضهم لم يكن يفصح لأهله بإيمانه ما لم يكونوا قد آمنوا معه.

ثم ذاب الثلج وجف الطين، وبدأنا نُعِد العُدة لنتحرك صوب الجنوب لنوصل النساء إلى ميديولانوم. حينئذ وصلتنا أنباء من الحاضرة الغائبة الغامضة؛ هيلينا.

(6)

فالذين تشتتوا جالوا مبشِّرين بالكلمة

كنا ركبًا كبيرًا، فيه أسرتان من أهل القرية الطيبة وقد تحولوا إلى المسيحية، ومعنا الراهب ديسيوس، والجندي فيليبوس مبتور الساقين، وبالطبع هيلينا. أما النساء فقد تحركن جنوبًا مع الجنود الآخرين من الكتيبة، على أن يعودوا إلى كيمي ولا ينتظروني ما لم أرسل إليهم خطابًا بغير ذلك خلال شهرين.

وصلنا توريكوم(31) غربًا، حيث أرشدتنا هيلينا وحكت لنا عن يقينها المرعب. المفاجأة هي أن أكثر من مئتي شخص قد اعتنقوا المسيحية حديثًا بعدما رأوا ما رأوا. أجلستنا هيلينا مع سيدة مُسنة قررت أن تنعزل عن الحياة وتمضي ما تبقى من عمرها تصلي للرب أن يغفر لها ويُلحقها بالشهداء، بسبب المعجزة التي رأتها.

جلس ديسيوس يدوِّن ما تحكي، وبعد عدة أسطر، رفع عينيه إليها وتعلَّقت يده في الهواء.

- بعد تعذيب الرجلين والمرأة، وكلهم كما قلت من الفرق التي جاءت من أيجبتوس(32)، قُطعت رؤوسهم أمامنا

قبيل الغروب، ومُنعنا من الاقتراب منهم أو محاولة تغطيتهم. كانوا قد سُجنوا وعُذبوا، وبعد قطع رؤوسهم، جاء الحرس بحاجياتهم فأحرقها جوارهم، كي لا يأخذ أحد المسيحيين من رفاتهم شيئًا. ثم في الليل، سمعنا الحرس من الرومان يتصايحون في جزع. هرعنا من بيوتنا لنرى ما يجري، فرأينا الشهداء الثلاثة يقومون من موتهم، كل يحمل رأسه على ذراعه. لا تؤثر فيهم ضربات الجنود ولا يقدر أحد على الإمساك بهم من هول ما نرى. صعد ثلاثتهم التل القريب، ورأينا أضواء من السماء تظللهم، ثم ركعوا وصلوا للرب بصوت وصل لكل واحد فينا فأسقطنا مغشيًّا علينا، ثم ماتوا مكانهم.

ارتجفت وأنا أنظر نحو الكاهن، ثم نحو هيلينا التي قالت للمرأة:

- هلا وصفتِ هذه السيدة مرة أخرى؟

- نحيلة، متوسطة الطول، سمراء، ذات شعر أسود مموج. طيلة فترة تعذيبها، كانت تتشبث بالشاب معها، وتصرخ في الجميع شيئًا لم أفهم معناه. لكنها كانت شجاعة، لم تطلب الرحمة ولم تركع أبدًا. حاول الجنود إرغامها على الركوع كي يقطعوا رأسها من الخلف، لكن هذا كان مستحيلًا. رغم نحولها وضعفها كانت عفيَّة، عفيفة. لم تتعرَ ولم تركع ولم

تنحنِ. اضطرَّ الجنود إلى قطع رأسها وهي واقفة، فلم تهتز ولم تسقط رغم توالي الضربات. لم تهوِ على وجهها، بل على ظهرها هوت، وتأرجح رأسها يتأمل السماء في سلام.

أخرجتُ الصندوق الخشبي المحترق الصغير من حقيبتي. كان هذا هو الأثر الذي وجدته هيلينا، وربطت بينه وبين الوصف وبين رفيقتي التي رأت الصندوق في يدها حين تقابلنا أول مرة في راكوتيه. مررت أصابعي على مكان نقش السمكة، وبكيت.

صمت الجميع، وعانقتني هيلينا، بل وبكت هي الأخرى وهي تقول لي:

- وجدت ها هنا جسد يوليوس.

في الصباح التالي، صعدت إلى التل مع السيدة العجوز وهيلينا والكاهن ديسيوس. صلى الأخير على الثلاثة، ثم استأذن مني أن يدوِّن سيرتي فيليكس وريجولا.

- لا بأس. يمكنك أن تأخذ ما تبقى من متعلقاتهم، لكن دع الصندوق لي.

تربعت على الأرض أحدق إلى قبر ريجولا المجاور لقبر أخيها، وقد عرفت أن ثالثهما رجل تقي يُدعى إكسيوبيرانتيوس. كيميتي مسيحي، رافق الفرقة وقد جاوز

الخمسين من العمر.

تربعت هيلينا جواري، وقالت لي:

- يوليوس مدفون في قرية أخرى في الشمال. دلَّتني النجوم عليه، وكذا دلتني تماثيل الرؤية.

- من هو يوليوس؟

- حبيبي. الشخص الوحيد الذي أحببت منذ كنت مراهقة، تتلقفني الأذرع وتُعريني الأيدي والنظرات. لم يكن مسيحيًا وقتها. دفع لمرافقتي في ليلة، وكانت هي المرة الأولى التي يمس فيها امرأة. ظل يتحدث ويحكي عن السنة التي مرت عليه في كتيبة راكوتيه، وظللت أسمعه وأبتسم. أخذني يومها في جولة في الشوارع النظيفة، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أسير فيها يدًا بيد مع جندي راكوتي، وأرى كل شيء من عيني نساء الطبقة الثرية المدلَّلات. زُرنا المسرح ورأيت الراقصات، وشغف قلبي بحب الرقص والتمثيل. حرَّمت جسدي على الرجال، وتعذبت كثيرًا ممن أعمل لديهم حتى فررت، وعرضت نفسي على فرقة رقص، وأنا لا أعرف أنني لا أفر من عذاب إلا إلى وَصَب. لكنني كنت أدفع الليالي حتى يأتي موعد لقائي ويوليوس، لأحيا من جديد حلمًا تمنيت ألا ينتهي.

حكت لي هيلينا كيف استمرت علاقتهما ثلاث سنوات، وعرفت بعدها أنه يرغب في الزواج من قريبة له، لكنه وعدها أنه لن يتخلى عن علاقتهما. هنا لم تجد مفرًّا سوى السحر. زارت العرافين لتعرف مصير علاقتهما، فقيل لها إنه الفراق. لم تهنأ ليلة واحدة حتى تعلمت فنون السحر، واشتهرت بين الراقصات به، لكن كل ما فعلت كي تستبقي يوليوس لم يُثنه عن الزواج، لكنه ظل وفيًّا لوعده.

- أنا ساحرة بارعة، أؤمن بالإله سيرابيس العظيم وأزور معبده. رأيت معجزاته في الشفاء وسمعت رؤى كُهانه عن المستقبل. لم أفشل مرة في سحري، حتى أنني حين أكتب الطلاسم لربط رجل بامرأة، وأكتب أنه سيموت في حبها، فإنه يموت حقًّا. أنت شهدتِ هذا في راكوتيه. الرجل الثري الذي سقط من شرفة منزله وهو يراقب زميلتي التي تحبه.

عقدت حاجباي، وابتلعت ما أريد قوله لها عن خطر ما تؤمن به وتفعل. سألتها:

- أنت هيلِّنية؟

هزت رأسها إيجابًا، ثم أردفت:

- هيلِّنية لكن لا أعرف سوى كيمي وناسها ولغتها. تحوَّل حبيبي إلى المسيحية، وظل يحدثني عن التطهُّر والعفة.

قلت له أنني سأعيش تحت قدميه لو ترك امرأته وتزوجني، سأعتنق دينه لو صار لي وحدي، لكنه... لكنه تركني، واختفى. غضبت... جننت... انتابتني لوثة فرحت أصادق الجنود من كل مكان، كنت أنتقم منه فيهم، ثم فطنت إلى أنني أنتقم من نفسي.

قالت هيلينا إنها عرفت أن الفرقة الكيميتية ستسافر إلى الحرب عبر البحر، فذهبت تستشير العرافين، وقيل لها إنه الفراق لا محالة. جُنَّت، وحاولت أن تنضم لنساء الكتائب كي تسافر معه. وعدها أحد الجنود بأنه سيصحبها، لكنه خلف وعده؛ لم يكن أساسًا ضمن المسافرين. وأخيرًا استطاعت أن تصل إلى حبيبها...

- حين قابلتكما، كنت أريد أن أعرف كيف أصل إليه. لكنني وصلت على أية حال بسؤالي نسوة أخريات. قابلته، فطعنني بنظرة لم أتوقعها منه. لكم شعرت بحقارتي وقتها. كل الطين الذي خضت فيه طيلة عمري لا يقارن بنظرة الاستعلاء التي رمقني بها، ولا بالطريقة التي لف بها كفه بردائه كي يدفعني عن طريقه دون أن يمسَّني. هذه هي المسيحية إذًا؟ صرتم آلهة تُعبدون؟

- ابنتي، هذا مسيحي واحد...

- كان كل المسيحيين في نظري وقتها. لم يكن لي عيش

في راكوتيه بعد يومها. كل طريق يذكرني به، كل نسمة هواء هي كلماته الخجلة حين كنا صغيرين. أردت الانتقام.. أردت أن أقتله بيدي فلا ينال الشهادة المزعومة. لكني، أحبه... أتفهمين؟ في الليل حين أغمض عيناي على هذه الأرض الغريبة، أرى ملامحه فقط. أنا أحبه، وما جاء بي عبر البحار هو ما جاء بك وما جاء بكل الكيميتيات الأخريات. المحبة. أن نموت معًا فيُحرم علينا الفراق. رأيتني فيكِ، رأيتني في صديقتك وتمسكها بأخيها. رأيت الأمل يا فيرينا رغم أنني كنت أفضل أن يظل قلبي قاسيًا، لا ينوي سوى الانتقام. والآن، هو قد مات. هل هو شهيد؟ لقد عُذِّب قبل موته، فهل سيغفر له هذا العذاب كسر قلبي؟

سألتها وأنا أمسك كفيها:

- هل تريدين أن يغفر له الله؟

- من كل قلبي. لو أن إلهكم حقيقي، فسأتضرع له ما بقي من حياتي كي يغفر له.

- إلهي حقيقي، وهو يعده ويعدك المغفرة. يقول يوحنا الرسول: ولكن إن اعترفنا بخطايانا فهو جدير بالثقة وعادل، يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم.

لفَّت ذراعيها حول جسدي واهتزَّت ولهجت بكلمات

مختلطة. شعرت ببلل يخترق ملابسي، فضممتها إليَّ أكثر. يعزِّيني الله بهذا العناق، كأنما ريجولا بُعِثت لتندس في صدري تحت شجرة الجميز.

تشاركنا جميعًا وأهل القرية من المسيحيين في بناء حجرة فوق القبور الثلاثة، وأقمت أنا فيها بعيدًا عن زخرف الدنيا. لم تكن توريكوم آمنة، فقد أظهر مسيحيُّوها صلابة غريبة، وراحوا يبشرون بالمسيحية في كل مكان، لا يخشون استفزاز الرومان ولا لوم اللائمين.

ثم ماتت المرأة العجوز التي عرفتني إلى أهل القرية، وكان آخر ما سألت الكاهن ديسيوس قبل موتها بيومين:

- ماذا تكتب يا بني؟

- سير الشهداء والقديسين.

- وهل فاتتني الشهادة لأنني لم أعذب وأقتل مثلهم؟

- كل إنسان مدعو للقداسة يا أماه. نحن مدعوون للسعي للكمال الروحي. قال الله في الخلق: لنصنع الإنسان على صورتنا كشبهنا، وهذا الشبه هو القداسة. هل تودين أن تحكي لي عن حياتك؟

حكت له، ودوَّن سيرتها. تعمَّدت السيدة الطيبة قبل وفاتها،

ثم أغمضت عيناها في سكينة، ودُفِنت في بيتها في موضع فراشها.

لم تنضم هيلينا إلى الإيمان المسيحي، لكنها غيرت ملابسها بأخرى محتشمة، وطلبت مني أن أعلمها الغزل والحياكة، ففعلت.

عشنا في هذا المكان المبارك، جوار قبر أختي ريجولا نحو أربعة أشهر، وقد اطمأنت إلى وجودي جوارها وأنست بها. كتبت إلى الكاهن في ميديولانوم أخبره أنني لن أعود معهم إلى كيمي؛ أهلي هنا، تحملني القلوب كطوف فوق سطح ماء هائج.

شاع بين القرى أنني طبيبة بارعة، وقيل إنني ساحرة مما كان الوثنيون يتداوون بخلطاتهم العشبية، وقيل إنني قديسة حية، وقيل إنني امرأة كيميتية ذات علم وتقوى. أثار كل هذا جزعي، ودفعني للعيش في مغارة بعيدة، لا يصلني فيها هذا المديح الذي هو مجد باطل يأتي من الناس. صلتي بالعالم كانت هيلينا التي تأخذ مني ما أغزل وتبيعه لي.

مكث الكاهن الطيب وسط الناس، وقد بدأت سير الشهداء تتجمع أمامه دون مشقة بحث، لكني كنت أعرف أنه يخشى أن يتركني، كأنه يستلهم شيئًا من وجودي، أو كما قال: «أنت قديسة يا أختاه، تنظر الصعود إلى الملكوت، وهو شيء لم

أحضر مثله في حياتي، ولن أفعل».

قال إنه يعرف يقينًا أن الرب سيرفعني مكانًا عليًّا، حتى أن الناس بعد ألف سنة سيذكرونني وسيزورونني، وأن وحدتي انتهت في اللحظة التي قررت فيها وأنا طفلة أن أهب حياتي للآخرين.

ابتسمت، وابتعدت عن كلماته أكثر. صرت أحضر القداسات في آخر الصفوف، وأطبب المرضى وأعودهم في بيوتهم ليلًا دون أن يراني أحد. لكم أخشى إخفاقاتي، فيضيع عليَّ الملكوت وأفتخر بما أنا فيه.

وكم كنت مخطئة حين ظننت أنني وجدت راحتي وعزلتي، ففي خلال أسابيع قليلة من إرسال رسالتي إلى ميديولانوم، سمعت أصوات الخيول وصليل السيوف. وحين نظرت إلى الأسفل من مغارتي، وجدتي جند الرومان يصعود إليَّ. لقد عرفوا مكاني من خطابي...

***

اليوم الأول...

حُبست في زنزانة وحدي، الرطوبة والبرد يحيطان بي، وقد أخذوا مني جميع ملابسي عدا التونيك الطويل الذي يستر ولا يدفئ. ظللت في مكاني بلا طعام، وإن أتوا لي بوعاء

نحاسي به ماء.

اليوم الثاني...

لم يزرني أحد. توقعت أن يعذبوني، لكن شيئًا لم يحدث. تُرى هل يبحث ديسيوس وهيلينا عني الآن؟

اليوم السادس...

أخذوني دون كلمة واحدة إلى قاعة خارج السجن، ورأيت وجوهًا مألوفة من أهل القرى المحيطة، أغلبهم ممن يكرهونني ويرونني خطرًا على نسائهم وأبنائهم بذلك الدين الذي يفرق بين الوثني والمؤمن. قيدوني، وأجلسوني على الأرض. لم أحضر محاكمات رسمية من قبل، لكن يبدو من ملابس الرجال الخمس الجالسين على مقاعد خشبية أنهم قضاة أو حُكام. قدَّم الحارس واحدًا منهم على أنه حاكم المدينة، أما الآخرون فهم أعضاء في مجلس قضاء محلي.

قال أحد القضاة بصوت كفحيح الأفعى:

- اليوم نحكم فيما نُسب لفيرينا من إيجبتوس من ممارسة السحر والشعوذة، ومرافقة الساحرات، والشفاء بكلمات وطلاسم، والتفرقة بين الأزواج. وقد تأكد لدينا أنها تسكن مغارة وحدها، لا يزورها فيها سوى امرأة هيلّنية يُقال إنها ساحرة، تدور على قبور القتلى من المسيحيين لتُدسّ فيها

تمائم سحرية.

اتسعت عيناي وأنا أسمع التهمة الموجهة لي! أنا ساحرة؟! تقدم شاهد تلو الآخر، يتحاشون النظر إليّ وهم يحكون كيف مارست السحر معهم، وكيف آذيتهم، بل وكيف ادّعيتُ أنني مسيحية حتى اتبعني الناس من كل حدب صوب.

قال رجل ستر وجهه بشال من الصوف:

- هذه المرأة كانت تطوف على المنازل ليلًا، وتصنع اللبخات والشّربات للعلاج بطرق لم نسمع عنها. هي تتحدث عدة لغات، وتحضر قداسات المسيحيين، وتُثبت في أذهان الناس أن موتاهم يقومون بمعجزات. هؤلاء القتلى سحرة، لقد شهد الناس أفعالًا مخيفة تصدر عنهم وهم موتى يا سيدي.

قالت امرأة أخرى:

- المرأة من إيجبتوس تدّعي أنها مسيحية، لكنها لا تُبشِّر بدينها كما يفعل المسيحيون الآخرون، ولا تفر بروحها كما يفر الآخرون، ولا تُعذَّب كما يُعذَّب الآخرون، بل تمضي من بلدة إلى أخرى تفسد فيها.

رأيت بين الجلوس ديسيوس، يخفي وجهه، وجواره ثلاثة من أهل القرية التي كنت أسكنها؛ مسيحيون هم. أشار لي ديسيوس إشارة خفية إلى محل قلبه هو يومئ برأسه. ماذا

يحدث لي؟ هل أنا متهمة بالسحر حقًّا؟!

سألني القاضي عن قولي فيما نُسب إليّ، فقلت إنني بريئة، وإنني مسيحية. طلبت أن يسمعوا شهودًا يؤكدون كلامي، سرت غمغمات من خارج القاعة، ورأيت هيلينا تحاول العبور إليّ مع نسوة مسيحيات أخريات، لكنهم أغلقوا الباب في وجوههن.

أرسلوني إلى الزنزانة مرة أخرى دون أن ينطقوا بحكم.

اليوم السابع...

بلا طعام أو شراب. الإعياء يزيد عليّ، ولا أستطيع الجهر بصلاتي بسبب جفاف حلقي. يخيل إليّ أنني أرى أشخاصًا حولي، لكنني أتوهم. لا يوجد أحد...

اليوم الحادي عشر...

أعطوني بعض الطعام في الأيام السابقة، ودخل عليّ اليوم رجل أربعيني يرتدي زيًّا فاخرًا. أحضروا له مقعدًا فجلس أمامي وأنا منطرحة على الأرض. هذا هو القاضي.

- فيرينا. اعترفي أنك لست مسيحية، وأنك ساحرة. سنخفف عنك الحكم وسنتركك تعودين إلى بلدك.

صمت. ابتسم ابتسامة جانبية، وأضاف:

- لن نعذبك إن كنت تتوقين للتعذيب والجهر بدينك كما فعل الآخرين. تعذيبكم ما هو إلا شرارة تشعل النار في القلوب، فيؤمنون بدين يسوع الناصري. لن نعذبك علنًا. لن يجدي مع امرأة مثلك هذا الأمر. اعترفي الآن، أو اعترفي لاحقًّا.

اليوم الحادي والعشرين...

الإعياء، الإعياء..

يدخل حارسي المألوف ومعه سكين حاد، يوثق ذراعاي خلف ظهري، ثم يركع خلفي. يعري شعري وأنا غير قادرة حتى على المقاومة، غير قادرة على تحديد إن كان ما أرى وأسمع حقيقيًا.

أمسك بجديلة من جديلتي الطويلتين، وقطعها بالسكين من منبتها. أعتقد أن أذني جرِحَت، لكني وقتها كنت أضيق عيناي وأنظر إلى ركن الزنزانة المظلم خلف الباب، شفتاي تلهج بصلاة لا تنقطع. من هذا؟

سمعت صوته قبل أن أراه يقول لي:

- وكانت هذه هي سيرة القديسة فيرينا الكيميتية، التي جلبت الوبال على...

ثم تقدَّم نحوي، فرأيته طويلًا ملفوفًا بالتوجا الكاملة المزخرفة، شعره على جبينه مثبت كحلقات. إيزوس...

رفع يده طويلة الأصابع أمام وجهه وأكمل:

- ... أبيها وأمها، فأفلستهما. ربيبتها ريجولا فطاوعتها على الهلاك، أهل قريتها فأهلكتهم حرقًا ثم يأسًا من بعد أمل، ثم الصغيرة البائسة مينريت التي تُغتصب الآن لأنك قررت إنقاذها، فقتلتها حية، ثم لينوس المخبول الذي حبسته من بعد فرار طال، ثم دانيال الذي ساعدك، فورطته، ثم أرسلته لمصير مجهول في الصحراء، ثم فيكتور الذي تكبَّرتِ عليه، فمات مفطور القلب، ثم هيلينا التي رددتها، ثم ورطتها معك بعدما أغلقتِ باب رزقها، ثم... ثم من يا فيرينا؟ أنا عاجز عن العد يا بُنيتي.. ثمانية وعشرون عامًا كنتِ فيهم وبالًا، وبأي اسم؟ آه.. باسم المحبة، والدين والآب والابن والروح القدس!

ضحك، فزمجرت رافضة إهانته لديني. وكزني حارسي بين لوحي كتفي كي أكف عن الحركة، ورأيت جديلتي الثانية تسقط أمامي.

أزمجر، وأسمع زمجرة أخرى أقوى. سبع يخرج من خلف إيزوس ويسير في تؤدة نحوي. سبع له عينا إيزوس الميتتان.

- والآن يا فيرينا، يؤسفني أن أعلن عجزي عن إصلاح ما فعلتِ، بل أعلن انبهاري بما فعلت وعجزت أنا عن فعله لمئات الأعوام، منذ صرخ يسوع الناصري صرخة ميلاده الأولى، وحتى قام.. أحقًّا قام يا فيرينا؟ أتعرفين، لقد قيل إنه ساحر يشفي المرضى، وقيل إنه مُدعٍ، وقيل إن أتباعه يموتون معذبين. أي دين هذا يا فيرينا الذي يلقي بأبنائه إلى التهلكة؟ أين عقلك يا بُنيتي؟

همس الحارس من خلفي بعدما أتمَّ مهمته:

- تجلَّدي...

ثم خرج، وأغلق باب الزنزانة فعدتُ أسبح في رماديتها الكئيبة. أمسكت جديلتي في يدي، فتحرَّكت كحية داكنة، تفحُّ في وجهي وتقول:

- لن تموتا..

قال إيزوس:

- لكن الرب قال لآدم، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكلا منها، لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت. لكن يا للمفاجأة! صدق إبليس، وعاش آدم! فكانت كل أيام آدم التي عاشها تسعمئة وثلاثين سنة، ومات. أليس هذا مذكور في كتابك؟

إيزوس ليس هنا، هذا عقلي فقط. لكن بعد كل هذا تدور في نفسي هذا الأفكار الرديئة؟! لقد قال الرب: والإنسان الشرير من كنز قلبه الشرير يخرج الشر.

يدور السبع حولي، يتشمَّمني، ثم يكمل سيرة إلى الركن المقابل خلفي. اتبعه بعيناي، فأراه ينهش جسد مينريت التي تنادني بلا صوت، فأقرأ شفتيها: فيرينا! أنجديني!

أشعر بمخالب إيزوس تُدير رأسي نحوه، وجهه أمام وجهي وهو يقول:

- فيرينا الذكية. إن كنت حقًّا تريدين الخير للناس، فكُفِّي عنهم. اعترفي بما يريد القاضي وارحلي. إن كانوا يريدون أن يظلوا على دينهم الجديد أو يرتدوا لوثنيتهم فهذه ليست مسؤوليتك. أما لو صمدتِ أكثر، فدماء كل من يُقتل باتباعك على رأسك. أنت حتى لا تعرفين إن كنتِ على حق، أم تؤمنين بباطل! كفاكِ مكابرة!

مددت يدي نحو مينريت، لكني لم أجدها، ورأيت بدلًا منها لينوس يوم سقط على الأرض في الشارع هو يفر من دار أبيه.

- فيرينا.. ليس السبع من نهش جسد بارتلميوس، بل هو. نفسه قد التهمته، وها هي نفسك تلتهم أحباءك. الكِبر

يا فيرينا.. أول الخطايا، لا تذكرين؟ الكبر الذي نصَّب بارتلميوس سيدًا لكم، الكِبر الذي جعلك تثقين في قدرتك على إنقاذ الجميع. هل تريدين مواجهة نفسك يا فيرينا؟ أنا مرآتك.. أنت تبحثين عن عائلة وأرض، وفشلت في العثور على أيهم. ها أنت وحيدة في أرض غريبة. كيف يوصلك الطريق الصحيح إلى الهلاك؟ بحسبة صغيرة -تذكري دروس الحساب- ستجدين أنك اخترت الطريق الخاطئ منذ البداية. لا يمكن أن يكون ناتج سعيك للسلام هو الحرب.

قلت له وأنا أرفع رأسي بما تبقى لي من قوة:

- بل يأتي السلام بعد الحرب. أنت أيها الخبيث من جعلتني أحيد عن حربي. أنت من أخفتني من الهزيمة. أنت من أهلت على رأسي دماء الناس، وما هي إلا دماء شريفة تباركني ولا تلعنني.

استقام إيزوس واقفًا. ضحك. تراجع بضع خطوات، ثم رأيت نورًا أعماني فأغمضت عينياي للحظة. فتحتهما لأجده واقفًا، يضم كفيه إلى بعضهما أمام صدره، وخلفه جناحان عظيمان يخترقان حدود الزنزانة. أجفلت وتراجعت إلى الخلف حتى التصقت بالجدار.

قال بصوت مهيب:

- ها أنا مُرسل ملاكًا أمام وجهك ليحفظك في الطريق، وليجيء بك إلى المكان الذي أعددته...

مد يده نحوي. صحت:

- ما أنت؟! ما أنت؟!

- أنا جبرائيل الواقف قدام الله، وأُرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا...

- كاذب! أنت لست ملاكًا!

- بحسب أعمالك يا فيرينا تجدينني. لو كنت شقيَّة، فأنا شيطان، وإن كنت تقية فكيف تكذبينني؟!

صوت الحارس يتردد في أذناي: تجلَّدي. أهو من قال هذا أم نفسي؟ تجلَّدي يا فيرينا.. تجلَّدي...

أخبئ وجهي خلف كفي، أصلي...

إلى متى يا رب تنساني؟ إلى الانقضاء؟ حتى متى تصرف وجهك عني؟ إلى متى أردد هذه المشورات في نفسي، وهذه الأوجاع في قلبي النهار كله؟ إلى متى يرتفع عدوي علي؟ انظر واستجب لي يا ربي ويا إلهي أنر عيني لئلا أنام نوم الموت، لئلا يقول عدوي: إني قد قويت عليه. الذين يحزنونني يتهللون إن أنا زللت، أما أنا فعلى رحمتك توكلت...

كف يلمس كتفي، أجفل، أفتح عينياي لأراه، موريس العزيز، يقف خلفه عشرات الشهداء. أرى ريجولا خلفه تبتسم وتطمئنني. يقول موريس:

- نحن الفلاحون يا فيرينا، نصلي شكرًا للرب على فيضان خير، نبذر وندعو الرب أن يبارك زرعنا، ثم نحصد. الموسم موسم الحصاد يا ابنتي فابتهجي بنتاج زرعك كما نبتهج نحن. أنت الثمرة الطيبة التي نبتت من بذرة طيبة، أنت شجرة الجميز التي احترقت، فنبتت في كل مكان وخرج من رحم إيمانها آلاف الثمار الطيبة. ابتهجي...

رددت دون تفكير: ولكننا بحسب وعده ننتظر سماوات جديدة، وأرضًا جديدة يسكن فيها البر. يد موريس على كتفي تهزني، أدقق النظر إلى وجهه فأرى وجه ديسيوس، عاقدًا حاجبيه، يهمس لي:

- سيدتي.. هل أنت واعية؟

- ديسيوس؟

- أجل...

قرَّب مني قدح ماء، فشربت ومسحت وجهي بما تبقى منه وهو يقول:

- ركزي معي. سيدّعي الحراس أنك توفيتِ، ولا تقلقي بشأن أن يعرفوا الحقيقة. الرجال كلهم معنا. أنت لم تغيبي عن عقولنا وقلوبنا لحظة. الإيمان يدخل النفوس يا سيدتي، والغضب تغلي به أفئدة الرجال.

- ماذا تقول؟ ماذا يحدث بالخارج؟ كم لبثت هنا؟

- ثلاثة أشهر. قبائل من الغال يهاجمون البلاد تأرًا، المسيحيون من الغال. لقد اشتغلت جذوة الحرية في النفوس بعد أن وجد المؤمنون قوة الرب معهم، وعرفوا عدوهم.

- لا أفهم.. هل أكذب كي أهرب؟

- سيدتي، ما أنت فيه لن ينتهي، وستموتين هنا ويظن الناس أنك ساحرة. هذا سيفتنهم أكثر من صمودك وأنت حبيسة هذه الجدران. القاضي الجديد أوعز للحاكم أن تكون تهمة المسيحيين هي السحر. تهمة يفهمها الناس ويخشونها، ولا تستدر التعاطف أو تفتح القلوب. هذا رجل خبيث، وهذا هو العالم يا سيدتي. سيرتك تقول لي إنك حاربت بشرف طيلة حياتك، لكن الحرب خدعة. لست كإيزوس يا سيدتي، ولكم أصلي للرب خشية أن أكون مُضلًّا مثله.

- لكنكم تخاطرون بأنفسكم من أجل تهريبي، وما أنا إلا

امرأة مثلي مثل الآلاف بالخارج. هن يعانين ويُضطهدن، لماذا لا يجدون منكم هذا التعاطف؟

- لأنكِ شمس مُلهمة. إنقاذك سيشجع الجميع على أن يفعلوا مثلنا. سيعرفون أن بأيديهم أكثر من مجرد الخوف والهرب من مكان لآخر. ولّى زمن الاختباء. لتكن صيحة يستيقظ بها الغافلون جميعًا. هيا...

قاطعته:

- لن أفعل هذا يا أخي. لن أخرج من هنا لأكون عرضة لكِبر النفس. أنا فلاحة كيميتية أريد أن أعيش وأموت في سلام.

- والحرب؟ والحرب التي يليها السلام؟

تساءلت في نفسي، كيف عرف هذا؟ هل كنت أهلوس وأتحدث؟ هل هو هنا منذ زمن؟ أم هي حقيقة العالم؛ حرب يليها سلام؟ بحر دماء يغسله مطر مبارك من لدن الرب؟

همس الحارس الذي قص شعري لديسيوس:

- هيا.. أحدهم قادم.

قال الكاهن إنه سيعود لي خلال أيام، وهو يأمل أن أقبل هذا الحل.

تكومت في الركن أرتجف، أسترجع وجه موريس وريجولا

وأتمنى لو تجمد الزمن حينها كما تتجمد الأنهار هنا، فيسكن الوقت كأنما مات، ووصل إلى راحة أبدية.

اليوم الأول بعد الأشهر الثلاث الأولى...

دخل الحارس الذي قصّ شعري، ووضع أمامي طعامًا مؤلفًا من خبز وثمار فاكهة وقال لي وهو يخرج سريعًا:

- اعذريني. لولا ما فعلت ما وثقوا بي. الرب معنا.

الحارس مسيحي؟ إذًا فقد أمسك الشرر في القش، ولن يستطع أحد إخماد الحريق.

اليوم الخامس بعد الأشهر الثلاث الأولى...

دخل عليّ ديسيوس في الليل، وقال إننا في موعد مناسب لتنفيذ المخطط.

- تلقَّى الحاكم البغيض وابنته ضربتين من سهمين مسمومين صباح اليوم. الجميع ينتظر موتهما.

- سهام مسمومة؟ من فعلها؟

- أحد الموتورين بالطبع، لكن من المُرجَّح أنه أحد رجال الغال. هذه طريقتهم في تسميم السهام والحراب. هيا يا سيدتي.

تهدَّجت أنفاسي وأنا أسئله:

- لماذا صوَّبوا نحو ابنته؟

- لا أعرف. ربما أخطأوا التصويب.

- الرجل صغير السن، كم عمر ابنته؟

- أصغر من عمر الزواج. هيا يا سيدتي.

قمت فلففتُ جسدي بالتوجا التي أحضرها، ثم قلت له:

- سأخرج معك في حال واحد. أرسل للحاكم وأخبره أنني أعرض عليه محاولة علاجه وابنته.

- سيدتي؟!

- ماذا سيحدث لي لو رفض؟ وقتها سأفكر في الهرب معكم، لكن لو قبل يا أخي، ألن ننقذ روحًا بريئة؟ ألن يُتاح لي فرصة الدفاع عن نفسي أمامه؟ أنت قلت إن القاضي هو من أوعز له بفكرة محاكمتي كساحرة. ماذا لو سمعني؟

- ماذا لو قتلك؟

- سأفوز في كل الأحوال.

شجَّعته ابتسامتي، فخرج، ثم عاد بعد ساعات مع حارس شديد، قيدني ودفعني حتى عربة، أخذتني إلى بيت الحاكم.

(7)

وكثرة السنين تُظهِر حكمة

شهر مضى في بيت الحاكم، وأخيرًا استطاع اليوم أن يتحرك.

رُحت أجمع كتبي التي طلبت إحضارها، وكذا رسائلي وبردياتي، ووضعت كل شيء في حقيبتي الجلدية استعدادًا للعودة إلى السجن.

حين أتى الحرس، طلبت من الحاكم أن يسمعني فقط، بعدها يفعل ما يشاء.

- حاكم المدينة المُبجل. أنا فيرينا الكيميتية، من جنوب إيجبتوس. ابنة أحد أشراف البلدة وابنة عم القائد الشهيد موريس، قائد إحدى الكتائب الكيميتية. كنت أول من تعلَّم من نساء قريتي، وأول من خرج منها وطاف البلاد. كنت الوحيدة التي تملك ملابس متنوعة وذهبًا للزينة. لكنني وكل أهل قريتي سواء. بل أنا وكل البشر سواء. هذا ما علمني أبي، وتعلّمه من الكتاب المقدس. لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح. ليس يهوديًا ولا يونانيًا. ليس عبدًا ولا حرًا. ليس ذكرًا ولا أنثى. لأنكم جميعًا واحد في المسيح يسوع. الإيمان يا سيدي هو ما يعطينا قيمة عند

الرب، والمحبة هي ما حاولت زرعه في القلوب في كل يوم من أيام حياتي. الله محبة، إننا نخدع أنفسنا إذا ظننا أنه يمكننا أن نحب الله ونكره الناس الآخرين.

قال الحاكم بعدما سعل وشرب ماءً:

- لماذا ساعدتِنا يا فيرينا؟

- نحن نحب، لأن الله أحبَّنا أولًا.

- ما مقابل مساعدتك لنا؟

- فرصة أن تسمعني فقط. أنا لم أقدَّم لمحاكمة عادلة، بل ألصقوا بي تهمة مهينة تسيء إلى إيماني وتُضل المؤمنين. خرجت من بلدي لأنني فقدتها وفقدت أهلي جميعًا، وجئت هنا أملًا في أن يمنحني الرب سكنًا ووطنًا. أحببت أهل هذه البلاد وأحبوني، واحتوت أرضهم أجساد أهلي. لا أقول إننا فقط من عانينا الظلم والقهر، لكنكم جميعًا تعانونه. ما جرى لك ولابنتك أيها الحاكم ما هو إلا مغبَّة الظلم والقهر.

نظر لي الحارس عاقدًا حاجبيه، ثم نظر إلى الحاكم، فهز الأخير رأسه وأشار لي أن أكمل:

- احترسوا من كل ظلم، لأن الرب إلهك يكره كل من يعمل بالظلم، والسماء والأرض شاهدتان على الظالم... قد نظلم

يا سيدي دون أن ندرك لأننا بشر، لكن الاستمرار في الظلم غِي. أنا ظلمت وظُلمت حتى ما عاد فيَّ قوة أن أستمر في طريقي، وظننت أنني إن اختبأت من الحق، فإن الظلم لن يطولني. هل ترى كيف ظلمت نفسي؟

- لا بأس. سآمر أن تعودي إلى إيجبتوس دون أن تضطري للاعتراف بجُرم لم تأتي به. كتبك كتب علم لا سحر، ولا يوجد ساحرة تقف أمامي تُحدثني بهذا المنطق واللسان الفصيح.

- لا أريد العودة إلى إيجبتوس. على الأقل ليس قبل أن أخرج إلى الناس وأبين لهم براءتي، وأشدد من أزرهم. لقد ظلمتهم بخوفي ويأسي، لكن ما أفجعتني به الأيام كان أكثر من قدرتي على التحمل، وأشكر الرب على الأيام التي قضيتها في السجن، فرأيت نفسي بضعفها وقوتها، ورأيت شيطاني وملاكي.

- لا يمكن يا فيرينا أن أدعك تُبشِّرين بالمسيحية في مدينتي. هذا مستحيل. لتخرجي إلى الجبال في الشمال وتسكني فيها، وسأسمح لك بزيارة قبور أهلك هنا.

أخرجت من حقيبتي مشطي الخشبي وجرة الماء الصغيرة وقلت له وأنا أترك الحقيبة مفتوحة لتظهر منها كتبي:

- هل يُخشى على الناس من هذا وهذا؟

أطرق إلى الأرض مفكرًا، ثم قام يتكئ على كتف خادم، وقال دون أن ينظر إليّ:

- أطلقوها... فماذا ستزيد هذه أو تنقص؟

فأطلقوني في الصباح التالي.

خرجت من بيت الحاكم، ورأيت هيلينا تجلس تحت شجرة قريبة، وديسيوس يتحدث إلى كهنة آخرين لم أرهم من قبل. لكن المكان كان أكثر ازدحامًا مما توقعت. وجوه حبيبة مألوفة، ووجوه خشنة غاضبة، أول ما رأتني قذفتني بالحجارة وراحت تهتفت:

- الموت للخبيثة.. لقد سحرت الحاكم!

اندفعت هيلينا نحوي تظللني بجسدها، وتسُبُّهم وترُد حجارتهم إليهم. التفَّ الكهنة حولي والناس الطيبون، فقُذفوا بالحجارة، لكن أحدًا منهم لم يتحرك حتى خرجنا من الزحام إلى ساحة المدينة حيث تنتظرنا عربات مكشوفة تجرها الدواب.

ركبت مع هيلينا وديسيوس وطفل تعلَّق في ملابسي فلم أرده. مسحت هيلينا وجهي من الدماء بملابسها، ثم ناولتني

منحوتة من الحجارة على هيئة صليب وقالت:

- صنعت لكِ هذا. لا تحزني يا فيرينا، نحن معك.

ربطت الصليب الجديد إلى صليب أوريليا الذي أعاده إليَّ حرس الحاكم. قال ديسيوس وهو يغض بصره عني إذ راح غطاء شعري ينزلق عن رأسي الحليق:

- سيدتي فيرينا. لقد كتبت سيرتك، ونسختها وأعطيتها لكهنة آخرين من بلاد مختلفة، واقتسمنا رفات الشهداء كي نفرقها في أنحاء البلاد، فلا يُعثر عليها مع أحد بعينه فتُحرق.

- أما عن الرفات فلا بأس، وأما سيرتي. لماذا فعلت ذلك؟

- هي أعظم من أن يطوِها النسيان. تربيت على ضفاف نهر مثلك، وكنا نزرع وننتظر الحصاد مثلك. لطالما راودتني الشكوك في كل مرة نغرس فيها البذور؛ تُرى هل سينبت ما بذرنا؟ هل سيموت الزرع؟ هل سيكفينا؟ كنا نفعل كل ما في وسعنا، ونصلي للرب، وننتظر. أحيانًا ما يفسد الثلج مزروعاتنا، أحيانًا ما تأكلها الآفات، أحيانًا لا تنبت الأرض شيئًا بلا سبب معلوم، لكننا كنا نقوم ونحاول مرة أخرى. فيمَ أخطأنا؟ وماذا تعلمنا؟ هذا هو ما تعلمته من أبي وأعمامي. النهر يمنح ويأخذ. الأرض تمنح وتأخذ. نحن كذلك، البشر يمنحون ويأخذون، والحصاد؟ الحصاد بيد الرب يا سيدتي.

ورحلنا شمالًا إلى تسورتساخ، حيث تجمع حولي من رحل معنا من أوجونوم وسالودوروم وبالطبع توريكوم. أردنا أن نبدأ من جديد بذر البذور، وعلى معرفة منا بأخطائنا وضعفنا.

هذا فيضان جديد... بداية جديدة...

لم تُعلن هيلينا إيمانها، ولا حتى لي، لكني لمحتها أكثر من مرة في زياراتنا للشهداء، ترشم الصليب، وتضم كفيها وتصلي بعدما تنبش مراقدهم وتُخرج ما دسَّته فيها من تماثيل سحرية ظنَّت في يوم أنها ستساعدها في العثور على حبيبها. هذا زرعها، وحصادها، وها هو طوفانها يمسح ما اقترفت. باركك الله يا ابنتي. رافقني ديسيوس وهيلينا في رحلة امتدت اثنتي عشر عامًا لتحديد أماكن الشهداء ودفنهم والصلاة عليهم، وجمع رفاتهم، وتدوين سير أعمالهم.

وأخيرًا يا فيكتور، عرفت مكانك -بمساعدة الشجاعة هيلينا، التي قامت مقام ساقاي اللتان خذلتاني- وشكرت الرب أن الجنود قد نقلوا جسد موريس قرب مرقدك دون أن يدرِكوا. أنت في أوجونوم يا فيكتور جوار صديقك، وريجولا في توريكوم جوار أخيها. وها أنا اليوم، وبعد قرابة خمسة عشر عام هنا في تلك البلاد الغريبة، جواركم جميعًا، أطوف عليكم كالطير، أحدثكم، تؤنسون وحشتي. لكن أي وحشة يا فيكتور وكل هؤلاء الأهل حولي؟ هم أبناء إيماني كما قال لي

موريس. هم وطني بعيدًا عن الوطن.

أنتم حصادي، وسأنتظر الفيضان فأبذر وأحصد إلى آخر أيامي. لن أختبئ، لن أترك الشيطان يُسفِّه من إيماني ولن أتركه يحول نعمة الرب عليَّ إلى نقمة. كلما عملت عملًا أرفع به رأسي تباهيًا إلى السماء، سأخفضه إلى الأرض وأصلي. هذا هو عمل البشر ومعاناتهم في الحياة، وسأحمل هذه المعاناة على ظهري وأمجِّد الرب.

سأضع رسائلي لك جوار مرقدك، وأكتب إليك يا فيكتور آخر سطور: لقد انتصرنا يا فيكتور. انتهت الحرب مؤقتًا، ولن يطلب منا أحد سوى السجود للرب.

الإمبراطور العظيم كونستانتينوس، المسيحي ابن أرض داشيا، ابن هيلينا الهيلِّنية المسيحية من عامة الشعب، قد صار حاكم البلاد. هذه هي البشرى يا فيكتور. لقد انتصرنا بالمحبة، وشيدنا وطنًا جديدًا بالمحبة، وصار لنا أهل بالمحبة.

اليوم أرتاح يا فيكتور، وحتى نلتقي في الملكوت، سأصلي لنا جميعًا، ولتذكرني أمام عرش النعمة..

فيرينا.

***

آمين

... اختارت القديسة فيرينا موضعًا لصلواتها واجتماعها بالعذراوات جوار أشجار التوت البري، وكانت تحكي لهن عن طفلة اسمها سينيكا، وعن قرطين على شكل ثمرتي توت قد تحولتا بقدرة الرب عبر السنوات من ذهب جامد إلى نبتة حية.

وصل ميديولانوم، وأرسله إلينا خادم الكنيسة هناك، خطاب من امرأة كيميتية تُدعى مينريت، تقول فيه إنها بخير وإنها تزوجت تاجرًا سكندريًا وأسمت أبناءها بأسماء فيرينا، وريجولا، ودانيال، وأنها في چراچوس تعيش، وقد عرفت أخيرًا مكان فيرينا -التي تنعتها أمي- بعد سنوات من البحث عنها، وتصلي أن يجمعهما الله.

وفي عام الرب هذا، تنيَّحت القديسة فيرينا الكيميتية، في بلدة تسورتاخ، عن عمر جاوز الستين عامًا. وقد انتقلت إلى الأمجاد السماوية في مغارتها فوق الجبل، وحولها آلاف من محبيها، تقودها العذراء القديسة مريم إلى النعيم الأبدي.

بعد تنيُّحها بيوم واحد، طلبت هيلينا الهيلّنية أن تتعمَّد، ثم طلبت منها أن تحكي لي حكايتها، كيف جاءت من هيلاس(33) إلى إيجبتوس، فرفضت. قالت إن الرب يعرف

كل شيء.

مهما عرفنا من سير السابقين، فسيظل الجوهر لا يطلع عليه إلا الرب، وما نحن إلا مدونون لما يظهر لنا وما انكشف من أعمال الذين قهروا ممالك، صنعوا برًّا، نالوا مواعيد، سدوا أفواه أسود، أطفأوا قوة النار، نجوا من حد السيف، تقوَّوا من ضعف، صاروا أشداء في الحرب، هزموا جيوش غرباء، أخذت نساء أمواتهن بقيامة. وآخرون عُذِّبوا ولم يقبلوا النجاة لكي ينالوا قيامة أفضل.

خادم الرب، الكاهن ديسيوس الرافيني.

المصادر

- الأطباء في مصر في العصر الروماني، د. السيد رشدي محمد.

- الحياة اليومية في مصر الرومانية، نافتال لويس.

- الطقوس الجنائزية في العصر الروماني، د. أحمد محروس إسماعيل.

- القديسة فيرينا والكتيبة الطيبية، د. سمير فوزي جرجس.

- النقل والمواصلات في مصر في العصر اليوناني والروماني، د. عبد اللطيف فايز.

- طرز الأزياء في العصور القديمة، د. سلوى هنري جرجس.

- الخطابات القبطية المبكرة، أحمد نقشارة.

- صعوبات الحياة العسكرية بصحراء مصر الشرقية، أ. حنان محمد إسماعيل.

- الكتاب المقدس.

- The burden of Isis- James Teackle Dennis.

- Fox's book of martyrs- John Malham.

- Clarmont Coptic Encyclopedia.

- The Chatholic Encyclopedia.

- Champer of Luxur- Ioli Kalavrezou-Maxeiner.

---

(1) نهر النيل.

(2) الإسكندرية بالقبطية.

(3) المصريون - قبطية.

(4) جراجوس - قرب قنا الحالية.

(5) طيبة - باللفظ القبطي القديم.

(6) كيمي- مصر بالقبطية.

(7) ما يُخزن للفتيات من مال وأغراض لجهاز زواجهن.

(8) تونيك - اسم صحيح لزي أقرب للجلباب أو الفستان الحالي، ومنه أشتق اسم التونيك في الملابس المعاصرة.

(9) ثوب قماشي يُلف به الجسد وربما تغطي النساء شعرها به.

(10) وعاء فخازي ذو سعة محددة.

(11) البهنسا الحالية.

(12) أوزيريس - إله البعث والحساب.

(13) الأقصر.

(14) حابي - النيل.

(15) إيزيس -من آلهة التاسوع المصري- ربة القمر.

(16) عظيمة السحر.

(17) أخيل.

(18) إله الشمس والخصوبة - مصر القديمة.

(19) من تاسوع هليوبوليس، وهي أخت إيزيس وأزيريس.

(20) معبود الشمس- مصر القديمة.

(21) قِفط.

(22) القوصية.

(23) أسيوط الحالية.

(24) داسيا- رومانيا.

(25) ميلانو الحالية- إيطاليا.

(26) سانت مورتيس- سويسرا.

(27) ترير- ألمانيا.

(28) جبال الألب.

(29) سولوتورن- سويسرا.

(30) نهر الراين.

(31) زيورخ الحالية- سويسرا.

(32) مصر.

(33) اليونان.